ساحر الكتب

باسم زكي

درويش بن بركة

رواية

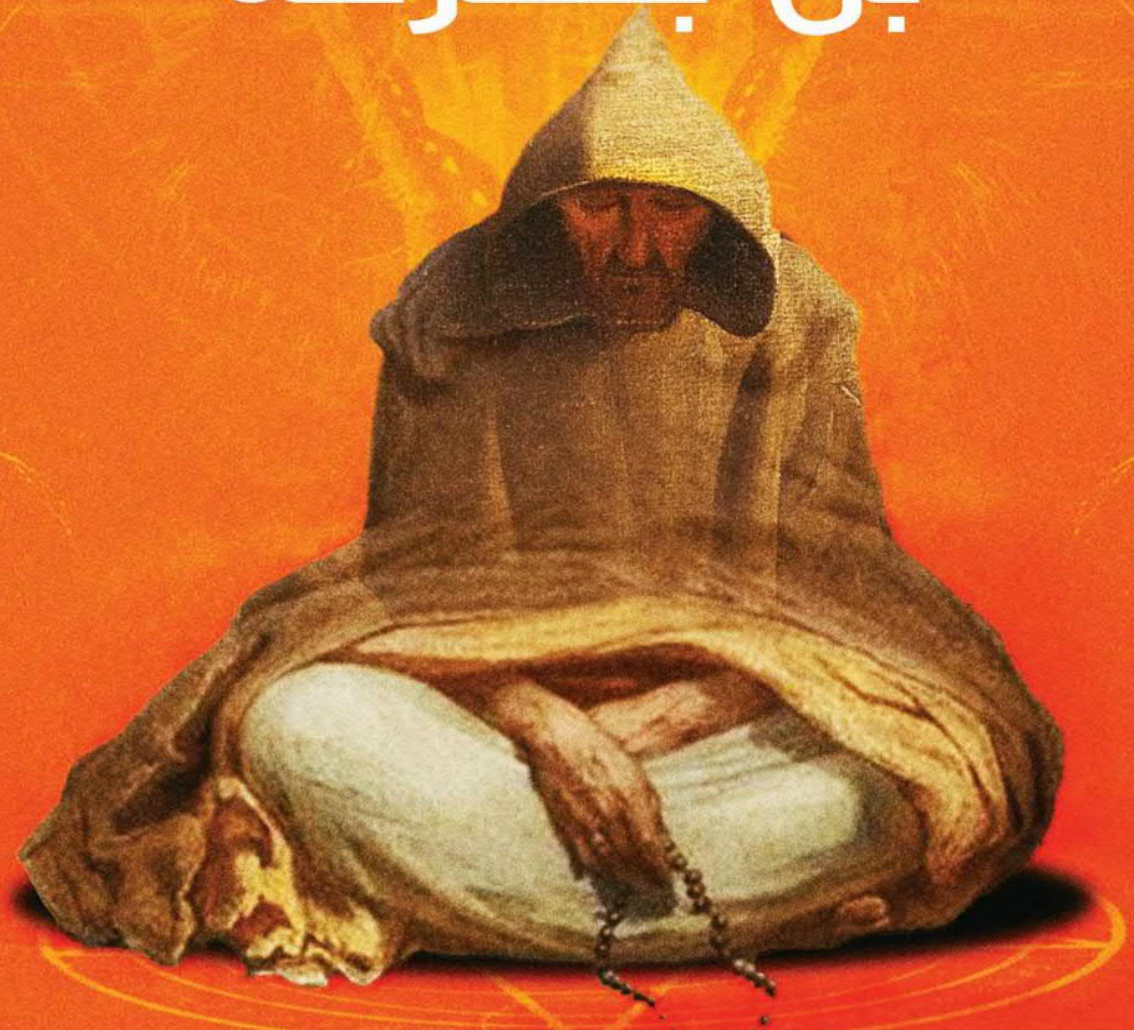

إهداء وتحذير

«إلى تلك الأرواح التي تمزقت ألمًا وحدها، وكانت تجأر بصرخاتِ الوجع دون أن يستمع لها أحدا، إلى كُل روحٍ تألمت وجعًا وقُهرت بتكذيبِ ما تمُر به من عذابٍ فكانت حسراتها مرارات في حلقها، إني أسمع آنينكم وأشعُر بآلامكم وادعوا الله لكم فلا تحزنوا فهو يعلم ولن يخذلكم، أما التحذير فهو للقارئ والباحث عن العلم المجهول ستجد ضالتك هنا لكنِ أحذرك من أن تضل الطريق وتشرُد عن درب درويش وبركة فشياطين هذا العالم وملوكه حقيقية ولن ترتدع عن الفتك بك لمجرد ذكر أسمائهم فلا تذكرهم أو تبحث خلفهم وإياك أن تضل الطريق.»

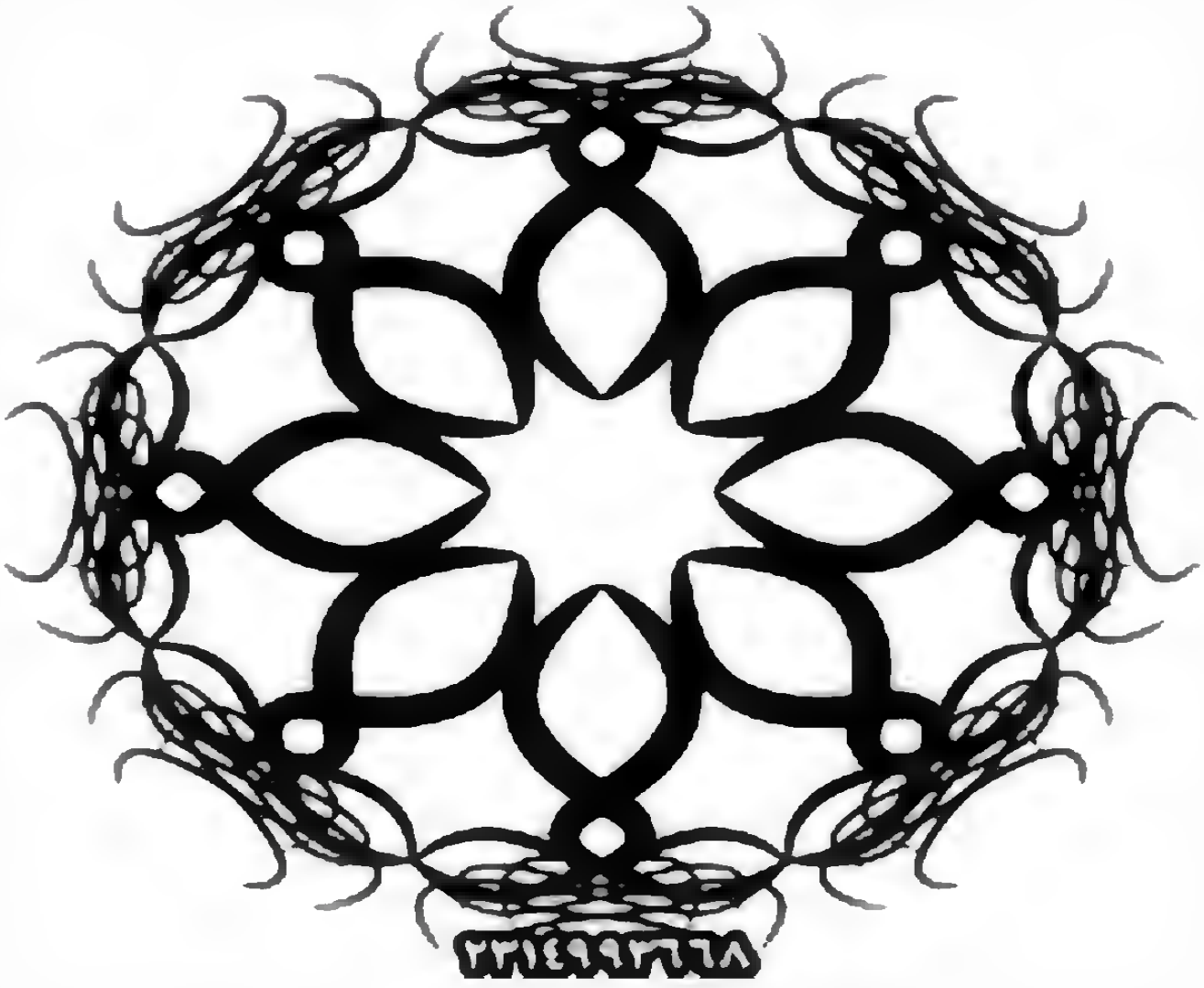

«احذر الاقتراب من عالم الجن فلن تجد فيه إلا الشر والهلاك، تُراقبك شياطين هذا العالم وتنتظر اقترابك لتلتهم روحك؛ فتحصن بالابتعادِ عنه»

(١)

سيلنار

عجز الطفلان عن الحركة تمامًا؛ تشبث كُلٍ منهما بالآخرِ يرفضان التقدم خطوة أخرى تجاه منزلهما، تملكهما الفزع وانفجرت أعينهما بالبكاءِ وحناجرهما بالصرخاتِ؛ جاهدت الأم في تهدئة روعهما وضمهما إلى صدرها، أكدت لهما أن ما شاهداه بالأمسِ لم يكُن سوى كابوس مُفزع ولن تسمح لهذا الكابوس أن يتكرر مرةً أخرى!، ترجت طفليها للصعود إلى المنزل فهي مُجهدةً من مشقةِ العمل طوال اليوم ولم تقُم بتجهيزِ الطعام لهما ولا لوالدهما الذي يعود من عمله مُتأخرًا؛ وافق الطفلان بصعوبةٍ على العودةِ إلى المنزل فحملت (مازن) وأمسكت بيد (روان) تصعد بهما الدرج فمشقة حمله كانت أهون عليها من التأخُر أكثر من ذلك، في كُل الأحوال كانت تعلم الأم أنها تحتاج أن تسرع ولن تتحمل صعودهم البطيء للدرج، فهي تعود مساءًا من عملها ولسوء طالعها عادت اليوم مُتأخرةً بساعة كاملة وضاعت منها أكثر من نصف ساعة أخرى في مُحاولات إرضاء طفليها، ويجب أن تسرع لتُجهز طعام أسرتها لقد داهمها الوقت حقًا، تلك هي دورة حياتها وروتينها اليومي الذي يكاد لا يتغير، فتاة بسيطة تُحارب من أجل أسرتها ولا يعنيها شيءٌ في

الحياة سوى تلك الأسرة؛ فتحت باب شقتها ودلفت بطفليها (روان) الابنة الكُبرى وهي في الثانية عشرة من عمرها، و(مازن) الابن الأصغر وهو في التاسعة من عمره؛ تركت طفليها وأدارت لهما التلفاز على إحدى قنوات الأطفال، ترجتهم للانشغال باللعب حتى تنتهي من إعداد الطعام، تركت الطفلين متوجهةً للطرقة التي ينبثق منها الحمام في يمينها يتبعه مطبخها ثم سُلم داخلي للدور الأعلى من الشقة ويحوي غرفة كبيرة للأم والأب وغرفة للطفلين؛ نجم هذا التصميم من صغر مساحة المنزل ليبتكر الأب في محاولة استغلال أكبر قدر من المساحة المتاحة فتحول الدور الأول إلى صالة وحمام ومطبخ والأعلى غرفتين للنوم؛ اندفعت الأم تسابق الزمن في تجهيز الطعام ولم تشعُر كم مر عليها من الزمن فلقد أرهقها إشعال نار الموقد فبرغم حداثته كان يرفض أن يشتعل؟!، ظنت أن صمام الغاز مُغلق لتتأكد من سوء ظنها بالنظر إلى الصمام الذي لم يكُن مُغلقًا!، ندبت حظها السيء وهي تضرب بيديها وقدميها في كل اتجاه وتلعن العمل والغباء الذي تحكم بها حتى اشتعلت النار وحدها!، اقشعر بدنها قليلاً فكيف للنار أن تشتعل من تلقاءِ نفسِها؟!؛ تأخيرها وحسن سجيتها ألهماها أنها قد تكُن ضغطت على زر الإشعال الذاتي في ثورة غضبها وهو السبب في إشعال نار الموقد؛ انهمكت في الطبخ وبدأت تشُم

رائحة خبيثة هي أقرب إلى رائحة جُثة مُتعفنة تحللت مُنذ فترة طويلة، من أين تنبع تلك الرائحة؟!، أهي حيوانٌ ميت، قد يكون فأراً أو قطة، ذهبت تنظر في أسفل حوض الماء وتفتش حتى بدأ يُزعجها بشدة صوت التلفاز الذي ارتفع بشكلٍ جنوني؛ انتفضت صارخة غاضبة تُحدث طفليها:

ـ لماذا ترفعان الصوت إلى هذا الحد هل أصابكما صمم؟!.

اندفعت خارج مطبخها لتتسمر أقدامها أمام أبوابه من هول ما رأت عيناها؛ كانت تجلس (روان) في وضع قرفصاء تضم رُكبتيها إلى صدرها وتنتحب وتصرخ فزعا ً في آخر الصالة بينما كان شقيقها (مازن) مغشى عليه يجُره كائنٌ غريب لهُ أقدام ذئب وجسد أنثى ووجه ذميم، له فك ممتلئ بالأنياب، وشعر كثيف من أسفل الرأس، يدان بشريتان بأظافر طويلة، أسود اللون، أعين جاحظة وحمراء دامية، يغرس أنيابه في كتف مازن ويسحبه تجاه الحمام، هرولت الأم تجاه طفلها تنتزعه من بين براثن الشيطان وهي تصرُخ فزعة بكُل قوتها تستجير بجيرانها؛ أطبقت يدها على يد طفلها تسحبه للخلف، احتضنته هو وشقيقته في صدرها، رمقها الشيطان بنظراته الغاضبة وهو يصُب جحيم عينيه تجاهها، قشعريرة أصابت كامل جسدها من هول نظراته، شعرت أن كُل شعرةً برأسها تتقصف كأوراق شجر قتلها

الخريف فجعلها هشيما تذروه نظرة الشيطان، هل الأرض تهتز حقاً بها وبطفليها؟!، عاجلها انقطاع التيار الكهربائي فجأة، لم تعُد تتذكر من الأمر سوى نظرات وأعيُن هذا الشيطان، فكانت نارية مُضيئة في الظلام قبل أن يُغشى عليها وهي تحتضن طفليها؛ فتحت عينيها صارخة:

ـ روان.. مازن.

وجدت طفليها في أحضانها وقد أُصيب مازن بحروقٍ في كتفه، حولها زحام من الجيران وهي تجلس بشقة الحاجة (سعاد) بالدور الأول من المنزل، حدثتها بنبرة مُطمئنة:

ـ اطمئني فالحمد لله لقد كسر أبناء الشارع الباب وأنقذوكم من الحريق.

أجابتها مصدومة من حديثها:

ـ أي حريق؟!، لم يكُن هنالك حريق؟!.

ـ لقد اشتعل مطبخكم وسمعنا صرخاتك ففزع الجيران لنجدتكم ووجدوكم بصالة المنزل.

ارتعش جسدها بقوة وهي تصرُخ:

ـ لم يكُن حريق كان شيطانًا وكان الطفلان على حق.

اندفع أهل الشارع من رجال ونساء على صوت صرخاتها

إلى داخل شقة الحاجة (سعاد) التي بادرتها سائلة مشدوهة من حديثها:

ـ ما الذي حدث وما دخل طفليك فيما حدث؟!.

أومأت برأسها رفضاً والدموع تجري على وجنتيها، نظمت أنفاسها المتقطعة بصعوبة، استجمعت شجاعتها لتتذكر ما حدث؛ كانت نائمة في فراشها بالأمس هي وزوجها فأيقظتهما (روان) فزعةٌ تنتحب تقبضُ على يد شقيقها، وهي تصرُخ خوفًا:

ـ قالت لي أنها سوف تقتل مازن وتقتلني بعده، ثم تقتلكما كما قتلت جدتي.

انتفض الأب من الفراش مذعوراً بينما احتضنت الأم ابناها في صدرها تحتوي ذعرهما، حمل الأب مازن في صدره سائلاً ابنته في صدر أمها على فراشهم:

ـ ما الذي حدث؟!، ومن قال لكِ ذلك حبيبتي؟!.

خرجت كلماتها مذعورة تكاد تُفهم، أخبرتهما أنها كانت في غرفتها نائمة ولجوارها شقيقها وأقلق نومهما أنين امرأة وبكائها وهي تُنادي عليهما بأسمائهما، فتحت عينيها لتجد شقيقها يجلس خائفاً، تحرك الطفلان مغادرين الغرفة هابطين الدرج بداخل شقتهما فلقد كان ينبع الصوت من حمام الدور

السُفلي، كُلما اقتربا كان صوت البكاء والأنين يرتفع حتى فتح الطفلان الباب ليجدا كائناً مُخيفًا يسير على أربع، قدماه الخلفيتان لكلب كثيفتا الشعر وله جسد فتاة يُغطيه الشعر بكثافة، رأس لها أذنان حمراوان مدببتان لأعلى وأعيُن حمراء دامية، فك كفك الأسد وخلف رأسه شعر أسود كثيف طويل يلامس الأرض، يدان بشريتان عضلاتهما ظاهرة وأكف بشرية سوداء كبيرة لها أظافر طويلة، حدثهما الكائن بصوت مُخيف أصابهما ذُعراً:

ـ هل تُريدان أن تقابلا أخيكما الذي قُتل في بطن أمكما؟

أجابت (روان) بخوف وبراءة الأطفال:

ـ نعم نُريد لكن أمي قالت أنهُ ذهب إلى الله.

غضب الكائن بشدة وتحدث بنبرة أكثر رعباً وفزعاً:

ـ كاذبة لقد أذهبته جدتكم الملعونة إلى الشيطان، فكان يجب أن تمُت تلك العجوز الجاهلة تلك الميتةُ الشنيعة، أنا من قتلتها وسوف أقتل (مازن) وأقتُلكِ بعده وأصحبكم معي لتقابلوا شقيقكما؛ ثم أقتل أبيكما ابن تلك العجوز الملعونة وأمكما وتجتمعون جميعاً في قعر الجحيم بصحبة الشياطين لتُمزق أرواحكم وأجسادكم؛ فما رأيكما؟!.

تملك الطفلين الرُعبُ والفزع ودفعهما للهرب مهرولين إلى

غرفة الأبوين، أنهت (روان) القصة لهما وهي تسأل أمها في خوفٍ وبراءة:

ـ هل حقاً أخي الذي مات في بطنك ذهب للشيطان ولم يذهب إلى الله؟!.

ضمتها إلى صدرها وأجابتها:

ـ لا يا حبيبتي فشقيقكِ ذهب إلى الله، فما رأيتماه مجرد كابوسٍ فقط؛ فلتناما اليوم إلى جوارنا.

ضمت أطفالها إلى صدرها، انسحب الأب وأشعل سيجارته وهو يُغادر الغرفة، قاطعت زوجته مغادرته سائلة:

ـ أين تذهب؟!، ألن تنام؟!.

ـ سوف أدخل الحمام وأعود للنوم إلى جواركم.

لم يكُن الزوج على ذات القدر من هدوء زوجته، كلمات طفليه احتوت بداخلها أسراراً لا يعلمها غيره، تلك الأسرار هي ما دفعته للقلق، تكرار طفليه للفظ العجوز الملعونة هو أكثر ما دفعه للفزعِ، بدأت روحه تتوجس خيفة، كما كانت كلماتهما الأخيرة أشد خطورة ووطأة على نفسه وهي (أنا من قتلتها)،فإن لهُ أياماً قليلة عائداً من صعيد مصر بعد دفن والدته التي توفيت في منزلهم بالقرية هناك ولم تُكتشف

جثتها إلا بعد أن تحللت وصدرت منها رائحة العفونة، وهو ما دفع أهل القرية إلى اقتحام المنزل واكتشاف وفاتها وإخبار وحيدها بالأمر ليحضر دفنها، تذكر في تلك الأثناء حواره مع الطبيب قُبيل إصدار تصريح الدفن له بعد معاينة الجُثة، حينما قال له:

ـ رغم عفن الجثة إلا أني أشتبه بقوة أن هنالك من عذبها بالنار في كتفها ورقبتها، أنظر.

أشار تجاه مواضع بعض الحروق في جثة والدته، أجابه بعد المشاهدة:

ـ إن والدتي سيدة وحيدة وليس لها أعداء ولم يُسرق شيئاً من المنزل!، أتوقع أن تكُن قد أُصيبت بتلك الحروق من سخان الغاز بمنزلي بالقاهرة، فوالدتي عادت إلى القرية مُنذُ أسبوع واحد، فلقد كانت تقيم معي بعد أن أُجهضت زوجتي وسقط عليها سخان الغاز بحمام منزلي هناك!

لم يقتنع الطبيب بقصته، ومع عدم اقتناعه صرح بالدفن ولكنه دون ملاحظاته في شهادة الوفاة لتُدفن المرأة، أراد الابن طمس الأمر عن الجميع لأنه كان يعلم سبب تلك الحروق؛ بدأ الأمر مُنذُ كان شابًا مُراهقًا في قريتهم وكان يسمع من أصدقائه أن أمه تعمل بأمور السحر والشعوذة مُنذُ وفاة والده، حتى اليوم الذي دخل فيه منزلهم عليها

ليلاً ولم يجدها، كان قد أخبره أحد أصدقائه أن أمه تقوم بسحرها بمقابر القرية ناحية الجبل، توجه في طريقه إلى هنالك، كانت الليلة غريبة مُظلمة بشكلٍ مُقبض، سوداء قاتمة لا قمر فيها بالكاد يتحسس خطواته في ظلامها الدامس، حتى لاحت له شواهد القبور وهو يتحرك تجاهها، بدأت تتثاقل خطواته رغماً عنه، رغم برودة الليلة شعر بحرارة كبيرة حوله وتعتري جسده، تصبب عرقاً وهو يُجاهد في التحرك حتى شُل تماماً عن الحركة!، دقق النظر حوله باحثاً عن سبب أو مصدراً لتلك القوة التي تمنعه عن الحركة فلم يجد شيئاً!، لاح أمام عينيه شيئًا بعيداً له ُ أعيُن مُضيئة يعدو تجاهه، كيانٌ غامض وغريب جاهد في مُحاولة كشف كُنهه، من قصر قامته ظن أنه ُ ذئب، ولكن أي الذئاب هذا الذي تشتعل أعيُنهُ نارًا!، هو شيطان رجيم لا محالة، نهض من الجحيم لاهثاً يبحث عن روحٍ يلتهمها، تيقن أن عليه الهرب فوراً وأن سقوطه أرضًا كفيل بنهايته وعليه ألا يسقُط مهما حدث، دفعه الفزع لإخراج ما بجسده من طاقة يعدو هربًا، أطلق العنان لقدميه يُهرول مُبتعدًا، تُلهب مؤخرته سياط الخوف من السقوط في الجحيم، أي لعنةً وأي قدرٍ ألقى به في طريق المقابر والجحيم في تلك الليلة السوداء، أي غباءٌ أصابه ليذهب بأقدامه لفتح أبواب الشيطان وكشف أسراره، لم يتوقف عن العدو لحظة، تجلد عقله الأفكار ويجلد جسده

الذُعر من مصيرٍ يعلمه إن سقط، ظل في نزاعه مع عقله وجسده حتى سقط أخيرًا أمام باب منزلهم يكاد يلتقط أنفاسه المتقطعة؛ نظر تجاه الطريق ليُطمئن قلبه بأن هذا الذئب أو الشيطان لم يتبعه؛ شعر بشيءٍ يُلامس كتفه من الخلف، صرخ فزعًا وهو يدفع جسده للالتفاف والابتعاد للخلف مذعورًا بأعيُنٍ مُحدقة محاولاً اكتشاف أي شيطانٌ خلفه؟!.

(٢)

شيطانة من الإنس

سقط على مؤخرته يتكئ على يديه يمنعان ظهره السقوط، دقات قلبه ترتفع أصواتها كأنها طبول حربٍ لا تتوقف، أوردة وعروق بدنه تفورُ بها الدماء فزعًا، روحهُ تُنتزع منهُ نزعًا، لحظاتٌ مرت عليه أعواماً من الخوف والفزع، لتقع أعيُنه على الصاعقة، كان الواقف خلفه هو أمه التي ذهب يتلمس خبرها بالمقابر مُنذُ لحظات!، كيف عادت من هُناك بتلك السرعة لتسبقه وهو الذي هرول عدوًا كمُهرٍ أطلق العنان لأقدامه في سباقٍ مع الريح، بدت كأنها عائدةً من معركةٍ مُدمرة، جلبابها الأسود يمتلئ بآثارِ الأتربة، رغم وقفتها الصامدة بدت لهُ مُنهكة للغاية، نظرت له نظرةً لم ينسها قط، صبت جحيم غضبها عليه فخرجت كلماتها صفعات تُذهب ما بقي من ماء وجهه:

ـ ما الذي دفعك للذهاب إلى المقابر؟!.

أجابها من موضعه بصعوبة ونبرة مُضطربة:

ـ لم أذهب إلى هناك.

أشارت بسبابتها تهدده وتحدثت بذات اللهجة والنظرة

القوية:

ـ إياك والكذب، لقد ذهبت وكان غرضك أن تكتشف سر أمك ولو أن لك عقل لما ذهبت، لكُنت سألتني فأُجيبك أيُها الأبله؛ نعم أمك تعمل بالسحرِ، ومن أين لي أن أطعمك وأُعلمك أيها الغبي وأنا امرأةً عجوز؛ اذهب إلى مصر وتعلم بجامعاتها وتزوج من بناتها، سوف أظل أمك وأعلم أنك لن تبقى بمنزلي أكثر من ذلك، اذهب برغبتي أفضل من أن تذهب رغماً عني؛ لم ينسَ يوماً نظرات أمه ولا قدر الفزع الذي شاهده في تلك الليلة الملعونة، حتى حينما قرر الزواج وسافر ليُعلمها، سافر فجراً وخرج من بلدته عصرًا، لم يكُن اللقاء العاصف مع أمه وحده سبب رحيله المُبكر بعد ساعات قليلة من وصوله، إنما كان خوفه من أن يحل عليه المساء في تلك البلدة معها وحده، خاصةً بعد ما دار بينهما فور أن أطلعها على قراره الزواج، كانت تجلس أرضًا وأمامها طاولة قصيرة القوائم يعرفها أهل القُرى جيداً وهي مُخصصة للطعامِ تحمل فوقها دجاجة، كانت العجوز تلتهم طعامها بشراهةٍ مُقززة، تنهش الدجاجة بثلاثة أسنان فقط هي ما تبقى لها في هذا الفك، كانت تبدو قوية كعادتها، رغم جسدها النحيل يبدو عليها عنفوان القوة في حركاتها ونظراتها، تردد كثيراً قبل أن ينطق بكلماته، حزم زمام أمره واستجمع بقايا شجاعة في قلبه وألقى كلماته إليها كمن يُلقي قُنبلة وهو

مُتيقن أنها سوف تنفجر فيه حتى لو لم يُلقها، فاختار أن يكون الانفجار بيده لا بيد غيره:

ـ لقد أتيت لأعلمك أني أنهيت دراستي الجامعية وقررت الزواج من (رجاء) زميلتي بالدراسة؛ أُريد حضورك ومباركتك للزواج.

ألقى كلماته وهو يتتبع حركاتها بشغف وترقُّب، جالسًا على أريكة خشبية بزاوية الغرفة متوترًا، على أثر اللقاء الفاتر الذي التقته به، فهي لم تنهض من مقعدها أو تتوقف عن الأكل أو تُبادله القُبل أو تنظُر له أو تُرحب بعودته بعد أعوامٍ من الغياب؛ أجابته والطعام يتطاير فتاته من فمها بنبرةٍ ساخرة:

ـ أي جامعة!، أنت تكذب فأنت لم تجد عمل بعد الدراسة في الجامعة إلا سائق في شركة أدوية، قام بتوظيفك فيها هذا المغفل والد تلك الفاجرة التي تُريد أن تتزوجها، وتظن أني هنا لا أعلم عنك شيئاً وأنا أعلم ألوان سراويلك وسراويلها الداخلية أيها الأبله، أي يومٍ مشؤوم ولدتك فيه؟!، يا ليتني لم ألدك، لم ترث مني شيئًا!؛ كم تمنيت لو كُنت ذراعي وسندي وترث عني حملي لكنك ذو قلبٌ ضعيف مثل أبيك، سوف تتزوجها رغم كلماتي؛ أنت لا تُريد مني الحضور أنت أردت أن تتبرأ من عقوق الوالدين، لكن هل تظن أن هذا

سوف يُدخلك الجنة؟!.

انفجر غاضبًا فطغى غضبه على فزعه منها، انتصب واقفاً تنطلق من فمه كلماته:

ـ إن هذا المغفل! الذي تسُبينه قام باحتضاني ورعايتي طيلة خمس أعوام، وهو رجُل صالح وتلك الفاجرة! سوف تُصبح زوجتي سواء كان ذلك بإرادتك أو دونها؛ وعملي لا يعيبني إنما العيب في أن أسلُك دروب الشيطان مثلك لأجد رزقي من بقايا موائد الجحيم ولحم الأموات، وقلبي الذي تتهميه بالضعف كأبي لهو أشرف وأنقى من أن يكُن كقلبك الحجري أو أشد قسوةً من الحجارةِ؛ قطعاً سوف أذهب للجنة فلم تتدنس روحي ولم أخضع ولن أخضع إلا لله؛ أنتِ مُحقة فلم أحضر لأصحبك إنما أتيت لأتخلص من ذنب العقوق أمام الله؛ واسأل الله لكِ الهداية.

ثارت شياطينها على حين غرة، دفعت الطاولة بيديها لتتهشم بما تحمله بالجدار المواجه لها، نهضت آلاف الشياطين من قعر الجحيم معها في وقفتها، اتسعت عيناها وذهب بياضها تماماً لتغرُب سوداء بالكامل بلون ليلة حزينة لا قمر فيها ولا حياة إلا للغربان الحائمة في أجواء الموت مُبشرة بقدوم الجحيم واللعنات، اندفعت تجاهه في قوة وعبُثت جبهتها، تحول وجهها إلى شيطاناً ذميماً نهض غاضباً

مُدمراً قيوده التي سُجن بها لأعوام في جسد تلك العجوز، تحدثت بلهجة خشنة للغاية كأنما ألفُ رجلٍ يتحدث وبقايا الطعام تتطاير في وجهه:

ـ أيُها الأبله وهل تظن أن لك منجى مني أنت أو تلك الفاجرة أو من سوف يصل من نسلك منها؟!؛ قد ينجو من بين يدي هذا المغفل فهو ميت لا محالة في غضون أشهر، أما أنت وتلك الفاجرة ونسلك سوف تلحقك لعنتي في حياتك ومماتك، اركُض كيفما شئت في النهاية سوف تلحقك لعنتي مهما ابتعدت؛ أنت لي إما بخنوعك صاغرًا أو بإخضاعِكَ مُجبرًا.

طرقت الأرض بقدمها بقوة فشعر بزلزلة الأرض تحت أقدامه ولم يشعُر إلا وهو مُلقى قُرب باب الغرفة على أثر صفعتها له وهي تصرُخ:

ـ ارحل فلعنتي سوف تُلاحقك حتى في قبرك؛ فلتتذكر دائمًا لا منجى لك مني.

زحف والفزع يقتلع ما بقي من أمان روحه هارباً من منزلهم وقريتهم بأكملها، لم يتوقف عن الاستدارة برأسه طيلة طريق رحيله ليطمئن أنها لا تتبعه؛ كان ما يؤرق روحه حقًا هو تحقُق كلماتها!، عاد وتمم زواجه كما قالت وكما كان يُريد، ولم تمُر أشهر قليلة إلا وتوفى والد زوجته على إثر أزمة

قلبية واكتشف الجميع أنهُ كان يُعاني من أمراض في القلب مُنذُ فترة ولم يُخبر أحد؛ ارتفع معدل الخوف في داخله فهل حقاً تمتلك أمه تلك القوة الشيطانية؟!، وإن كانت تملكها فهل حقاً سوف تلاحقه لعنتها هو وزوجته وأبنائه؟!؛ وما ذنبهم جميعاً في تحمل أوزار أعمال شيطانية لم يشتركوا فيها أو يقبلوا بها؟!، مر عليه العام الأول لوفاة والد زوجته بصعوبة بالغة، ثم نسي كُل شيء مع مرور العام تلو الآخر دون أن يحدث شيءً، ظن أن كلماتها ما هي إلا تُرهات وخرافات عجائز!؛ حتى اليوم الذي عاد فيه من عمله ليجدها تقبع بصالة شقته تترقب قدومه كحية خبيثة تنفُث سمها في الهواء من حولها، نظراتها الثاقبة لم يُبدلها الزمن ولا أعيُنها وملامحها الميتة، اقترب منها مُرحبًا في سعادةٍ مُصطنعة وخوف حقيقي بدا جليًا عليه، تحدث مُضطربًا بعد أن بسط يده لها تسليمًا دون أن تُحرك ساكنًا له ولا لسلامه المُصطنع:

ـ كيف حالك يا أمي، لقد أضاء وجودك منزلي.

دون أن تلتفت له أجابت:

ـ الطبيب بغرفتها بأعلى، زوجتك أُجهض جنينها، اصعد واصرف الطبيب.

صعقه هول ما صدر من كلِماتها الخبيثة، هرع يصعد الدرج متجهًا لغرفته ليجد الطبيب انتهى من مهمته ويخرُج من

غرفته، سأله في فزع:

ـ ما الأمر وما الذي حدث؟!.

ربت برفقٍ على كتفه وتحدث بنبرةٍ هادئة مُطمئنة:

ـ الأمر بسيط يبدو أن زوجتك أجهدت نفسها بشدة فأُجهضت، هي بخير وتستطيع الدخول إليها وخلال أيام قليلة سوف تستعيد عافيتها تمامًا.

رحل الطبيب ومن خلفه مُمرضة كانت تحمل معدات الطبيب ولُفافةً من القطن، لم ينتبه لها ولا لما تحمله، اندفع ليحتضن زوجته الراقدة على فراشها في فزعٍ بدأ يجتاح كيانه بالكامل مُبددًا أمان روحه التعسة، بكى وانتحب بشدة وهو يحتضنها بينما كانت فاقدة الوعي تمامًا فلم يشعُر بالزمن وهو يمُر، انتزعه من غفوته ألمٌ رهيب في كتفه، فزع ليجد أمه توقظه وبذات نظراتها الميتة ونبرتها القوية تحدثت إليه:

ـ سوف أرحل إلى بيتي فلقد انتهت مهمتي هنا؛ تذكر كلماتي فلعنتي سوف تلاحقك أنت وأبنائك وتلك العاهرة الراقدة في فراشك حتى وأنا في قعر الجحيم.

نفثت سُم الكراهية والحقد في وجهه وزرعت الخوف والفزع في صدره ورحلت من الغرفة، تسمم جسده فزعًا

فعجز عن الحركة، شل السُم شفتاه فأقعدهما عن الحِراك وعقد لسانه عن الحديث فسكت قهرًا، شعر أن هنالك قوة لا يُمكنه مواجهتها اجتاحته تُقيد روحه فسجنتها بجسده العاجز عن الدفاعِ عنها، كم تمنى لو صرخ في وجهها أنها ليست الرب لتتحكم في حياته أو مستقبل أبنائه وزوجته، كم تمنى لو صفعها وحملها ليُلقيها خارج منزله؛ تلك الشيطانة العجوز من أين لها بكُل هذا الحقد والكراهية له وهو وحيدها؟!، أسئلة كُلها بلا إجابات أشعلت رأسه في لحظات، لماذا حضرت اليوم تحديدًا؟!، ولماذا تُصر على كُرهها له ولزوجته رغم كُل تلك السنوات؟!، كانت صدمته الحقيقة وما جعلت الفزع يتخذ من قلبه مسكنًا هو ما سردته له زوجته فور إفاقتها، أعلمته أن أمه وصلت للمنزل وكانت هي بمفردها وأطفالهما بمدرستهما، رحبت بها وبدأت تستمع لكلمات غريبة بصوت يكاد يُسمع من أمه، صعدت لغرفتهما لتُحضر لها ثيابٌ مما لديها لتستبدل ثيابها، فشعرت بألمٍ لا يُطاق ببطنها ولم تستطع أن تفعل شيئًا إلا اتصالها بالطبيب لتسقط فاقدة الوعي تمامًا ولا تتذكر أكثر من ذلك؛ هبط من الغرفة ثم عاد مُسرعًا وأعينه منفتحة على اتساعها صارخاً في زوجته:

ـ أين رقم الطبيب؟

ـ على الهاتف، ما الأمر.

اندفع يلتقط الهاتف من أعلى الكومود وأجابها وهو راحل:

ـ لا شيء فقط يجب أن أطمئن منه على حالتك الصحية وإن لزم الأمر نقلتك مستشفىً.

هبط للدور الأول، التفت مرارًا يتأكد أنه لا يوجد من يسمعه، اتصل بالطبيب الذي أجابه:

ـ مساء الخير يا (رجاء)، كيف حالك الآن؟

ـ مساء الخير يا دكتور، أنا (عصام) زوجها وأسأل عن حالتها وأين جثة الجنين فهي كانت بشهرها السادس من الحمل؟!.

ـ اطمئن حالتها جيدة، أما عن جثة الجنين فلقد أخذتها والدتك من الممرضة قبل خروجنا من المنزل.

صعقته كلمات الطبيب وأصابته بالدوار، سقط الهاتف من يده، ترنح بقوة في خطواته وهو يُجاهد في محاولته الوصول إلى الحمام ليغسل وجهه ورأسه بالماء ليفيق من صدمة كلمات الطبيب وما يرسخ بداخله من خوف تجاه ما قد تفعله تلك الشيطانة بجثة هذا الجنين من أفعالها الشيطانية؛ اقترب مترنحًا من حمامه الذي لم يكُن باردًا

كعادته!، كان حارًا للغاية يكاد يحرق من يدخله، ضغط زر الإضاءة بصعوبة ليُصعق من هول ما يرى، الإضاءة كانت حمراء قانية بشكلٍ غريب وكأنها شمسٌ تختنق بليلٍ بهيم بدد نورها الدافئ، الجُدران بأكملها مُغطاة بطبقةٍ لزجة من الدماء بلونِها الأحمر المُقبض، آلاف العقارب السوداء تغزو حمامه كأنها أياد الظلام التي تمتد لتُبدد الأمل في نفسه، حشرات لا يعلم كُنهها تلتهم الدماء اللزجة على أرضية الحمام وجدرانه وكأنها آلات مُسخرة للقتل والتعذيب وإثارة الاشمئزاز بالنفوسِ، كُل ما تدب به الحياة من تلك الحشرات تناحر فجأة على جثة طفل يمزق أشلائها قطعًا صغيرة في نهمٍ وحوشٍ لم ترَ فريسة حتى استوطن الجوع واستوحش في بطونِها الخاوية؛ اختل توازنه بشدة، بدأ جسده في الانهيار ليسقط أخيرًا فاقدًا وعيه أمام باب الشيطان؛ لم يكُن يتردد في ذهنه في رحلة سقوطه إلا سؤالاً واحدًا، أيُعقل أن تكون تلك الجثة لطفله؟!.

(٣)

بركة

ألهبت نهاية سيجارته أصابعه لتنتزعه من تلك الرحلة المخيفة في ذاكرته، أسرع إلى غرفته وفراشه يحتضن طفليه في صمتٍ؛ طالما آثر الصمت على الحديثِ في كُلِ ما يمس أمه، رسخ بداخله أن الصمت أبلغ من الكلمات عن الشياطين فتلك العجوز لا تنتمي أبدًا لعالم البشر!؛ سقط في نومه وأحضان درة حياته وهو يظُن أن ما شاهده طفلاه ما هو إلا كابوس مزعج!؛ عاد إلى منزله بعد يومٍ مُرهق من العمل يتلمس خطواته إلى شقته من فرط إجهاده، كان يومه مُرهقًا للغاية فلم يتوقف في يومه عن القيادة مُطلقًا، رغم أنهُ اعتاد هذا الإجهاد خاصة في أول كُل شهر حيث يكون العمل وإجهاده ثلاثة أضعاف باقي أيام الشهر إلا أنهُ كان يشعُر بالإنهاكِ الشديد؛ كان حالُ الشارع غريب يوحي بأن هُنالك أمرٍ جلل قد حدث هُنا!، أغلبُ أهل الشارع يصطفون على جانبي الطريق يتهامسون سرًا وهم يسترقون النظرات إليه!، توجس خيفةً من الأمر ليستنفذ ما بقي لديه من طاقة في الإسراع إلى منزله، كُلما اقترب من وجهته كانت خطواته تتثاقل!، وأقدامه تكاد لا تتحرك، لقد مر بذات الشعور المُرعب مُنذُ أعوام طويلة في ليلةٍ لم ينسها يومًا، لكن ما السبب

اليوم ليتكرر ذات الشعور؟!، وصل إلى باب منزله ليجتاز جمع جيران المنزل الهاربين بنظراتهم من مواجهة أسئلة عينيه عن سبب احتشادهم؛ سمع صوت زوجته في آخر كلِماتها صارخةً باكية:

ـ كاد هذا الشيطان اليوم قتل (مازن) أمام ناظريّ، هو شيطانٌ ملعون رأيتهُ بعيني ولم يكذب الطفلان ولم يكُن كابوسًا كما اعتقدت.

اخترقت طعنات كلِماتها روحه، أصابت خناجر الشيطان سويداء قلبه، طُعنت روحه في أمانها فتبدلت شمس نهارها ظُلمات ليلٍ دامس، اخترقت خناجر الخيانة الشيطانية فؤاده مُمزقةً نياط أقدس روابطه، الأرض تهتز أسفل أقدامه، بدنهُ يترنح بقوة يُجاهد السقوط في فخ الشيطان، تتصارع قوة لا يعلم كُنهها بداخله، تدور بداخله معارك بين الإيمان والكفر، حربٌ ضروس لا يعلم عنها إلا أن أمه هي من دفعته إلى تلك المعركة دفعًا، أي ذنب اقترفه هو وزوجته وأطفاله ليواجه حقد شياطين عالم لم يُفكر يومًا في الاقتراب منه؟!، أين حماية وأمن الله لمن لا أمن لهم ولا حماية؟!، كيف لشياطين هذا العالم السيطرة على عالمنا بتلك القوة الباطشة والحقد المُدمر دون رادع أو عقاب؟!، ترتفع أصوات الحرب برأسه بشكلٍ جنوني، يقرع طبول الحرب شيطانٌ مريد أوشك

على النيل منه ومن روحه، كُل ما مرّ به طيلة حياته البائسة لا يُقارن أمام الفزع الذي يجتاحه الآن مُدمرًا كُل ما أمن به يومًا، الألم لا يوصف بداخله يُزلزل كيانه بأكمله، كُل قطعةً من جسده وروحه تُريد الصُراخ ألمًا، لم يتمكن من السيطرة على ذاته الضعيفة أكثر، لتخرج صرخاته مُدوية تُدمر جدران سكوته بصلابتها، نداء واحد بدا له هو المنجى من تلك الآلام والحروب الدائرة بداخله، نداء واحد خرج من حنجرته يخترق آذان كُل من به صمم، نداء واحد كان كافٍ لإيقاظ آلاف الموتى من قبورهم، نداء واحد خشعت له أهل الأرض والسماوات باكية من فرط ألم هذا الشاب التعس؛ نداء واحد وصل إلى مالك السماء والأرض على عرشه، كانت صرخة مقهورٍ مُستجيرًا بمن بيده خلاصه، كان:

ـ يا الله.

خرجت صرخته تحمل آخر أنفاسه وآلامه، تُبدد خوفه وفزعه؛ قرر أخيرًا الاستسلام والسقوط، كُل ما مرّ بهِ في حياته كان يُجاهد ويظل صامدًا ويصمت أو يسكُت، كم تمزقت روحه وأُرهق جسده ثمنٌ لهذا الصمود الصامت أو الساكت، لقد تيقن أنهُ يأتي على الإنسان لحظةً يجب عليه فيها الاستسلام للحُزن والألم، طالما أعتنق فكرة أن الإنسان أقرب ما يكون لمعدن الذهب، يُستخرج الذهب من الأرض

على هيئته الأصلية وكذلك الإنسان، فيبدأ صهرُه وتشكيله بالنار فيظهر معدنه النقي ويتجلى في أجمل صوره؛ وهذا هو حال الإنسان يُكوى بنيران التجارب مُرها وحُلوها، يتشكل معدنه بألآم القهر والفقد والوجع أو بلين السعادة والاحتواء والحُب، فيتشكل ويتكون باختياراته ليظهر في أبشع صوره أو يتجلى في أبدعها؛ الجميع عليه الاستسلام للصهر والتشكيل، فكان اختبار معدنه هو السقوط في بئر الفزع والضياع، ظلامٌ سرمدي وليلٌ طويل، سماء مُلبدة بسُحب سوداء كثيفة يختنق بها القمر، غابةٌ من الأشجار الذابلة، ملايين الأوراق اليابسة تتهشم أسفل أقدامه كُلما دار حول نفسه يتلمس موضعه ويكتشف أين سقط فيصدُر لها صوتٌ توجس لهُ خيفة وزادت من فزعه، ما كُنه هذه الأرض الملعونة التي لا قمر في ليلها ولا ريحٌ في أجوائها ولا حياةٌ في أشجارها، هي أرضٌ ميتة بلا روح تُصيب في نفس من سقط فيها الخوف والفزع، شعر فجأة بخوفٍ رهيب يجتاحه، اندفع مهرولاً يُطلق العنان لأقدامه يُمني نفسه الهرب من تلك الغابة الملعونة، بدأت تختلط على مسامعه وهو يلهث في ركضه مُمنياً نفسه النجاة أصواتًا مُفزعة، استدار برأسه يسترق النظر ولم تتوقف أقدامه عن الركض وأنفاسه عن اللهث، بدت له الغابة تُزلزل من خلفه وتتلاشي إلى العدم، هُنالك شيءٌ يشق تُربتها ويُمزق أشجارها الميتة، تدفق الدم

في عروقه فزعًا، ارتفع صوت دقات قلبه حتى صار يسمعها قرع طبولاً مدوية تتراقص عليها روحهُ خوفًا، يقترب منه الزلزال أكثر مع كُل خطوةٍ في هرولته، رفع قدمه ولم تهبط على أرضية الغابة إنما سقط في بئرٍ عميق من العدم اللانهائي، يسقط ويسقط في فضاء بلا هدف؛ تبعته قذيفة بيضاء تسقط من تلك السماء تجاهه، أقرب ما يكون إلى نيزك أو شهابٍ ثاقب يسقُط بسرعة خاطفة حتى ابتلعه، شعر بألم رهيب في شتى أنحاء جسده، بدأ يتسمع لصوتٍ يرتفع إلى جواره لقراءة آيات من القران، بدأت تنقشع الظُلمة من عينيه، شعر بيد تغسل وجهه برفق وماء بارد يلاطف جلده، فتح عينيه ليجد جمعٌ من الجيران يقف يلتمس خبرًا عنه في خوف وحُب حقيقي، وقعت عينيه للمرة الأولى على الشيخ (رمضان)، رجُل في أواخر الأربعينيات من عمره، يبدو بصحة جيدة، ممتلئ البدن ولهُ لحية كبيرة مسها الشيب، ابتسم له بوجهه الممتلئ وتحدث إليه بنبرته الساخرة:

ـ ها قد عاد كما وعدتكم.

رغم تلك الهالة التي يدعيها الشيخ (رمضان) بجلبابه الأبيض ولحيته، وصوته الرخيم في تلاوة آيات القرآن وابتسامته العريضة؛ لم يشعُر تجاهه بأي فضلٍ على عودته من تلك الرحلة الشيطانية، تعالت أصوات الجيران وتشابكت

بين التحية للإنجاز الذي قام به الشيخ رمضان ومن غالى في أنها إحدى كرامات الشيخ العالم والمطلع على عالم الجن والشياطين؛ قاطعت الحوار الذي لم يتقبله (عصام) الحاجة (سعاد) بحديثها:

ـ الآن يا شيخ رمضان قد علمت المشكلة فما هو الحل؟!.

حاول (رمضان) أن يدعي الحكمة في حديثه ونبرته وسرعان ما بدا جهله بعد المقدمة التي لم يفهم أحدهم منها شيئاً فتحدث بوضوح:

ـ يبدو أن أحدً منكم قد أذى أحد أبناء الجن بحمامكم، ويجب أن نعقد صُلحاً مع عائلة هذا الجني؛ سوف يكلفكم الأمر مبلغاً من المال، هو ليس لي قطعاً وإنما لمستلزمات صرف هذا الشيطان وترضيته؛ إذا وافقتم سوف نصعد حالاً وتنتهي مُعاناتكم.

بدا الرجُل واثقًا للغاية في كلماته، وافق عصام مُرغمًا على طلبات الشيخ رمضان والمبلغ المطلوب رغم المبالغة فيه، ورغم سؤاله الدقيق والذي تمثل في كيف لمن لهُ قدرة على قوى خفية باطشة كالجن والشياطين أن يتقاضى أجراً إلا إذا كان ساحرًا أو نصاب؟!؛ ضُغط عليه بشدة من الجيران والمحاولات الفاشلة من الشيخ (رمضان) لإقناعه ليرضخ أخيرًا ويتقبل الأمر برُمته مُجبرًا؛ تحرك هو ورمضان وبعضًا

من الجيران صعودًا لشقته، كُلما ارتقى درجة من السُلم صعودًا كان يستشعر الخطر أكثر، وهو يفقد الثقة تمامًا في هذا المُدعي الذي يدفعهم إلى المهلكة، لم يقتنع بأن لهذا الرجُل قُدرةً خاصة مُطلقًا، أقنعه عقله أن لو هذا الرجُل صادقٌ لعلم كُل ما يُخفيه في نفسه عن الجميع ولعلم أن أمه كانت أشر شياطين الإنس على الأرض ولعلم أنهُ يتحتم عليه الهرب لا الاقتراب، ترسخ بداخله أن هذا الرجُل كُل ما سوف يفعله أنهُ سوف يفتح أبواب الجحيم وهو الآن حقًا في ما هو أسوأ من تلك الغابة الملعونة ولا يُمكنه التراجع؛ وصل الجمع إلى باب الشقة فتقدم (عصام) فتح الباب بهدوء لم يكُن يملكه بداخله إلا أنهُ أجاد ادعائه، دلف إلى داخل شقته يتبعه (رمضان) وأربع رجال من جيرانه، بدت الشقة طبيعية للغاية ولا أثر لأي حريقٌ نشب فيها، إلا من رائحة جُثة مُتعفنة وصلت لمرحلة التحلل، وحرارة غريبة دفعت الجميع ليتصبب عرقًا، قطع صمتهم كلمات أحد الجيران صارخًا:

ـ أقسم أني كنت هنا وأطفأت الحريق بنفسي وكان هذا الكُرسي قد احترق تمامًا.

أنهى حديثه وهو يُشير إلى أحد كراسي الصالون وهو مواجهًا لطُرقة الشقة، أشار لهم رمضان بالتراجع خلفه وتقدمهم ليواجه الطُرقة وهم خلفه وبدأ الحديث بنبرة عالية

تُشبه الُصراخ:

ـ أُقسم عليك أيها الكائن الموجود بالظهور والتجسد والتعبير عن ذاتك؛ إنهُ من...

قطع حديثه صوت انفجارًا ضخمًا من الحمام أطاح بالباب الذي خرجت منهُ ألسنة اللهب تسعى، انقطع التيار الكهربائي عن الشقة والمنزل بأكمله بل الشارع كله، تعالت صرخاتٌ مدوية من قلب النيران بنبرة خشنة للغاية ((لا مهرب لك مني))، أصابهُ الصرع وهو يصرُخ بالبسملة والاستعاذة من الشيطان، ولى مُدبرًا هاربًا من الشقة ينكبُ على وجهه سقوطاً هو واثنان من الجيران مُخلفًا (عصام) خلفه ورجُلين يواجهون شيطانٌ من الجحيم لا قبل لهم بمواجهته، اندفعوا جميعًا في ثبات يصرخون بآيات من القرآن في مواجهة تلك النيران الشيطانية مُسرعين في تجاوز الطرقة إلى المطبخ لتمتد يد عصام إلى بعض الآنية البلاستيكية التي تُخزن بها زوجته الماء لمواجهة انقطاعه؛ تبعه الرجُلان وصرخاتهم لا تتوقف عن ترديد آيات القُرآن حتى توقف كُل شيئًا في لحظة؛ انحصرت النيران وانسحبت إلى داخل الحمام وكأنها ثُعبانٌ سحبه سيده فأطاع أمره، عادت الإضاءة ولم يبقى أثرًا واحدًا لتلك النيران إلا من باب الحمام المُحترق؛ هبط ثلاثتهم من الشقة بعدما تأكدوا من انحسار النيران تمامًا،

هبط وقد تأكد أن تلك الشيطانة حقًا قد أتت جُرمًا رهيبًا وسحرًا أحلك في ظلامهِ من أشد الليلات سوادًا لتُحضر شيطانًا يحمل هذا الحقد والكره، هبط ولا يتردد في آذنه إلا هذا الصوت الشيطاني يهمس لهُ ((لا منجى لك مني))، وسؤالٌ لا إجابة لهُ عنده، كيف الخلاص من هذا الشيطان ولعنته، لم يكُن يتخيل كم الفزع الذي اجتاح منزلهم وشارعهم، الجميع يقف في مدخل منزلهم في فزع وذُعر، يتهامسون عن هذا الشيطان وانقطاع الضوء عن المنزل والشارع بأكمله وهروب الشيخ (رمضان)، بدا لهُ أن تلك الليلة لن تمُر أبدًا، أسدلت تلك الملعونة ستائر الظلام على حياته حتى وهي في قبرها؛ هروب هذا المدعي وما نسجه الهاربان معه من أساطير عن هذا الشيطان الملعون هز إيمان الجميع هزًا، كيف عجز عن مواجهة هذا الشيطان مهما بلغت قوته؟!، جميعها هواجس مُخيفة تُطيح به كما تُطيح بعقول جميع الخائفين، حتى خرجت له زوجته ترتدي جلبابٌ استعارته من أحد جيرانهم، تحدثت إليه في غضب وفزع وهي تُمسك بأطفالهم:

ـ هيَّ بنا فورًا.

صرخ في وجهها كما لم يصرُخ يومًا:

ـ إلى أين؟!؛ هذا هو منزلي ولن أتركه حتى لو كان من

بالأعلى إبليس ذاته هل تفهمين ذلك؟!.

ـ سوف نذهب إلى الشيخ ((بركة)).

اتسعت حدقتي عينه في دهشة سائلاً:

ـ من هو ((بركة))؟!.

ـ سوف أُخبرك في الطريق، فإن لي صديقة تنتظرنا لتُصلنا إليه.

(٤)

درويش

حمل الطفل المذعور على صدره يُمسك بيد زوجته المُرتعشة في يده بثبات وهي تُمسك بيد طفلتهم في خوفٍ، أراد أن يُطمئنها أنهُ لن يتركهم ولو كان الثمن حياته، حافظ على صمته طوال مسيره يقتُل التفكير ما بقي من روحه، ويمُزق ما بقي من شتات نفسه؛ ما الذي اقترفته تلك المسكينة في حياتها لتورطها بالزواج والإنجاب منك وأنت مُتيقن من أن لك أمٌ شيطانة ماكرة لن تتورع عن تمزيق روح تلك البريئة هي وأطفالها؟!؛ كيف لم يتمكن هذا الشيخ من مواجهة بطش هذا الشيطان مهما كانت درجة ادعائه؟!؛ هل تركنا الله لُعبة بين يدي شياطين الإنس والجن بلا رادع حقًا؟!؛ ما ذنب هؤلاء الأطفال ليواجهون مثل هذا الشر؟!؛ هل سوف أخسرهم جميعًا كما توعدت تلك الشيطانة قبل موتها؟!؛ إن ألم الفقد أشد من أن تحتويه كلمات أو أفكار، ضرع صغيره وقبض على يد زوجته بقوة لتهرب من عينه دمعة الخوف الحقيقي على فقد أعز ما يملك، فليذهب كبرياء الرجال وعنفوان قوتهم إلى الجحيم وما الذي يعود عليه منهم إن عانى فقد أحبائه؛ من عساه يُطمئن قلبه الصارخ فزعاً بصدره حسرةً وعجزًا؟!، أنجاه من حالته صوت

زوجته بنبرة ملئُها الأمل:

ـ تلك هي (زينب) صديقتي وتلك سيارة زوجها.

اقترب من السيارة فهبطت صديقتها ورحبت بهم بحرارة، حملت عنه (مازن) وطالبتهم الدخول إلى السيارة فكانت زوجته وطفليه وصديقة زوجته بالخلف وهو لجوار (خالد)، تحركت السيارة فحاولت (نجوى) فتح الحديث بسؤال صديقتها:

ـ ما الذي حدث؟!.

قاطعها (خالد) بنبرة حازمة:

ـ نجوى أرى أنهم في حالة لا تسمح بالحديث، ولا تنسي أن الأطفال لجوارك، فرجاءً لا تفتحوا أي نقاشً.

أنهى جُملته وأغلق الحوار بذكاء وقوة، نظر إلى (عصام) وعاد للحديث:

ـ أعلم ما تمُر به وما تُعاني منه، لقد مررت بتجرُبة عصيبة وأعلم أنك في حالة تشتُت وألم لا يوصف؛ كُل الكلمات لن تُعبر عنك لكن ما أعدك به هو أنك سوف تجد راحتك وضالتك عند إمامنا (بركة) حقًا هو أسمه وصفته.

أنهى كلماته واضعًا يُمناه على صدره كحبيب يربت على

قلبه الراقص طربًا ولهفة للقاء معشوقه

بعد ذكر اسمه، أجاب على حديثه بسؤالٍ كان يظنُ انهُ بلا إجابة:

ـ حتى ولو كانت راحتي وضالتي هي الهروب نفسي؟!.

ابتسم له بصفاءٍ أراح نظره وأجابه بثقةٍ:

ـ تُذكرني بكلماتي لمولانا بأول لقاء لي معه، سألتهُ سؤالك بطريقةٍ أخرى؛ إني أُريد الهروب من كُل شيء حتى من جسدي وأتمنى لو أخرج من جلدي لأشعُر بالراحة، هل تتوقع بما أجابني؟

بدا مُتحمسًا مُتلهفًا للسماع فأجابه مُسرعًا:

ـ بما أجابك؟!.

ـ قال لي يا بني جميعنا يهرب كُل يومٍ وليلة، أنت تهرُب من حياتك بموتك أقصد بنومك ولكن تهرب إلى منّ هذا هو الأهم؛ إن سكن الله قلبك سكنت روحك الطمأنينة وهبطت عليك السكينة، اهرب يا بني إلى الله، هو وحده من يُنجيك ويُعطيك حتى يُرضيك.

أطاحت نسائم الطمأنينة سويداء الفزع بروحه فبددت ظُلمات يأسه بنور الأمل، لاذ بصمته ينهمر الدمع يحرق

وجنتيه دون أن يلحظه احد باستثناء مجاوره وهو يقود فلاذ بصمت المُتأدب في حرم جمال لحظات الأمل والندم على اليأس؛ وقع صدى كلماته يُلملم شتات روحه المُمزقة باعثًا بداخله الأمل، إن كان ما يمُر به بلاء فبالتأكيد لهُ حكمة ومنجى من الله، الإيمان هو الإحساس الوحيد الذي تعجز عنهُ ألاف الكلمات مُفسرة، هو شعورًا داخليًا يترفق بروحك التعسة ويضمد جراحها هامسًا فيها أن القادم أفضل ويكون دومًا هو الأصدق وهو ما يتكفل بإثباته الزمن ومرور الأيام؛ فكانت كلماته بمثابة هطول المطر على أرض مصر بعد سبعها العجاف لترتوي بذور الأمل وتُزهر ورود الإيمان بجدباء قلبه اليائسة تُبدلها جنة رضا سُقيت الطمأنينة بعد جفاف ذُعرها؛ توقفت السيارة بأحد الأحياء الشعبية البسيطة، هبط الجميع فتقدم (خالد) لجواره(عصام) يتبعهم الزوجتان والطفلان، دلفا إلى أحد الشوارع لا يزيد عرضه عن العشرة أمتار، بدت مبانيه بسيطة متوسطة العمر لا يبدو عليها القدم المفرط ولا الحداثة المُبالغ فيها، لم يدُم سيرهم أكثر من خمسين مترًا حتى توقفوا أمام منزلٍ متوسط المساحة له ُ بابٍ حديديًا مُنفرج، تقدم (خالد) إلى داخل المنزل وكان لهُ مدخلًا فسيح به أريكة خشبية في يساره يتبعها باب شقة، منزل رغم بساطته لهُ هالة غريبة، ما أن تطأه قدمك حتى تشعُر براحةٍ غريبة، كأن هُنالك من أسقط عن أكتافك همومك

وأفكارك، حتى تلك المجموعة من القطط الجالسة أمام باب الشقة ولجوارها، لهم هالة غريبة وتصرُفٍ أغرب، لم يخافوا لدخولهم وينصرفوا كباقي القطط!، كان ثباتهم في جلستهم عجيبًا ويدعوا إلى الدهشة، كذلك أحجامهم كانت كبيرة بعض الشيء عن أحجام القطط العادية خاصةً القط الأسود، كانت لهُ رأسٌ كبيرة ونظرات حادة ثاقبة، تُثير القشعريرة في بدن من ينظر إليه، صفق (خالد) بيديه بقوة رافعًا صوته مُناديًا:

ـ يا مولانا.

انفرج باب الشقة لتظهر منه سيدة يبدو انها في العقد السادس من العمر، لها ابتسامة تسُر الناظرين، ممتلئة الجسد قليلاً نظرت للقطط وأردفت:

ـ أفسحوا الطريق للضيوف.

ثم نظرت لهم مُرحبة مُشيرةً لهم بالدخول، كان الغريب هو موقف القطط اصطفت كطابور عرضٍ عسكري على يسار الباب، دلف الجميع وكان أخرهم (عصام) الذي دقق النظر للقطط، تفاجأ بأنهم ثلاث الأقرب للباب لونهُ أبيض بياض الثلج يُريح النظر لمُجرد رؤيته، والأوسط أسودٌ بدا لهُ غاضباً يُريد الفتك به، والأخير رمادي اللون لهُ نظرة ثاقبة كأنهُ يخترق جسد من ينظر له، خشي التقدم من نظرات القط

الأسود وإبرازه أسنانه له، أنقذه صوت السيدة الكبيرة:

ـ تقدم ولا تخف أنت في مأمن هُنا.

كأن لكلماتها وقع السحر تبدل حال القط تمامًا وتبدلت نظراته كأنهُ أخذ الأذن بالسماح لهُ بالمرور، تقدم الشاب في حالة من الدهشة والتعجُب، دلف إلى صالة المنزل المُتسعة ومحتوياتها أريكتان كبار للجلوس، وجهاز تليفزيون بدا لهُ حديثًا يعمل على قناة تُذيع القرآن الكريم مصحوبًا بمشاهد من الحرم المكي، والكثير من الآيات القرآنية تُزين الجُدران، في يمين الصالة طُرقةً طويلة وعلى يسار الصالة باب غُرفة مُغلق، المنزل لهُ رائحة زكية طيبة وريحٌ غريب، تشعُر لمجرد وجودك فيه بطمأنينة غريبة كأنك لم تعهد طعم الأمان قبل وجودك هُنا، لم يكد يسأل نفسه أين اختفت تلك السيدة الطيبة حتى شاهد قدومها من الطرقة تحمل عصائر لهم، اندفع خالد لحمل ما بيدها وتولى تقديمه لهم فيما جلست السيدة لجوار باب الطرقة، نظرت لهم وأردفت وابتسامتها لا تغادر وجهها السمح:

ـ مرحبًا بكم، ما أن تنتهوا من مشروبكم حتى تدخلوا إلى الشيخ، هو ينتظركم.

لم تمُر عليهم لحظات حتى نهضت السيدة واقتربت من باب الغرفة وأردفت:

ـ أرى أنكم في قلق، ادخلوا وسوف أحضر لكم العصير بالداخل.

أنهت كلماتها وفتحت الباب لهم وهي تُشير بالدخول، دلف الجميع وكان أخرهم (عصام)، غرفة مُتسعة تحوي صالون كبير وفراش نومٍ يتوسطه رجلٌ بدا كبيراً في العمر من لحيته البيضاء بحُمرة جالسًا مُدليًا أقدامه لأسفل، وجهًا مُنيراً كأنما يُشع ضوءً بجلبابه الأبيض وغطاء رأسه بذات اللون، مُنهمك للغاية في قراءة مُصحفه الكبير أمامه على الحامل الحديدي، بدا لهم كأنهُ لم ينتبه لدخولهم غرفته، إلا أن إشارات (خالد) وزوجته لهم بالتزام الصمت كانت كفيلة للجميع بالتفهم أن الأمر مُعتاد، هو حقًا رجُل لهُ حضورٌ قوي حتى في صمته، لهُ هالة تبعث الأمان والطمأنينة لمن يقترب منه، ما أن تقع عينيك عليه إلا تذكرت الله وإبداعه في خلقه، أي الرجال هذا الرجُل ليكُن بتلك الهالة وهو في تلك العُمر المتقدمة؟!، لحظات وأعادت السيدة تقديم العصائر على الطاولة بمنتصف الغرفة وهمت بالخروج فما وصلت إلى الباب تُغلقه حتى قطع صوته الصمت بالغرفةِ قائلاً:

ـ القهوة يا حاجة.

أجابته في رضا:

ـ حاضر.

أغلقت السيدة الباب وكذلك الشيخ، أغلق مُصحفه، كان (خالد) تتبعه زوجته على يمين مجلسه، (رجاء) وأطفالها على يساره و(عصام) على الكُرسي المواجه للشيخ، بدأ الحديث بالنظر إلى يمينه وهو يضحك بصفاء:

ـ كيف حالكم أرى أن الجنين القادم أضاء وجوهكم، الحمد لله الذي أعطاكم ولم يمنع عنكم رزقًا.

أجابه (خالد) في سعادة:

ـ الحمد لله الذي رزقنا بك يا سيدنا، فعلمتنا الرضا وطريق السعادة.

ـ جميعنا باحث يا بُني عن الرضا ولكن رضا منّ هذا هو الأهم.

أنهى كلماته ونظر إلى الطفلين على يساره باسمٌ وأردف وهو يفتح يديه يحتضنهم:

ـ لا تخافوا واقتربوا فأنا هنا ولن أسمح أن يمسسكم أحد.

كان العجيب رد فعلى الطفلين اندفع كليهُما إلى صدره والتقمهم كأب فزع إليه أطفاله من ضياعهم أيامٌ فكان لقاءهم به لهفة وشوق لا تصفه كلمات، قبلهم في حنين

ينظُره الأعمى وأردف لهم:

ـ أنتم جائعون وتريدون النوم، سوف تذهبوا مع جدتكم ولا تخافوا شيئاً.

قاطعت حديثه (رجاء):

ـ أشكرك يا شيخنا ولكنهم أكلوا بالفعل وسوف ينامون بشقة والدي رحمة الله عليه، لك الشكر على عرضك الكريم.

تعالت ضحكاته بصفاء وأردف:

ـ هُنا عندي لا تفكري بالكذب، أنا أعلم ما يُريد أطفالك أكثر منكِ، ولكي تنتهي تلك المسألة تمامًا فليخرج جميعكم.

أنهى حديثه وهم الجميع بالخروج من الغرفة، قطع نهوض (عصام) بإشارته له وحديثه:

ـ جميعهم نعم، أما أنت فلا؛ كلانا يعلم أنك ما أتيت لتخرُج.

أنهى كلماته له ونظر للجمع المغادر بعدما فتح باب الغرفة مُحدثًا:

ـ سوف تضع الحاجة لكم الطعام، أما أنتم فتمت مهمتكم تستطيعون الرحيل بحفظ الله.

أنهى كلماته وهو يُودع (خالد) وزوجته؛ نظر إلى الطفلين

وهمس لهم بصوتٌ يسمعه الجميع:

ـ حمامُنا لا يوجد به أحد، جدتكم سوف تُدخلكم إليه لا تخافوا.

خرج الجميع إلى الصالة فكانت السيدة في الصالة وودعت (خالد) وزوجته، وأجلست رجاء وسألت الأطفال في حنو الجدة:

ـ تُريدون الدخول إلى الحمام؟

أشار لها الطفلان إيجابًا فصحبتهم تجاه الطرقة وأنارت لهم ضوء باب الحمام وغابت في الطرقة الطويلة، دلف الطفلان إلى الداخل تباعًا فبدأ (مازن) بالذهاب، تبعته (روان) فضمت (رجاء) طفلها بعد عودته سائلة في همس:

ـ هل أنت جائع؟

ـ نعم يا أمي جائع.

أصابتها الدهشة من إجابة طفلها، كيف لهذا الرجُل أن يعلم ما يُريد أطفالها من نظرة؟!؛ ما الذي قدمه لأطفالها من حُب واحتواء ليندفعوا إلى صدره بهذا الحنين رغم يقينها وعلمها أن أطفالها مُنعزلين تمامًا ولا يُرحبون بالاقتراب من الغرباء نهائيًا فكيف يرتميان بصدره وهم لأول مرة يلتقيا به؟!؛ ما

سر هذا الإحساس بالأمان والراحة الشديدة في هذا المنزل بشخوصه؟!، قطع تفكيرها وصول السيدة تحمل الطعام لتحمله عنها وتضعه على الطاولة الصغيرة بعد أن أحضرتها من زاوية الصالة، عادت (روان) من الحمام وجلست ليمين والدتها، نظرت لهم السيدة بابتسامة خالصة وأردفت:

ـ نحنُ لا نُدعو أحدًا للطعام، هذا منزلكم ولكن تيقني يا ابنتي أن سر هذا البيت هو الحُب وحده، جُدران هذا المنزل ذاته تُحب ضيوفه، هذا الطعام نُقدمه بُحب، قلوبنا وأجسادنا تخدمكم بُحب؛ نحن نُحب الله ويقيننا أن حُبنا للجميع هو صلاة العشق أمام محراب العشق الإلهي نبتغي بها قبلة الرضا منه، ولتطمئني سوف يأكُل معكم ابني وابن أبيه هو وريثنا وحبيبنا.

أنهت كلماتها ووجهت صوتها ونظراتها إلى الطُرقة الطويلة:

ـ (درويش).

عادت لهم بنظراتها، وتابعت حديثها:

ـ (درويش) نادرًا ما يقترب من الضيوف، ولا يتحدث كثيرًا إلا إذا اقتضى الأمر وكذلك لا يأكُل مع من يلتق بهم للمرة الأولى؛ لكنِ أُريد أن تلتقوا به سوف يُجيب عن كثيرًا مما يدور بداخلكم.

لم تكد تُنهي كلماتها حتى ظهر شابٌ طويل في ثياب منزلية عصرية، قمحي البشرة له لحيةٌ قصيرة؛ نظر لهم مُرحبًا مُبتسمًا في صمت، دعت السيدة الجميع للطعام، كان الشاب غريبًا في طعامه بدا أكثر خجلاً من الطفلين، كان غامضًا بصمته وتحاشيه النظر لهم، جذابٌ في ابتساماته الصافية التي تظهر على وجهه الطويل كُلما وقعت عينيه عليهم؛ كان التفكير ينهش عقل (رجاء) من هذا الشاب الغريب وكيف قالت عنه السيدة أنه سوف يُجيب عن كثيرًا مما في أنفسهم وهو لا يتحدث مُطلقًا؟!، ولا يكاد ينظر لهم؟!؛ حزمت أمرها وقررت فتح الحديث معه:

ـ أعتذر عما سببناه لكم من إزعاج.

نظر لها بتمعُن وتوقف عن الطعام ليُجيبها:

ـ لا تعتذري فلا إزعاج منكم بل الانزعاج والقلق عليكم فقط.

ـ هل الأمر خطير إلى هذا الحد؟!.

ـ الأمر كله يتعلق بما داخلك، أنتِ تخشين على أبنائك وزوجك ونفسك وهذا حقك لكن ما الذي سوف يعود عليهم وعليك من خوفك؟!، هل سوف يُنجيهم أو يُنجيكِ؟!؛ الخوف هو ما يتغذى عليه الشر كُلما زاد الخوف بداخلكم زادت قوة

الشر وغاب العقل وتحكمت في الإنسان أهوائه.

ألقى كلماته على عجل لينهض واقفًا وتابع:

ـ أعتذر منكم، لكن لنا حديثٌ أخر بالتأكيد؛ وبالمناسبة لا يوجد على تلك الأرض ما هو أخطر من الخوف على الإنسان؛ منّ ذا الذي يخشى مخلوقٌ وهو في رعاية الخالق الأعظم.

نطق لفظ الجلالة مُغمضًا عينيه كمن يرى ربه حقًا في خشوع، لم تكد تطرف عيني (رجاء) حتى اختفى من أمامها في الطرقة الطويلة بعد أن أثار قلبها وعقلها؛ من هذا الشاب ومن أين لهُ بهذا الإيمان والفكر العميق؟!، لقد أجاب عن أهم ما يجول بخاطرها ويقُلقها، قطع حديثها لنفسها هذا الصوت الصافي يستدعيها بأطفالها، كان هذا الصوت هو الشيخ (بركة) الذي ظهر لجوارهم ناظرًا لهم وأردف:

ـ لا تبحثين خلفه، هو عنيف إلا أنهُ دومًا صادق ولم ولن يخذل أحدًا استجار به، عنف الشباب واندفاعه فقط ما قد يعيبه.

شعرت بالتشتت مصحوبًا بالدهشة والصدمة للحظة كيف عرف أنها تبحث خلف هذا الشاب؟!، أجابت في توتر شديد ويدها ترتعش:

ـ أبحثُ خلف من؟!.

هربت منه ضحكة صافية وأجابها:

ـ (درويش)، لا تتعجبي فالأعجب سوف تسمعينه في تلك الغرفة مع زوجك، اتبعيني.

أنهى حديثه عائدًا للغرفة، تبعته بعينيها في دهشة وصدمة، من هؤلاء القوم وكيف لهم تلك القدرة العجيبة على اجتذاب من حولهم بهذا القدر من القوة، نهضت تتبعه ليصعقها حال أبنائها ما الذي حدث لهم وأين كانت هي أثناء ذلك؟!.

(٥)

وصل العاشقين

أغلق باب الغرفة في هدوءٍ ليعود إلى جلسته الأولى، بسط يده إلى حامل المصحف الكبير وأعاد فتحه، ارتدى نظاراته الكبيرة ناظرًا إلى سائلاً:

ـ ما اسمك؟ واسم أمك؟.

ما هذا هل عُدت إلى أحد الأفلام القديمة بصُحبةِ دجالٍ؟!، توجست نفسي خيفة من سؤاله فهل سوف تتكرر تجربة (رمضان) الفاشلة من جديد؟!، أقنعني عقلي أن الحل الوحيد هو اختبار (بركة) بإجابته وانتظار رده فإن كان صادقًا سوف يكتشف خطورة الأمر وإن كان مُدعيًا سوف أرحل بزوجتي وأبنائي في هدوءٍ، زفرت نفسًا عميقًا وأجبته:

ـ عصام، وأمي ((معتوقة)).

نظر لي نظرةً اخترقت روحي، شعُرت بقشعريرةٍ تسري في جسدي ورعدات تزلزلت لها نفسي ولم تسكُن روحي وجوارحي إلا بإبتسامته؛ ما سر هذا الرجُل نظرةً منهُ أصابتني بالفزع وابتسامة واحدة أعادت إلى السكينة؟!، غاب بنظره في مُصحفه يقرأ في صمت عن كلام البشر، متى كان

العاشق في حاجةٍ للكلمات مع معشوقه؟!، كان الأغرب هو هذا العبير الطيب الذي يفوح من تلك الغرفة، أين مصدره ومن أين ينبُع ولما أشعُر أن هذا الشيخ يُشع نورًا حقيقي؟!؛ قاطع أفكاري وصمتي بحديثه وهو يخلع نظارته ويضعها إلى جواره:

ـ إذا كانت القلوب عامرةً بالإخلاصِ فاح منها عبيرُ الحُب؛ فإذا أحبت صُفيتّ فتصافت الروح وأضاءت كشمسٌ مُنيرة تُسبح بحمدِ خالقها، أرهقت روحك بالبحث والتفتيش طيلة حياتك ولم تجني إلا الشقاء وهذا هو دأب الإنسان طيلة حياته، ينشغل بالبحث والتفتيش عن تعاسته بينما سعادته بداخله ولا يلتفت لها!

أنهى كلماته وهو يدُق برفق على قلبه، للمرة الأولى أشعُر بأن تلك الدقات الرقيقة كانت على قلبي، فكم كُنت أتحرق شوقًا وشغفًا لمن يترفق بقلبي، نظرت لهُ بتمعُنٍ وأجبته سائلاً:

ـ لكنني لم أكره أحدًا طيلة حياتي، ولم أسعى لضرر أي مخلوق؛ كُل ما أريده هو أن أعيش بأمان مع زوجتي وأبنائي، وما الذنب الذي اقترفناه ليكُن هذا جزائنا وتكُن تلك مُعاناتنا؟!.

أومأ برأسه رفضًا وأجابني:

ـ حقًا أنت لم تكره أحدًا لكنك لم تُحب أحدًا، أنت لم تُحب الأحق والأجدر بحُبِكَ، أنت لم تعرف ذاتك وسبب خلقك فلم تُحبها، وإن أحببتها لذهبت بحبك إلى عشق خالقها؛ وأما عن سؤالك بما ذنبك، وما ذنب شاب أطلق عليه اللصوص رصاصة في صدره فمات؟!، وما ذنب طفلٌ سقط في لحظةٍ من أعلى طابق فخر قتيلاً؛ هو القدر يا بُني ويجب أن ترضى لتسعد وتزول مُعاناتك.

شعُرت بالضجر الشديد من كلماته، حقًا لم أفهم مغزى كلماته فخرجت كلماتي حاقدة تحمل جهلٌ لا يوصف:

ـ وهل خلقنا الله ليُشقينا ويُسلط علينا شياطين الإنس والجن؟!.

لمعت عيناه بقوة وبدا على وجههِ حُزنٌ وغضب شديدين، نهض من جلسته واقترب مني في جلستي، دق على قلبي برفق شديد، كانت لمساته كهطول المطر على أرض مُقفرة لأعوام، فهدأت وارتوت بعد سنين عجاف، وأردف في نبرة هادئة:

ـ تلك هي مشكلتك يا بُني، أنت لم تقبل يومًا بما قسمه الله لك؛ فتوجب عليك خوض مُر التجربة لترضى كُرهً، هو لا يكرهك ولم يغفل عن مُعاناتك يومًا لكن الحقد والكره تملك

من قلبك فأظلمت روحك فضاعت سفينتك في بحرٍ لُجيّ من الظُلمات.

عاد لجلسته وهو يهز رأسه نفيًا ليستطرد حديثه:

ـ طيلة حياتك تُفتش عن الأسباب، ساقك قدرك إلى القبور تبحث فيها عن سبب رزقك؛ ولو أنك كُنت ترى وتفقه لعلمت أن رزقك ما يأتيك إلا بأمر الله ولو كان من جوف الشيطان ذاته، لكنك لم ترَ إلا الشر والحقد ولم تتعلم أن الجهل في بعض الأحيان أفضل من المعرفة وأن بعض المعارف قاتلة، ثم رحلت إلى بلدٍ غريب فجعل لك رزقك في يدِ رجُلٌ احتواك ولم يتوقف عطائه لك عند القوت بل زرع في قلبك حُب ابنة هذا الرجُل ليُرضي قلبك ويغسلهُ بالحُبِ ولم ترضى!، عُدت لبلدتك تتأفف وتمن على الله انك تُنفذ أوامره ولكنك لم تفعلها حقًا لتُرضيه مُخلصًا وأنت تعلم انك ما فعلتها إلا خوفًا من مخلوقٍ لا طاعةً للخالقِ، فما كان الجزاء إلا أن تعود حاصدًا ثمار زرعك من الحقد والجهل خوفًا وقلقًا يُمزق روحك، فعاد الله ليُرضيك وزوجك من تُحب ورزقك الستر والبنين ولم ترضى!، كُل يومًا في سرك وقبل نومك كُنت لا تخشاه بل كُنت تخشى الشيطان!، أنت من خشي الشيطان ونسي الله فكان جزائك هو أن ترى عطاء الشيطان؛ وكان عطاء من أطعت وخشيت هو جحيم الفراق

ونيران الفزع حتى أتيتني هائمٌ على وجهك تسأل أخلقنا الله ليُشقينا ويُسلط علينا شياطين الإنس والجن؟!؛ وهل لديك علم الساعة والغيب؟!، وهل لدي لأُجيبك؟!، سبقك في البحث حول المعرفةِ نبي الله (موسى) فكان الجزاء هو رحلته مع (الخضر)، ما ذنب أصحاب السفينة لتُدمرها وتُضيع رزقهم فكان الجواب لن تستطيع معيّ صبرًا، ما ذنب الطفل لتقتله فكان الجواب لن تستطيع معيّ صبرًا، لما لم تأخذ أجرًا لإقامة الجدار فكان الجواب هذا فراقٌ بيني وبينك؛ السفينة لُينجي أصحابها من بطش ملكٌ ظالم، والطفل لُيبدل الله أبويه ولدًا عاق جحود بخيرًا منه، وأما الجدار ليبلغ أصحابه من القوة ما يمكنهم مواجهة البلدة الظالم أهلها؛ أنت لا ترى إلا زاوية واحدة وهي ليست الحقيقة المُطلقة، فإذا كان خرق السفينة وقتل الطفل وضياع الأجر هو أبلغ آيات الحق والعدل فيجب عليك أن ترضى حتى لا يكُن هذا فراقٌ بينك وبين الله يا بُني.

كانت كلماته بمثابة الترياق لروحِ بعد تسمُمها فالروحِ إذا تسممت قبحت كُل شيئًا رأت فكان سُم روحي جهلُها وغرورها فطغت، الروح تميلُ لمن يُدللها ويمتدحُها ويكمُن السُم في مدح الجاهل فيندفع دفعًا إلى الغرور والاعتداد بذاته فخرًا فيتملك منه الغرور وهو بداية طريق الكبرّ الذي سيصل بصاحبه إلى الكُفر؛ كم زهوت كثيرًا بعلمي وادعيت

قُربي من الله وأنا أبعد ما أكون عن القُرب ، لم ترض نفسي يومًا وكان الشيطان والحقد هم أكبر مخاوفي ولو أني أخلصت في حُبي لخالقِ لنجت روحي، فكان السؤال الأهم في نفسي، هل حقًا كُنت جاحد مُجحف لهذه الدرجة؟!، تفجرت الدموع من عيوني وأنا أنتحب ندمًا لتُجيبني نفسي نعم أنت الجاحد المجحف، سقطت دموعي تحرق وجنتي لتجلي روحي من إثمها، سمعت صوته رقيقًا طُربت لهُ مسامعي:

ـ لا تخجل يا ولدي فكُلنا نُخطئ وهو الغفور الرحيم، ابكّ يا ولدي فالبكاء يغسل الروح ويُنقيها ليرتقيَّ بها إلى باب التوبة، وهو لا يرُد من أتَى إليه مُستغفرًا مُستجيراً بعظمته؛ لم يخلقُنا إلا لنُخطئ ونستغفر فيغفر.

ارتفع نحيبي وأصابتني رعشةً قوية تملكت جسدي، أُغلقت عيُني عن الدُنيا فلم أعُد أرى إلا فضاءً رحبٌ وسماء صافية بسُحبٍ ثقيلة أقف عليها ناظرًا إلى سماء لا آخر لها، نسائم من الجنة تهبُ على روحي من كُل جانب، ضوء نهارًا ربيعيًا مُنيرً لا أُدرك مصدره فلا أثر لشمسٍ أو قمر، سعادة وسكينة لا توصف أصابت روحي؛ كانت أقدامي مُثقلة بالخوفِ فكُنت عاجزًا عن الارتقاءِ، أثقلتُ روحي بالخوف وأسقطهُ الحُب فحلقت بأجنحته صافية لا وسيط ولا حجاب بينها وبين

خالقها ؛ الآن استقر في نفسي مصدر هذا الضوء ونسائم الجنة؛ المصدر روحي فجميعُنا يحمل نفخةً من روح الله إن أدركها وأحبها أرتقت روحه من ضيق الدُنيا إلى سعة رحمة الخالق الرحبةُ، فإن اشتدت عليه ظُلمات ليل الخوف بلغ فجر نهار الأمان الإلهي بذكره؛ اتسعت عيني بقوة مشدوهًا، هل هذا حقًا الشيخ (بركة)، ظهر فجأة أمامي مُبتسمًا تحدثت إليه مُضطربًا:

ـ هل أنت حقًا هُنا وأين نحنُ؟!.

ابتسم وأجاب بنبرته الحانية:

ـ قلُوب العاشقين تتلاقى يا ولدي على أبواب المعشوق فالنهاية واحدة وإن اختلفت الدروُب.

لم يكد يُنهي كلماته حتى شعُرت بوخزٍ خفيف على وجنتي، فتحتُ عيني فكانت (رجاء) تبتسم لي مشدوهة، سألتها مُستعجبًا من حالها:

ـ ما الذي أصابكِ هل جُننتِ لما تنظرين إلى بتلك النظرة؟!.

رفعت جبهتها ووجهت نظرها للشيخ (بركة) وتحدثت ضاحكة:

ـ أصابني أنا؟!، أنت لم ترَ نفسك من لحظات كُنت تبتسم

وعيناك مُغمضتان وتضع يديك على قلبك كمن يمنع قلبه الهروب من ضلوعه، ما الذي أصابك أنت؟!.

هززت رأسي رفضًا ونظرت لهم مُجيبًا:

ـ أصابني العشقُ الإلهي، أخلصتُ نواياي فعرفت دروب العاشقين فأصابني وصل العاشقين بمعشوقهم، لا أدعي أني منهم إلا أني لن أتراجع عن وصالِهم.

لم تفهم (رجاء) كلماتي وانفتح فمُها وهي تهز رأسها في بلاها عسى تأتيها إجابة أكثر وضوحًا لها فجاء الرد من (بركة) لجوارها مُبتسمًا:

ـ الحمد لله الذي أفاض عليك من رحمته ففاضت روحك بالعشق الإلهي، وأما العاشقون فجميعُنا منهم والمعشوق واحدًا ويتسع براح عشقه لكُل العُشاق.

لم تتحمل (رجاء) أكثر، شعُرت بقدرٍ كبير من البلاهة فسألت في غضبٍ:

ـ أنا لا أفهم شيئًا، هل شرح لي أحدكم ما الأمر؟!.

أشار لها (بركة) بالجلوس وعاد لجلسته، نظر لها وأردف:

ـ الآن وقد علمتُ سبب مشكلتكم، وقد نام أبنائكم ونحنُ وحدنا سوف أُجيبكم، الأمر أنكم تعانون بطش عشيرةً من

أشر أنواع الشياطين، ولن أذكُر لكم الأسباب.

ألقى أخر كلمة وهو يوجه نظره ليّ كأنما أراد أن يقول لي اطمئن لن أفضحك طالما سترك الله، ثم عاد لحديثه:

ـ اليوم سوف نستضيفكم في منزلنا وغدًا سوف يذهب زوجك و(خالد) بصحبة (درويش) لإنهاء الأمر وأنتِ وأبنائك سوف تبقون لدي حتى يعودوا إلينا فترحلوا آمنين إلى منزلكم.

أنهي كلماته ورفع صوته مناديًا يا (حاجة)، ولم تمُر لحظات حتى ظهرت تلك السيدة الرقيقة تفتح باب الغرفة فتابع حديثه إليها:

ـ أخبري (درويش) أني أُريده وجهزي غرفة الضيوف لضيوفنا فسوف يبقون لدينا الليلة.

أومأت رأسها قبولًا وانصرفت، سألتهُ (رجاء):

ـ ألن تذهب أنت يا شيخنا؟!، إن الأمر خطير فلقد رأيت هذا الشيطان بعيني هو مريدٌ حتى أني أعجز عن وصفه، ولقد هرب منه الشيخ (رمضان) فهل سوف يصمُد أمامه (درويش)؟!.

ابتسم بقوة وأجابها بثقة:

ـ لو لم يهرب (رمضان) ويهتز إيمانكم بهذا الشكل لذهبت وأنهيت الأمر بنفسي في سريةٍ ولم يكُن ليشعُر أحدًا ؛ وبما أن الأمر صار مبالغةً على لسان العامة ويمس إيمانهم فيجب أن يذهب (درويش) فإن ما لديه لم ولن يكُن لديّ يومًا؛ أنا ودرويش وجهان لذات العملة إلا أنهُ للحقيقة تعداني بمراحلٍ كبيرة وما يزال يرتقي وإن لم يشعُر بذلك!، فلقد بدأ رحلته باكرًا للغاية وعلِمَ طريقهُ وحده بلا مُساعدة من أحد؛ أحذركم أن تستهينوا بكلماته أو تستخفوا به فهو غامضٌ غضوب لأبعد حد وإن كُنت أنا أبيه وإمامه أقولها لكم مُخلصًا أني لم أفهمه بدقةٍ يومًا؛ إلا أنهُ دومًا يُصيب سويداء الهدف ولم يحيد عن الطريق أبدًا.

توجست نفسي خيفة، خرجت كلماتي قوية:

ـ يا سيدنا أنا لا أثق أنهُ سوف يصمُد، أنت تعلم خطورة الأمر فهل هو على عِلمٍ بتلك الخطورة.

جاء الرد من خلفي بنبرةٍ قوية حازمة:

ـ نعم أعلم وأعلم أكثر من خيالك، بل أعلم من فتح عليكم باب الشيطان والأهم كيف فتحه وكيف يُمكن إغلاقه.

كانت تلك الإجابة من (درويش) الذي أتى مُلبيًا دعوه (بركة)، اضطربت نفسي للغاية فانتصبت واقفًا مُتلعثمًا

فخرجت كلماتي تكاد تُفهم:

ـ أنا لم أقصد إساءة، إنما هو الخوف فقط ما دفعني لتلك الكلمات.

نظر إلى نظرةً عميقة اخترقت روحي وأصابتني بالقشعريرةِ، إن لهُ أعيُنٌ نافذة تُصيب روح مُحدثه، بسط يده لأعلى مُشيرًا إلى لأجلس وأردف في ثبات:

ـ لا عليك، استرح.

وجه نظره ل (رجاء) وتابع حديثه:

ـ الحاجة تنتظرك بالخارج لتنقلوا الأطفال إلى غرفة نومكم.

نهضت (رجاء) وانصرفت من الغرفة بعدما أذن لها (بركة) بإشارة في صمت وجلس (درويش) مكانها على يمين أبيه الذي سأله وهو ينظر لهُ بدقة:

ـ هل علمت المشكلة وعلمت ما الذي أُريده منك.

كانت تلك هي المرة الأولى التي تقع عيني عليه، شابٌ لهُ بشرة بلون النيل، طويل وله جسد قوي متناسق، وجهًا مصريًا خالصًا، لحية سوداء داكنة قصيرة مُهذبة، أعيُنٌ بُنية تلمع صدقًا؛ أومأ برأسه إيجابًا وأردف في نبرة مُهذبة للغاية:

ـ نعم علمت المشكلة، أما ما تُريده تحديدًا فكيف أعرفه وأنت لم تطلُبه؟!.

كانت تلك المرة الأولى لي أيضًا أرى تلك الضحكة القوية الصافية من (بركة)، تعالت ضحكاته وهو يُمسك بكتف ابنه مُتحدثًا:

ـ وهل كُنت اطلُب منك قبلاً لأطلُب الآن، أنت تعلم ما يجب فعله وأعلم أنك سوف تفعله.

أجابه باسمًا دون أن يواجهه بعينيه:

ـ أنا في مكانُ أبي وإماميّ، لا يصح في حضرته الغرور والتعاليّ.

أجابه بالربت برفق على كتفه وأردف سائلاً:

ـ إذًا هل لك أن تُخبرنا كيف نهض هذا الشيطان من الجحيم لاهثًا إليهم.

لم أتفهم السؤال من (بركة)، كيف يسأله وهو يعلم كُل شيئًا؟!، يبدوا أن السؤال لهُ مُرادٌ آخر غير الذي أفهمه، أنصتُ بشدة وانتباه وأنا أحصي على (درويش) أنفاسه، بسط راحتي يديه وضمهم، وضع إبهامي يديه أسفل ذقنه وراحتي يديه تقسم وجهه نصفين، أغمض عينيه ليعُم الصمت، لا

أعلم كم مرّ عليه في صمته، غير أني كُنت أرى كُل تعبيرات وجهه، بدا كمن أدهشه ما يرى ثُم ارتسمت على وجهه أحزان كُل أهل الأرض، كانت قسمات وجهه كأمٍ تصرُخ ألمٌ لفقد وحيدها، أي حسرةٍ وقهر يعانيه هذا الشاب ليرتسم على ملامحه هذا الحُزن المُدقع، انفجرت الدموع من عينيه ثُبلل لحيته، ضرب زلزلٌ عنيف رأسه يهزها رفضًا فكانت رأسه ترقص كرقصة الطير عند ذبحه ألمٌ، ليجتاح وجهه غضبٌ عارم كُنتُ على يقين أن أسنانه تجأر مُستجيرة من ضغطه عليها، حتى أنفاسه كانت تخرُج تحمل لهيب الغضب فصرت اسمع صوت أنفاسه وأشعُر بلهيبها تحرق روحي، ارتفع صوت أنفاسه ودقات قلبه بقوة حتى صرتُ أسمعها كقرع طبولٍ للحنٍ غامض خليط بين الحُزن والقهر والغضب تُغلفه الدموع التي أغرقت لحيته، انتفضت عروق جبهته وأمسى يتصببُ عرقًا؛ أصابني الهلع لما أرى من حال هذا الشاب حتى هربت دموعي من عيني رأفةً به وبحالهِ، متى تنتهي مُعاناة هذا الشاب وكيف؟!، نظرت لبركة أترجى منه أن يُنهي مُعاناة ولده فلم أجد من ملامحه إلا الطمأنينة والرضا، نظر إلى كمن يُخبرني بنظرته أن اصبر؛ عُدت أُتابع هذا الشاب التعس بنظراتي، اشتد عليه الأمر أكثر فصار يرتعش بقوة كمن يواجه الموت ويتضرع إليه راجيًا الرحمة لحظةً واحدة وتبدل حاله، ارتسمت على ملامحه بسمة الرضا كمن خلف

عليه الله بعد طول مُعاناة، بدت ملامحه كمن هرول أعوامٌ لاهثًا في عطشٍ فتهللت أساريره بعد أن ارتوى بغديرِ ماءٍ عذب، عاشقٌ حُرم معشوقه أعوام حتى ذبُل يأسًا من اللقاءِ فلما التقيَّ أحيَّ الوصل ميت روحهم؛ انفتحت عيناه ويديه فكانت أعيُنه بيضاء كقمرٍ مُنير لم يُصبه السواد يومًا، ما أن فتحهم حتى خر ساجدًا وكان لحاله العجب في نفسي، طالت سجدته حتى حسبتهُ مات ساجدًا، فما أن أصابني اليأس من نهوضه حتى نهض جالسًا كما لو أنهُ لم يمُر بشيءٍ قط!؛ نظر له (بركة) سائلاً بلا كلمات، أومأ برأسه قبولاً لينطلق في سرده فيصعقنا بهول الحقيقة!...

(٦)

ظام

همس في أُذنها أن تنهض وتتبعه إلى الخلاء خلف منزلهم، نظرت لجسد زوجها المُمدد لجوارها فتأكدت أنهُ حان الموعد، نهضت تتلمس خطوات الشيطان تتبعه حتى وصلت إلى خارج الدار، ليلةً شتوية قارصة البرودة بلا مطر، مُظلمة لا قمر فيها تكاد ترى ما بين يديك، رياحٌ عاتية توشك اقتلاع المنازل من الأرض بشدتها، هي أجواء مُناسبة تمامًا لتنفيذ مُخططها، هي إحدى الليالي التي يبزُغ فيها نجمها ليتحد مع مدار زحل، كُل شيئًا الليلة يخدمها؛ توقف قائدها عن الحركة مُستديرًا إليها وأردف:

ـ حتى هُنا ينتهي دوري فما أنا إلا خادمٌ طوع أمر سيدي ولا أستطيع التقدُم أكثر، الآن يا ((معتوقة)) جاء وقتك لكن احذري إن (السيد) لا يرحم؛ إن لم تثقي في انكِ سوف توفرين من نسلك من يخدم (السيد) فسوف يُهلكك أنتِ ونسلك ونسلُ نسلك هو لا يعرف الرحمة ولن تستطيعي أنتِ وكُل سحرة الأرض على من سلسلهُ ملكُ الإنس والجن ((سليمان))، لقد سُجن ألف عام حتى حرره عزازيل ذاته؛ والآن القرار لكِ وحدك هل سوف تُكملين طريقك؟

أجابته بقوة وثبات:

ـ نعم سوف أُكمل، لقد بدأت رحلتي مُنذُ الصغر مع أمي وأعلم عن السيد كُل شيئًا فلنُعجل بالأمر فالليلة مُناسبة لحضوره.

أشار لها خادم ((السيد)) تجاه الطريق وأردف:

ـ طريقُكِ معلوم وتعرفين قواعده.

تقدمت في خطواتها إلى طريق المقابر، أعدت عُدتها مُنذُ الليلة الماضية ولم تكُن تنتظر سوى الإشارة التي أتت من خادمه، (ظام) هو مُرادها وهدفها هو السيد كما علمتها أُمها، أحد أفتك وأشر عُصاة شياطين الجن، يعلم كُل من لهُ علاقة بالسحر أمره، هو سجينٌ مُسلسل لأكثر من ألف عام لعصيانه أوامر النبي (سليمان)، فُك قيده على يد إبليس ذاته، فتاكٌ قاتل لا يعلم الرحمة ولا يعرف للخير طريقًا، يختلف عن أغلب أنواع الشياطين فبرغم قوته الجبارة لا يُغالي في طلباته، كُل ما يطلبه هو أن تضمن لهُ دوام الفتنة وأنك لن تتوقف عن السحر أنت ونسلُك من بعدك ليتمكن من شره أكثر، لا ينشغل عن شره مثل أغلب الشياطين بالجنسِ، هدفه الرئيسي والوحيد هو دوام الفتنة والشر باستمرار السحر، لهُ مقعدًا بارز في مجلس عزازيل بل يتقدم في كثيرٍ من الأحيان على أبناءه، فهو لا ينشغل عن مهمته في الفتنة

ولا يتوقف عن عمله مُطلقًا، لكن أغلب السحرة تخشاه فهو فتاك مُدمر في تنفيذ عهوده، لا يتورع عن الفتك بالسحرةِ مهما قدموا لهُ من خدمات إذا تأكد أنهم سوف يتوقفون أو يمتنع نسلهم عن تأدية مهمته، رغم علمها كُل ذلك انطلقت في طريقها تسعى خلف شيطانٌ هي تتيقن أن مقتلها سوف يكُن على يديه يومًا، إلا أن الشغف والشبق إلى القوة والرغبة قد قتلوا بداخلها كُل خوفٍ، وصلت لموقعها الذي أعدته في المقابر، مقبرةٍ ما زالت حديثة كما يُشترط السيد، جُثةٌ لم تتعفن بعد، الأبخرة الخبيثة اشتعلت تُعبئ المقبرة، بدأت تتحسس حرارةً ترتفع، هي علامات فتح بوابات الشيطان، إن السيد انتبه لها، عقدت عزائمها تنطلق بها شفاهُها، لُغةً قديمة لا يستخدمها إلا قليلون فلا ينتبه لها إلا القليلون، هي لُغة الطلاسم التحضيرية للشياطين، ارتفعت الحرارة بقوة فبدأت تتراجع سيرًا للخلف خارج القبر وهي لا تتوقف عن الصُراخ بطلاسمها، حتى خرجت من القبر لتواجه بابه، استجاب أخيرًا لندائها بدأ يتجسد لها السيد أمام باب القبر، قطٌ أسود كبير ذا أعيُنٌ مُشتعلة لهُ أقدامٌ كبيرة ترفع مؤخرته بقوة عن رأسه، أكملت في طلاسمها تتضرع إليه القبول بها في خدمته، أومأ رأسه قبول الواثق، تجسد أمامها هيئة بشعة لقطٌ ضخم يجلس جلسةٌ ملكية كتماثيل المصريين القدماء، بسط يده يُسلمها قنينةٌ صغيرة تحوي سائلاً أسود، تحدث

بلغةٍ غامضة لكنها تفهمت أمره وكان:

ـ تلك هي القنينة وأنتِ تعلمين كيف تستخدمينها؛ هذا هو عهدك ولتتيقني أني لن أتورع عن سحقك رغم ما قدمتهُ لي أُمك من خدمة إذا توقفتي.

أجابته وهي تلتقم القنينة:

ـ اعلم وسوف يُدفن في ذات القبر غدًا.

لم تكد تُنهي كلماتها حتى أتت ريحٌ قوية كأنها عاصفة ترابية حملته ورحلت، قبضت على القنينة بقوة في يدها، قُضيَّ الأمر ولم يعُد يُمكن التراجُع، عادت مُسرعةً إلى منزلها لتجد زوجها على حاله بفراشه، فتحت القنينة بهدوء لتُجرعه رشفات الموت في حلقه، قطرات الحقد الشيطاني التي كانت كافية لتمزيق أحشائه في صمتٍ، لم يتألم حتى أو يشعُر أن تلك المرأة التي أأتمنها على عرضه وحياته قد تقتلهُ يومًا!، عارض زواجه منها جميعُ أهله ونصحه أهلُ قريته الابتعاد عن تلك الشيطانة ابنة الشيطانة لكنهُ رفض حتى أهلكهُ عشقهُ لها على يديها!، فكم من قلوبٍ كان مقتلها على يد من أحبت!؛ أستمر عهدها بسيدها وخدمتُها لأغراضه، هي ذاتها لم تكُن تستطيع إحصاء عدد الرجال والنساء التي فرقت بينهم وبين أزواجهم!، كم عدد الفتيات التي عبثت بقدرهم فكانت سببٌ في تأخير زواجهن؟!، كم الأطفال التي تسببت

لهم في أمراضٍ لا تُحصى، (ظام) شيطانٌ مريد لا ينتهي شبقه للشر ولا ينتشي إلا بأشد آلام البشر فترضى نفسهُ الحقود، دار الزمن دورته حتى اليوم الذي حاول وحيدها فيه كشف أمرها، فكان لقاؤها بالسيد عصيبًا أبلغها فيه أن وحيدها سيرفض العهد ولن يعمل بالسحرِ، وأنهُ لن يرحم كليهما فإن شعر منها الضعف وعدم القدرة على الاستمرار سوف يسحقها هي ووحيدها ونسله؛ فعاد الزمن يدور دورته حتى الليلة التي لم تستطع فيها الحضور فتأخرت عن موعد سيدها، لم يعُد لها هذا الجسد القوي والشغف والشبق إلى القوة السابقين، تجسد أمامها في منزلها، تحدث في غضبٍ كاد لغضبته أن تقتلها:

ـ ألم أُحذرك من التوقف، الآن لم يعُد لكِ قوة فيجب أن أتدخل بذاتي؛ كم أنتم جنسٌ قذر مُقزز، ألا تنظرين لحالكِ، تأتين إلى في قوة وما أن يدور عليكِ الزمن حتى تصرين كخنزيرٍ أنهكهُ الركض في البريةِ، ويجب على الوحوشِ أن تلتهمه بعد أن أمسي وجوده عبئٌ عليها، نحنُ أسياد البرية وأنتم خنازيرُها.

ألقى كلماته مُندفعًا إلى جوفها، كان يعلم أن جسدها أوشك على الانهيار والقواعد ثابتة لا تتغير، يجب أن تقوم بتقديم التضحية والعهد له ليتمكن من وحيدها؛ تحتم عليه

دعم جسدها الذي أوشك على الفناء حتى تتمكن من تقديم أخر خدماتها له فتعقد أخر سحرٌ لها قبل أن يفتك بها؛ وهو ما حدث، سبقهم لمنزل وحيدها أخلص أتباعه ومعاونيه، (سيلنار) شيطانة من افتك وأخلص معاونيه، تُشبههُ كثيرًا في شبقها إلى الشر وحقدها على البشر، لم تخذله يومًا في أي مُهمة فكان لها الصدارة عنده وكانت مُهمتها التجهيز لإجهاض (رجاء) فور وصوله بصحبة (معتوقة) وإنهائها التسخير بالعزيمة المطلوبة لإجهاض المرأة؛ مهما كان الحقد بداخل شياطين عالم الجن فالقواعد ثابتة لا تتغير أبدًا، قواهم الجبارة وقدراتهم الخارقة مُرتبطة بتسخير كائن لا يتورعون عن الفتك به كُلما سنحت لهم الفرصة، ودومًا ما سعى هذا الكائن خلفهم يتلمس خبرهم ليستمد منهم القوة متوهمًا صدقهم وإخلاصهم له!،هذا الكائن هو الإنسان الذي لم يفهم أنهُ بيده يُسلم روحه لشياطين لن ترحمه، وأنهُ رغم ضعفه الذي يشعُر به كذِبً هو من يملك مفاتيح القوة لعالم الجن، لم يفهم الإنسان أنهُ لعالمِ الجن بمثابة المفتاح لأبواب الحقد والكراهية وهو من يُمكنهم من شرورهم ويسلمهم روحه بسعيهِ خلفهم، وصلت (معتوقة) واستقبلتها (رجاء) بحُسنِ سجيتها لا تعلم أنها أدخلت منزلها أفتك شياطين الإنس والجن في شخصيةٍ واحدة، لم تكد تصل (رجاء) غرفتها بالأعلى وهي تحاول جلب بعض ملابسها لأم زوجها

حتى سقطت صريعة آلام جنينها وهو يُقتل على يد (سيلنار) بأحشائها!؛ لم يكُن (ظام) ليرضى بهذا الحد إنما أراد الأهم، أراد طلسم وعهد القتل والفناء بجُثةِ الجنين التي تسلمتها (معتوقة) من الممرضةِ قُبيل رحيلها؛ اندفعت إلى حمام المنزل تخط طلاسمها بدماء الجنين وهي تُمزق أشلائه، فما أن انتهت حتى ألقت ما بقى من جُثة الجنين في بالوعةِ الصرف!، لم تمُر لحظات حتى فُتحت بوابات الجحيم بحمامِ الدم، وقف الشيطان بذاته أمام بوابة الجحيم ينظر في رضا عن ما قدمهُ (ظام) خادمه القوي الذي قفز من جوف (معتوقة) مندفعًا إلى عالمهِ، استدار لها من قلب الجحيم وأردف في غضبٍ عارم:

ـ الآن لم يعُد لكِ عندي أي دور فسوف أرحمك لما قدمتِ إلى من خدمات، عودي إلى منزلك.

أنهى كلماته وارتفعت ضحكاته الشيطانية بينما بدأت بوابة الشيطان تُغلق، ظل يضحك بقوة حتى أُغلقت البوابة تماماً، كانت تعلم أنهُ يكذب وكان يعلم أنها تعلم أنهُ يكذب، القواعد ثابتةً ولا تتغير فإن كان لا قوة للشياطين إلا بتسخير من البشرِ، فلا أمان ولا حصن لساحرٍ من بطشهم بعد أن أسقط حصونه وحمايته الإلهية بالشركِ وإتباع الشياطين فالساحر يرضى بهم آلهةً وعونًا من دون الله فيُسلمهم روحه خالصة

بين أيديهم؛ قواعد وأحكام عالم الجن ثابتة لا تتغير فهي محفوظة بالعهود السليمانية وتقف على تنفيذها أقوى ملوك وحكام عالم الجن.

هز (بركة) رأسهُ رفضًا وتحدث بنبرة ملئُها الحُزن:

ـ يسعى ابنُ أدم بكُل قوته خلف مهلكته، يسعى لعالم الجن والشياطين باحثًا عن القوة ولا علم لهُ أنهُ هو القوة في حد ذاتها، فلو سعى باحثًا في داخله لرسخ إيمانه وسكنت جوارحه واكتشف قوته الحقيقية؛ إلا أن طمع الدُنيا يُعمي عينيه عن الحقيقة فيلهث خلف شياطين الجن التي تتغذى على الحقد للبشر فيسقُط في الشرك لتهلك روحه في الجحيم.

أجابه (درويش) وهو يكظمُ غضبًا بدا شديداً في كلماته:

ـ يا أبي إن السحرة دينهم السحر وشريعتهُم الفتنة فوجب على من اتخذ السحر دينٌ والفتنة شريعةً أن يكُن الشيطان ربه من دون الله؛ فتصدُق فيهم الآية « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا « ؛ كُل ساحرٌ مُتيقن أن الجحيم مصيرُه المحتُم وأن مقتلهُ لن يكُن إلا على أيدي شياطينه التي اتخذها أولياء له من دون الله؛ عجبتُ من أمرهم وكيفية

تفكيرهم وتصريفهم حقًا!.

ـ الآن وقد علمت المطلوب منك فلتعلم ما أُريده منك جيدًا؛ انتبه جيداً يا ولدي فتلك هي الثالثة لك معه؛ وتيقن أن الله ناصرك فالشياطين لا تقوى إلا بخوفِ البشر ولا تطغى إلا من ضعِف إيمانهم؛ فاضرب على قلبك في ليلتكَ تلك بالذكر، فلا وجود ولا قوة لشياطين الأرض كلها على قلوبٍ عامرة بحب الله وتؤمن وترضى بقدره؛ اذهب يا بُني سدد الله خُطاك فيومك غدًا طويل.

ابتسم إليه وقبل يده وألقى أخر كلماته ثم غادر الغرفة:

ـ لم تتوقف مرة عن نُصحي رغم يقينك أني أحفظ حديثك عن ظهرِ قلب؛ وفي كُل مرة أجيبك أطال الله عمرك لأعوامٌ مديدة لتُسقيني من فيضِ نهرك الزاخر.

ما أن غادر حتى بدت نظرات القلق على وجه (بركة) وهربت من شفتيه كلماته دون أن ينتبه أن هُنالك من يسمعه:

ـ اذهب يا ولدي فيومك غدًا عصيب، أسأل الله لكَّ الثبات والنصر فتوكل على الحي الذي لا يموت هو وحده درعك وسيفك.

أنهى كلماته ليلتفت يسارًا باحثًا عن نظارته ليُكمل ورده الليلي من القرآن الكريم وينتبه لوجود وحال (عصام)

العصيب؛ كانت عيناه مفتوحة على اتساعها مشدوهًا من هول ما سمع، أحقًا تلك الساحرة هي أُمه؟!، هل حقًا هي من قتلت والده؟!، هل حقًا قتلت جنينهُ في أحشاء زوجته؟!، جميعُها أسئلة أصابته بالصدمة فمنعتهُ عن الحديث؛ ربت (بركة) برفق على كتفه وأردف في نبرةٍ حنون مُطمئنة:

ـ يا ولدي نحنُ كبشر لا نُدرك الأسباب كاملة، الحقيقة الكاملة قد تهلكُنا معرفتها، لا تحزن ولا تجزع على ما مضى فيُعكر حُزنك صفو ما هو قادم؛ وتذكر قوله « فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا "؛ فصبرًا جميلاً يُرضي ربك على عرشه وأبيك في قبره وروحك بين ضلوعك.

انفجرت عيونه دمعًا وهو ينتحب بحُرقةٍ ويتمتم:

ـ لا إله إلا الله، اللهم صبرًا واستغفروا الله العظيم.

ظل يبكي ويستغفر ليغسل البُكاء روحه ويُسكن الاستغفار نفسه حتى غُسلت روحه فسكنت، كم شغلته الدُنيا ومخاوفه عن نفسه وروحه، فهجر الأمان والسكينة قلبه فكان كأرضٍ قاحلة لا حياة فيها ولا زرعٍ، لينهمر دمعه يُسقي فؤاده حتى ارتوى زرع الاستغفار وأثمر السكينة والرضا فخرجت حصادًا على لسانه وهو يجمع ثماره:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.

ابتسم (بركة) بسمة صفاء لا نقصٌ فيها وهو يدق على صدره وأجابه بنبرةٍ سعيدة:

ـ الآن اذهب لغرفة ضيافتك لتستريح مع زوجتك وأبنائك رغم أنهم سبقوك نومًا، وأعلم إن كان يوم درويش غدًا طويل فليلتك تلك أطول.

أنهى حديثه ونهض يضحك وهو يقود الشاب عبر صالة المنزل التي لم يكُن بها سوى (الحاجة) إلى الطرقة وكان في نهايتها مواجهةً للقادمِ بابٌ مُغلق يظهر الضوء من الشباك الزجاجي بأعلاه، وعلى يمين آخر الطرقة بابٌ آخر مُشابه تمامًا لباب نهاية الطرقة وهو ما أشار لهُ بيساره وظهره لباب آخر الطرقة وهو يلوذ بآخرِ كلماته له:

ـ تلك غرفتكم، أما الغرفة خلفي فهي غرفة (درويش)؛ إن أردت الدخول إلى الحمام فهو في أول الطرقة ولا تخشى القطط فهي لن تؤذيك.

أنهى كلماته ورحل، بينما لم ترحل كلماته عن عقل (عصام) الذي شدههُ مشهد زوجته وأبنائه فور دخوله الغرفة عليهم.....

(٧)

مُنَاجَاة

أصابتني الدهشة من نومِ (رجاء) والأطفال العميق!، كانت الغرفة مُتسعة ومحتوياتها بسيطة، فراش نومٌ كبير ودولاب ملابس وطاولة في منتصفِ الغرفة وكُرسيان كبيران متتابعان على يسار الباب أمامهم أريكة ومروحة سقف كانت تُقلب الهواء في هدوء، رغم بساطة تلك الغرفة إلا أن مقدار الأمن والسكينة بها كان جليًا للدرجة التي دفعت زوجتي وأطفالي للنوم وهم لا تغفو لهم عينٌ خارج منزلنا!، قد يكُن الأمر بسبب الخوف واليوم العصيب الذي مروا به هو ما دفعهم للنوم بهذا العمق!، إلا أن الحق هو أن السكينة والراحة في هذا المنزل حاضرةً بقوة وبغرابةٍ، كُل شيئًا هُنا لهُ طعمٌ مُختلف وريحٌ طيب، حتى الماء الموضوع أمامي على الطاولةِ، تعمدت احتساء كأسٌ منه وكان لهُ طعمٌ لم أتذوقه من قبل، بيد ليّ أن هذا المنزل مُباركًا، هُنالك سؤالاً واحد يجول بنفسي ولم أتجرأ على سؤاله لبركة أو درويش، من أين لهم بهذا العلم؟! وما سرهم؟!؛ لم يكد يدور الأمر برأسي حتى تسمعتُ إلى صوت قرآنٌ يُتلى في خشوعٍ جلل، أصاب الصوت وخشوعه قلبي ونفسي، آياتٌ تخرُج مُحملة ببكاءٍ ومهابة اهتزت لها روحي، تلك حقًا هي سورة الكهف

فلقد سمعتها ألاف المرات إلا أن تلك المرة لها حلاوةً تذوقتها نفسي تلتهم خشوعها ولا تشبع، لم أشعُر بالدموع إلا وهي تجري على وجنتي، كان الخشوع غريب فقد كُنت لجمال الآيات أشعُر أني أرى صاحب الجنتين وأرى صاحبه وهو يحاوره وأرى نبي الله موسى والخضر، اجتاحتني حالةٌ من الحُزن تُمزق نفسي حينما انقطع الصوت، شعُرت بالشتاتِ كطفلٍ فقد أثر أمهُ في زحامٍ تتدافعه الناس حتى أسقطته تدهسه أسفل أقدامها فعلى نحيبي حُزنًا على فراقِ هذا الخشوع، لم أُصدق أُذني حينما عاد صوت التلاوة من جديد أتلك حقًا هي يد أُمي المفقودة تُنهضني من تحت أقدامهم وتُنتزعني من ضيق الضياع إلى رحبةِ الخشوع؟!، كانت الرحلة مع سورة الواقعة فشعُرت أن الأرض رُجت رجًّ، رأيتُ الجبال تُبث بثَ، رأيتُ أصحاب الميمنة وتمنيت لو أكون منهم، وأصحاب المشأمة فرجوت الله أن يُبعدني عنهم، كم انتحبت مُتضرعًا أن أكون مع السابقين المُقربين، رأيتهم في الجنة على أسرتهم، رأيت أطفال الجنة يطوفون عليهم يسقونهم فارتوت نفسي لرؤيتهم كما لو أنها لم ترَ السعادة يومًا، مُتع الجنة التي ما خطرت على قلب بشر رايتها تتجسد أمامي، ثم رأيت أصحاب الشمال وهم بالجحيم تُصب عليهم نيران جُهنم تشويهم فتُذيب جلودهم لتتساقط وهم يصرخون في فزعٍ لن أرى مثلهُ يومًا أو أتخيلهُ، فعلى

نحيبي وأنا أهمس إلى الله مُستجيرًا برحمته ألا أكون معهم، رأيت مُحاجاة الله فكُنت أهمس إلى الله مع كُل آية أن يا ربنا أغفر وارحم وتجاوز عن ذنوبنا، فما خرج قسم مواقع النجوم حتى شعُرت بأن السماء والأرض تنتفض لعظمة الله فزعًا جزعًا، الجميع هُنا خاشعٌ راكع يُسبح بحمد الله، حتى تلك الجُدران كُنت أشعُر أنها تصرُخ مع الملاك القارئ الخاشع تتبرأ من ذنوبها، فخُتمت بالتسبيح بحمد الله ثُم انقطع هذا الصوت الملائكي، لكنني لم أحزن في تلك المرة وكُنت على يقين أنهُ سيعود فعادا، بدأت أشُم رائحة بخورٍ طيب لم أعرف مثلهُ قبل هذا اليوم، ثُم أتى الصوت الملائكي يشدو في تلك الليلة المُباركة فكان يُناجي الله في ذات الخشوع قائلاً:

ليّ روحٌ تُناجيك في كربٍ وفي فرجِ؛ كُل الطُرق تُهدي إليك في يقينٍ وفي هَرْج

أُناجيك في بوحٍ وفي صمتٌ وتسمعُني؛ أعصاك فأتي إليك مُستغفراً فتضرعُني

يا لائمِ في عشقٌ متى صح لومٌ في هواه؛ تلومني ولا أمل ولا رجاء ليّ إلا رضاه

أيُلام قلبٌ تصرُخ دقاته بعشقِ ذاته العليّ؛ أنا المُلام بهيامِ في بحور عشقك بروحٍ بليّ

عبدٌ في هواك رقّ ما رقّ يومًا لسواك؛ عاشقٌ مُتيم يتلهف لُقياك

أنا العبدُ الذي لم يعهد حُريته إلا في كنفك؛ أنا الساعيّ في كُلِ طريقٍ يُفضي إلى وصلك

أنت إلهي وحصني وملجأي؛ فانصرني على نفسي كما أرتجي

موضعك بجسدي موضع القلبِ؛ حسبتك تسكُنه وحدهُ بجهلي

فوجدتُك شرارة اليقينُ بعقلي؛ رأيتُ نورك بعينُ قلبي

أسيرُ واثق الخُطى ويكفيني أنكَ ربِ؛ ما حاجتي لمخلوقاتك وأنت درعِ وسيفِ

وحدكَ ميزان الحقيقة ودونك خللِ؛ بيدك قِسْطاس الحقّ للقدرِّ

فكيف الشكوى إليك من ظُلمِ؛ وأنت الحاكمِ وحُكمك عدلِ

عجبتُ مِن مَن يسألون غيرك المدد؛ وأنت وحدك مدِ ومددِ ومِدادِ على طول الأمدِ

لم أتفهم أو أجد في عقلي تفسيرًا يحتوي ما أشعُر به

من فرط السعادة والراحة والطمأنينة، ساد الصمتُ مُجددًا فقررت الخروج من الغرفةِ بحثًا عن هذا البُلبُل الصداح، فتحتُ باب الغرفة فما كدتُ أضع قدمي خارجها حتى تسمرت أقدامي بموضعها، هرُبت الدماء من عروقي من هول ما وقعت عيني عليه، كانت القطط الثلاث التي رأيتها على باب المنزل تصطف أمام باب غرفة (درويش) علي يميني كأنها ترى ما خلفُ باب الغرفة، يجلسون جلسة تماثيل القطط الملكية للحضارة المصرية القديمة، كان أبعدهم عني الرمادي وأوسطهم الأبيض وأقربهم تجاهي الأسود الذي أدار رأسهُ ينظُر إلى في غضبٍ عارم كمن قطع عليه صفو حياته، سرت قشعريرة كبيرة في جسدي وشعُرت أن كُل شعرةً بجسدي قُصفت، ابتلعتُ ريقي مُستجمعًا شجاعتي، مُتذكرًا كلمات (بركة) ليّ أن لا تخشى القطط فهي لن تؤذيك، تذكرت الحمام الذي لم أكن بحاجةٍ له، تحركت ببُطءٍ شديد في الطُرقةِ دون أن أُفكر للحظة في الالتفات خلفي، دلفتُ إلى الحمام وقمتُ بفتح صنبور الماء واضعًا رأسي أسفله، ما الذي دفعني لمُحاولة البحث في منزل هؤلاء الناس؟!، ما دخلي في كشف صاحب الصوت وأنا ضيفٌ ثقيلٌ عليهم؟!؛ لعنتُ نفسي كثيرًا على تفكيري المُتطفل الساذج مُقررًا العودة إلى غُرفتي وطرد تلك الفكرة الخبيثة من رأسي، ما أن فتحتُ الباب حتى صعقني هول المشهد، تلعثمتُ بقوة فخرجت

كلماتي غير مفهومة إلى (درويش) الذي صعقني وجوده أمام باب الحمام:

ـ كُنتُ بالحمام ولم....

ابتسم لي وأردف:

ـ لا تنزعج فقد علمتُ أن أحدًا به فانتظرت خروجه لأتوضأ، لقد أذن الفجر مُنذُ دقائق.

بدت كلماتي غبية كسؤالي إليه:

ـ من أين عَلمت أن هُنالك أحدًا بالحمام؟!.

ضحك بقوة وأجابني وهو ينظُر إلى مُتعجبًا:

ـ من الضوء!، وهل تُضيئون النور في حمامكم وهو خاوي؟!.

أومأت رأسي إيجابًا وانسحبت في طريقي إلى غُرفتي، لقد قدمت نفسي إليه على أني أبله؛ عُدت إلى الغرفة وكان أغرب ما لاحظته في عودتي هو اختفاء القطط الثلاث تمامًا!، لم أُرد الاستمرار أكثر في حماقاتي الفكرية التي لا تقود إلا لإظهاري في دور الأبله، استلقيتُ على الكنبة ولم أشعُر بالزمنِ، سقطت في بئرٍ عميق من السُباتِ، لأول مرةً منذ أعوام طوال أشعُر بالأمان، شعُرت أني بمأمنٍ بين

جُدران هذا المنزل، بين هؤلاء القوم الذين يحيون على الحُبِ، ما أن تطلُب أمرً وفي كثيرًا من الأحيان قبل أن تطلُبه تجدهم يبذلون لك ما في وسعهم برضا، هي القلوب الصافية المُتصافية مع الله فصفت علاقاتهم بكُل من يمُر بهم، حتى جُدرانهم تشعُر من مُلامساتها بيدك أنها تحتضن كفك فتُخبرك أن اطمئن أنت بمأمن؛ نعمَ البيوت هي ما يُذكر فيها الله بخشوع مثلما سمعت فيحق لهم أن يطمئنوا فتكُن إجابتهم دائمًا لأية مسألة مهما بلغت عظمتها هي ابتسامة الواثق بربه وهي الابتسامة التي تُخبرك (سَيجبُرك)، هُم قومًا أحبُ الله بقلوبهم فسكنها فأصابتهم سكينتهُ؛ أيقظتني يدي (رجاء) بوخزٍ خفيف على كتفي وصوتها:

ـ استيقظ يا (عصام) لقد أذن العصر مُنذُ فترة و(خالد) ينتظرك بصُحبة (درويش) والشيخ (بركة) بالخارج.

انتفضتُ مُتعجبًا من كلِماتها سائلاً في دهشة:

ـ العصر!، هل نمتُ كل تلك الفترة؟!.

ارتفعت ضحكاتُها وهي تُجيبني:

ـ ولم تتقلب حتى في نومك.

زفرت بقوة وأنا أمسح وجهي بيدي وأجبتها:

ـ الحق أني لم أنم في حياتي مثل تلك الليلة.

ـ وكذلك أنا والأولاد، هيا لتنطلق فهم ينتظرونك بالغرفة في الخارج.

جهزتُ هيئتي قدر المُستطاع في الحمام وتوجهت عبر الصالة ليستوقفني مشهد أطفالي يُلاعبون

(الحاجة) وهي تحكي لهم قصص الأطفال ويُشاهدون أحد الأفلام العربية القديمة، ألقيت عليها حديثي في شوق لسماع صوتها المُطمئن:

ـ صباحُكِ سعادة يا أمي، اعتذر لكِ عن مُضايقتنا لكم في الليلة الماضية وعن إجهادك من الأطفال وعناء ضيافتنا.

هزت رأسها نفيًا وأجابتني بنبرتها الجالبة للطمأنينة:

ـ صباحُكَ أملٌ في الله يا ولدي، أما عن اعتذارك فهو ليس في موضعه، جميعُنا ضيوف على الأرض، أما عن الأطفال فهم ودودون مثل أمهم، فلا أوصيك بزوجتك هي ابنة أصل وإن أتت إلى شاكيةً منك تأكد أني لن أتهاون معك ولن أترُك الأمر يمُر.

شعُرت بسعادة تغمُرني من أسلوبها وكلماتها، كم كُنت أتمنى لو أن لي أُمٌ مثلها، كم حسدت (درويش) عليها، أجبتها:

ـ كم أسعدني أنكِ دعوتني ولدي، وأما (رجاء) فهي الضوء الوحيد في حياتي وبدونها تغيبُ روحي في ظُلمات الدُنيا، هي حياة أحياها ودعوتي إلى الله يوم الحشر ألقاها.

ربتت على يدي بلُطفِ وبدت نبرتها خائفة:

ـ الآن يجب أن تتحرك لمُرادك، أنا لا أخافُ عليك من ما سوف ترى فأعلم أنك ولدٌ صالح وستصمُد؛ لكنِ أخاف عليك من أن تشرُد عن (درويش)، إياك أن يغيب عن نظرك، وإياك أن تتهاون في كلمةٍ يقولها لك أو أمرٍ، اتبعهُ ليطمئن قلبي عليك فطالما هو قائدك فلا تخف من رحلتك، إياك أن تسبقه الخطوات فلتدعه يمضي قبلك فهو يعلم الطريق ولو كانت الظُلمة حالكة؛ ولا تغضب منه أو تحزن إن رأيتهُ قاسيًّ أو شعرت أنهُ مغرورًا أو صُلبًا، تالله يا ولدي هو أبعد ما يكون عن القسوة والغرور أو الصلابة لكنك لن تفهم ما يقصدهُ بسهولة؛ تلك وصيتي لك فلا تغفل عنها وآخر ما أقوله لك الآن أن هذا هو منزلك وسيظل مفتوحًا لك ولغيرك حتى من بعدي وحتى من بعد (بركة)، فعاود زيارتك لنا دائمًا.

تركت يدي وتركتُ روحي معها وأنا أتقدم لغرفة (بركة)، كم كانت كلماتها صادقة مُخلصة؛ تقدمت إلى داخل الغرفة عبر بابها المفتوح فكان (بركة) على جلسته المُعتادة يواجه الداخل عبر الباب بنظره وعلى يساره (خالد) وعلى يمينه

درويش، ما أن دلفت إلى الداخل مُلقيًا السلام حتى نهض (درويش) وأردف في نبرةٍ حازمة:

ـ توكلت على الحي الذي لا يموت.

أجابه (بركة):

ـ توكلوا على الله مؤيدين بنصره وممدودين بمدده.

تفهمت أن وقت الانطلاق قد حان وأني من أخر موعد الرحلة، مرّ (درويش) من جواري فبدا لي مدى قصر قامتي، فتح باب المنزل خارجًا فتبعته، شابٌ طويل بجسدٍ قوي يرتدي بنطالٌ كُحلي اللون وحذاءٌ اسود وقميصًا لبني اللون، يحمل حقيبةً شبابية يرتدي حزامها بعرض صدره، يسير واثق الخطى بأقدامٍ ثابتة ثبوت الجبال الرواسي، توقف لجوار سيارة (خالد) على أول الطريق لجوار باب المقدمة، تحققتُ من ملامحه بوضوح، لهُ وجههٌ يحمل ابتسامةً مُطمئنة، ومع تلك الطمأنينة فملامحه بأكملها تحمل الحزمُ والقوة، يطوي أكمام قميصه فنظرت لساعديه القويين فبدا لي استحالة أن تفلت من بين هاتين اليدين الأمور أبدًا، وصل (خالد) لباب قيادة السيارة ودلفنا جميعًا بداخلها، تحركنا فكان أول الحوار بالسيارة سؤال (خالد) لمجاوره:

ـ هل ترغب في اختيارِ طريقًا مُعين أو تُريد أن تمُرّ بأحدٍ أو

مكانٌ قبل أن نذهب لمنزل (عصام)؟.

أجابه دون أن يُدير نظره عن شباك السيارة على يمينه:

ـ فقط مُر بنا عبر طريق الكورنيش ونحنُ نتجه إلى وجهتنا.

تحركت السيارة وعم الصمت رحلتنا، لم تتوقف نفسي وأفكاري عن مراودتي عن البحث عن الملاك القارئ وأنا خلف (درويش) بالسيارة، حتى انفجر بركان صبري بداخلي فخرجت كلماتي سريعةً إليه:

ـ هل لي أن أحصل منك عن اسم القارئ الذي كان يقرأ القرآن بالأمس، واسم القصيدة التي كان يشدوها؟

استدار إلى ناظرًا بتمعُنٍ وأردف في ثبات:

ـ عن أي قارئٍ تسأل وأية قصيدةٍ تقصد؟!.

ـ القارئ الذي كان يتلو سورة الكهف والواقعة قُبيل الفجر، والقصيدة التي كان يُناجيّ بها الله.

ضحك بقوة وأغمض عينيه وهو يهُز رأسهُ نفيًا، ثم أردف:

ـ وهل أعجبك صوته وكلمات قصيدته؟!.

أصابتني الدهشة من سؤاله وأردفت في قوة:

ـ بالتأكيد أعجبني للغاية ولم أسمع في حياتي صوتٌ أجمل منه أو كلماتٍ أجمل لمُناجاة الله.

ـ وما السبب الذي دفعك للإعجاب به وبمُناجاته؟!.

ـ الخشوع والصدق.

أشار إلى بسبابته وأردف في ثبات:

ـ صدقت.

ألقى كلمته واعتدل ليُدير ظهره إلى دون أن أحصل على إجابة فعاودت الحديث في إصرار:

ـ لكنك لم تُجيبني، ما اسم القارئ والقصيدة؟.

وجه حديثه إلى (خالد) قائلاً:

ـ أوقف السيارة على جانب الطريق.

توقفت السيارة على الكورنيش في وقت الغروب، طلب منا الهبوط من السيارة، تحرك إلى رصيف الكورنيش ووقف وهو ينظُر بتمعُن إلى النيل ثم رفع جبهته في صمتٍ وهو ينظر إلى السماء، كانت لحظاتُ تأمله هي لحظات تأمُلي له، لم يتوقف كلينا عن البحث خلف سريرته، شدهت من هذا الشابُ الغامض القوي، لهُ حضورٌ قوي وغريب حتى في صمته، تشعُر وكأنهُ يُغير الكون بنظره، التفت إلى ناظرًا

وأردف:

ـ صُم أذانك عن مسَامعُ الدُنيا؛ فأجمل ما قيل في العشقِ أنهُ الوصلُ في صمتِ؛ وإن أشواقي إليك أسيرة ضلوعي؛ حسبتُ الصمتَ يحفظُها سرّ. ونسيتُ أن المُشتاقُ تفضحه عيونه!

زادت دهشتي منه أكثر فسألتهُ في عجب:

ـ هل تلك هي إجابة سؤالي؟!، إن كانت تلك هي الإجابة فأنا لم أفهم شيئًا!

أطرق برأسه أرضًا وهز رأسهُ أسفًا وأردف وهو ينظُر لأسفل:

ـ ولو علِّمَ يعقوب أن فراقٌ يوسف ما هو إلا ليكُن عزيزُ مصر لما ابيضت عيناهُ حُزنًّ.

ألقى جملته ورفع رأسه ناظرًا للسماء وتابع حديثه:

ـ وإني أحارب في معاركِ لا يُدركها غيري.. أُقاتل لإحياء ميت قلبٌ ولمّلمّت شتات روحِ المُمزقة مُمسكًا بيقينِ عدلُكَ فأصعب معاركي معها ولا تنتهي أبداً؛ أحارب لترويضها والسيطرة عليها فتأبى كثيراً وترضى قليلاً ولن يستسلم أحدنا!؛ هي نفسي.

ألقى كلماته التي مست روحي ولو لم أفهم ما ترمي إليه ودق على يسار صدري تجاه القلب فانتفضت كمن مسهُ مس العشق الجنوني فحلقت روحي تتراقص على ألحانِ كلماته المُنيرة التي تابع بها حديثه:

ـ لم يتوقف قلبك هذا عن البحث والتفتيش خارجه حتى امتلاء عن أخره فلم يعُد يحوي إلا الألم، لا تسعى خلف الحقيقة خارجًا فهي بداخلك، سألت فأجابتك ولم تفهم لأنك لا تُريد أن تتحمل عناء البحث بداخلك عن الإجابة، من عساهُ يقرأ بمنزلي وغرفتي غيري؟!، وإن رأيتني خاشع فذلك لأني أستحضر عظمة الخالق فاشعُر أني أنظر إليه وينظرني فأغُض بصري تأدُبٌ، أُناجيه ويسمعني فأصُم أذاني عن الدُنيا لأسمع صمته، حرر قلبك يا صديقي لتتحرر روحك؛ فجميع مخلوقاته تخضع لملكه وعظمته حتى الكافر من تلك المخلوقات عبدٌ بين يديه.

أنهى حديثه وهو ينظُر بعيونٍ ملئها الدمع إلى مشهد الغروب، شخصت عيونه فبدا كمن أصابهُ آلمٌ شديد في صدره فوضع يده على قلبه وخرجت كلماته محملةً بالدموعِ بذات نبرته الخاشعة:

ـ يسألونني عنك وأنا نفخةٌ من روحِكَ، يلومُنني عن سُكرٍّ وكؤوس الخمرٍّ حُبكَ، وإن حلقت روحي في نومٍ جأرت

بإعلانها عِشقُكَ، وإن ليّ نفسٌ روضتها فأقرت في يقظتها أني عبدُكَ.

شعُرت أني تفهمت سبب حُزنه وآلمه وبدأ يتكشف ليّ كُنه هذا الشاب فأجبتُ على حديثه بسؤالي:

ـ إذًا كان هذا صوتك وتلك كلماتك؛ فهل لك أن تُخبرني كيف تستحضر هذا الخشوع؟ وإن كان جميع مخلوقات الله وحتى الكافرُ منها عبدٌ بين يدي الله فكيف تكون للشياطين تلك القوة على عباد الله؟!.

ابتسم بقوة موجهًا نظره وحديثه إلى (خالد) الواقف إلى جواري:

ـ إنهُ يُشبهك كثيرًا في أول لقاء بيننا، إلا أنهُ يملك شبقٌ غريب للمعرفة.

ضحك (خالد) بقوة وأجابه:

ـ أنا ألاحظ ذلك لكنِ أتبع القواعد ولا أُريد التدخل، أشعُر بما يُعانيه من حيرة وأتمنى عليك أن تُبسط لهُ الأمر فجميعُنا في أول الطريق ولا تُحاسبنا كحسابك لنفسك فنحنُ لسنا مثلك ولا أنت مثلنا.

كُنت أتمنى أن أقول ذات كلمات (خالد) فكثيرًا من كلمات

(درويش) أشعُر أنها تمسُ روحي لكنِ لا أفهم ما المقصود منها، انتظرت الإجابة بشدة والتي لم تتأخر من (درويش) بذات ثباته وقوة كلماته ورزانتها:

ـ أنت مُحق، الأمر في الخشوع يتعلق بالقلوب، فإن أخلصت حُبك وكان صادقًا رأيت محبوبك أمام عيناك حاضرًا، فإن أخلصت حبك لله بصدق ملئ حُبه روحك وكيانك وشعُرت بوجوده في كل شيئًا حولك فيطمئن قلبك، وإن اطمئن قلبك توقفت روحك عن البحث خارجها فتُفتش عن الله بداخلها حتى تسكُن فيسكُن الله بها فتُصيب السكينةَ نفسك، فترى الله أمامك بعين قلبك ويعُم الخشوع روحك وبدنك.

صرخ (خالد) كما تمنيت لو أصرُخ مثله وبذات كلماته فكانت:

ـ يا الله.. إن لك طريقةً تمس القلب وتقنع العقل، كأني لأول مرة أشعُر بالرغبة في الصمت والتأمل، ألهمك الله أكثر وأفاض عليك من علمه ولكن أتمنى عليك أن تُكمل إجابة سؤال (عصام) فإني يؤرقني عالم الجن وشياطينه ولا أفهم أسباب قوتهم وكيف يُسمح لهم التلاعب بنا طالما ربنا هو الله وهو خالق الإنس والجن؟!.

أومأ برأسهُ قبولاً وأردف:

ـ بالتأكيد سأجيب، ولكن ونحنُ في طريقنا حتى نصل في التوقيت المناسب.

عُدنا جميعًا إلى السيارة وتحركنا بها إلى منزلي، ما أن تحركت السيارة حتى أدار (درويش) ظهره لشباك السيارة فصار يراني على يساره و(خالد) أمامه، كان الشوق للمعرفة يقتُلنا لما سوف يسرده لنا فلم تمُر لحظات حتى أغمض عينيه لحظة وبدأ الحديث.....

(٨)

عالم الجن

قاعدةً رئيسية على الجميع اعتمادها يقينً ؛ عالم الجن والشياطين أبشع وأخطر من ما يتحمله عقلُنا البشري أو يستوعبه فلا تقترب؛ ولا تظن أن أحداً قرر الاقتراب ونجى فجميع من يقترب من هذا العالم هالك لا محالة؛ هذا العالم يتغذى بالحقد على البشر بقدرٍ لا يمكن تصوره أو تخيله فلا تفتحوا أبواب الشر والهلاك فلن يتمكن أحداً من النجاة إن فُتحت أبواب الشيطان؛ لقد سبق الجن البشر في الخلق بآلاف الأعوام، ميز الله الجن والبشر على حدٍ سواء في حرية الإيمان والكفر عن سائر مخلوقاته، أما باقي خلقُ الله الذي نعلمه فهو مُجبر على الطاعة، خلق الله (سوميا) أبُ الجن من النار وكانت أمانيه الثلاثة هي المُحددة لماهية وقدرات الجن فتمثلت في طلبه أن نرى ولا نُرى وأن نهيم في الثرى وأن يصير كهلُنا شابٌ؛ فأصبح الجن يرى ولا تُدركهُ الأبصار ويطير مع الريح بسرعات خارقة ويعيشون ألاف الأعوام ولا يشيبون، أخلص (سوميا) في طاعة الله وحبه حتى قُبضت روحه، رغم كُل ما حصل عليه الجن من قوة وفضلٌ من الله لم يكملوا طريقهم على نهج (سوميا)، انحرف الجن عن طريق الطاعة، كان الحقد الناري يأكُل قلوبهم

فأغلبهم يرى نفسه الأفضل حتى تطاحن الجن في معارك جبارة سُفكت فيها دمائهم واستُحل فيها القتل والفساد، أوقفت الحرب بينهم بحربٍ أقوى ضد قوى جبارة تفوق قدرات الجن فكانت حربهم مع الملائكة، تفرق الجن في الأرض هربًا وفزعًا، عادت الملائكة إلى السماء بعد التفريق بين المتناحرين من الجن وتشتيت قواهم، إلا أن الملائكة عادت بطفلٍ من الجن دُعيّ (عزازيل)، صعد هذا الطفل إلى السماء في رعاية الملائكة وأُمرت الملائكة بأن تُعلم هذا الطفل ليُصبح ربيب الملائكة، صعد عزازيل ليحيا بعيدًا عن حقد الجن وبطشهم ويتعلم من الملائكة العبادة والإخلاص والتوحيد ويتعلم منهم الحُب، تفوق عزازيل تفوقًا أدهش الملائكة حتى أنهُ صار أميرًا لملكوت السماء والأرض، ألف عامٌ وهو يعبُد الله ويُظهر تفوقًا وصدقًا لا نظير له من بني جنسه!، حتى جاء موعد الامتحان بخلق (أدم) وأمرُ الله للملائكة وعزازيل ابن الجن بالسجود؛ تكشف في تلك اللحظة ضياع عبادة الألف عام في أن تُغير قلبه، ملئ الحقد الناري جسده فأوغر قلبه على الطاعة، جحد الحق الإلهي عليه وطغت طبائع النار في حديثه من الخيلاء والغرور والتعالي بكلماته فكيف أسجد لمن خلقت طينًا وأنا من نارّ أنا خيرًا منه!؛ لم تكُن تلك النهاية بل كانت بداية الحقد تجاه (أدم) حتى أغواه للمعصية بالأكل من الشجرة فعصى، لم

يكتفِ عزازيل بذلك بل استمر في حقده المستمر ومحاولته إثبات أنهُ أفضل من أدم فهبط هو وأدم إلى الأرض، أصل عزازيل للحقد ضد أدم وأبنائه في من تبعه من الجن، حتى نفذ عزازيل بأتباعه من الشياطين إلى العديد من البشر وبدأ الخدعة والحربُ الكُبرى في ادعاء علم الغيب بل وادعاء النسب بالإله!؛ فكان نبي الله (سليمان) في تلك اللحظات هو الفاصل والفاضح لكذب عزازيل وشياطين الجن، كانت الرسالة السُليمانية هي أن الله يستطيع أن يُخضع الجميع ويُجبره على الطاعة إن أراد ذلك، فكان لسيدنا سُليمان قدرات جبارة على الجن فدفع منهم البعض للبناء لهُ بأمره ومن يغوص له البحر ومن حط من قدره ومنهم من سجنه، كان عالم الجن بالإجماع يخضع لأمره، حتى عزازيل ذاته سُلسل وعرض على أنهُ عبدٌ خاضع ذليل فتبين كذبه على معشر الإنس والجن؛ فكانت العهود السُليمانية التي أسست إلى تحريم الاتصال بين الإنس والجن، ووقف الحروب بين طوائف وأرهاط الجن وبعضهم البعض، تشكل عالم الجن من جديد إلى ملوكٍ سبع كبار كُل ملكٍ منهم منوط به تنفيذ العهود في يومِ مُلكه، أقوى هؤلاء الملوك هو قاضيهم وكاتب العهود وهو خادم وحاكم الجن يوم الخميس والملك الأحمر الذي لم يُهزم في معركةٍ قط وهو خادم وحاكم الجن يوم الثلاثاء والملك الأبيض نائب القاضي وهو خادم

وحاكم الجن يوم الجمعة، كُل ملك من الملوك السبع منوط به الخدمة على معشر الجن في يوم حُكمه، وبذلك أصبح عالم الجن مُنفصل تمامًا عن البشر لهُ قبائل وملوك وحكام لقيادته أسفل الملوك الكبار السبع ولهم محكمة وقانونٌ للتعامل بينهم ظل الوضع هكذا حتى توفي نبي الله سُليمان فأوجد عزازيل طريقًا للاتصال بالبشر عبر السحرة ومخالفة العهود السُليمانية وعكف على إنشاء دولة ملكه من أتباعه وأبنائه ف عالم الجن، فعاد الحديث من جديد بإجحافٍ من الشياطين على الله بغرض إغواء بني أدم ودفعهم للكفر والتشكك من جديد حتى طال ضلالهم القول بأن نبي الله سليمان ما فعل ذلك ولا كان مُلكه إلا بالسحر والشياطين!، كانت أدلتهم مخادعة إلى أبعد حد على ضعاف العقول والنفوس من البشر، كان الجن يستطيع الوصول إلى السماء الأولى يتنصتون على ملائكة التنفيذ وهي تتلقى الأوامر من ملائكة السماء الثانية فيُخبروا سحرتهم أن فلان سوف يحدث لهُ كذا وفلان كذا، فما أن يرى الناس صدق السحرة حتى يفتتنوا في ربهم ودينهم؛ فكان (هاروت وماروت) ملكان مُرسلان لتعليم البشر السحر، وعادت من جديد تتشكل قدرات عالم الجن وأمسى البشر هم السُلطة الأعلى بعد أن بسط الله لهم السلاح وهو السحر وتسخير الجن، ولم يُدرك البشر قوتهم ولا الحكمة في وقتها فذهبوا يتعلمون

ما يُفسد ولا يتعلمون من السحر ما يُصلح، جاهد عزازيل وأتباعه طويلاً لطمس معالم الحكمة الإلهية من سحر هاروت وماروت حتى اختفى تقريبًا هذا السحر، فلم يتبقى من علم السحر إلا سحرُ الشياطين فيكونون هم فيه الأسياد وليسوا العبيد كما كان، حتى أتى النبي الخاتم (محمد) صلى الله عليه وسلم مُعلنً إغلاق السماء تمامًا على عالم الجن والشياطين، مُنع عليهم الولوج إلى السماء الأولى ففقدوا سرقتهم للسمع من أوامر الملائكة، وجاء تحريم السحر تمامًا وإغلاق أبواب الاتصال من جديد، أسلم العديد من ملوك وأطياف الجن كما أمن من قبلهم قومًا منهم بأنبياء سابقين فمنهم من أمن بعيسى ومنهم من أمن بموسى، فهذا العالم هو يُشبه عالم البشر في تعدد ديانته وملوكه وحكامه؛ لكن تبقى القواعد واحدة على طول الطريق، لا قُدرة للشياطين أو الجن في فعل أي أمرٌ ملموس إلا بتسخير من البشر، البشر هُم المفتاح للجن ليتمكن من قوته فإن امتنعت عن فتح الباب ظل ضعيفًا وإن اخترت أن تفتح هذا الباب فلتعلم أنهُ سوف يُدمرك، يسعى الإنسان في حقده خلف من نشأ مُنذُ ألاف السنين على الحقد تجاهه جهلاً، حتى يسقُط في بئر الحقد المُظلم فتشرُد سفينته في بحور الظلمات، وبالرغم من قوة الجن التي يسعى خلفها بعضُ البشر فإنهم مخادعون ولا يملكون تغير حقيقة، إنما يُخادعون بصر البشر فقط، يعجز

الجن عن تحويل التراب ذهبً، فالتُراب حقيقة وإن حاول أحدهم تغير حقيقته يعجز لكنهُ ينجح في خداع بصرك فيُهيئ لك التُراب ذهبًا!؛ عالم الجن مُتسع ومُحرم على البشر الاتصال به، ومن يحاول الاتصال من الجانبين هو حاقد فلا يُدرك الإنسي أنهُ ما فتح البوابة للشياطين إلا لتُهلكه، ويعلم الشيطان أنهُ ما أتى إلى لدفع الإنس لأكبر قدرًا من المعاصي حتى يُهلكه ويصل به إلى قعر الجحيم لتتساوى النهاية؛ فمن كان لهُ عقلٌ يتوجب عليه الابتعاد عن هذا العالم وعدم التفتيش خلفه أو محاولة فتح بواباته؛ أنهى كلماته وأردف في هدوء:

ـ تلك هي إجابة سؤالكم، أتمنى أن تكون الإجابة شافية.

رغم انهُ أسهب في شرح بواطنُ هذا العالم الخفيّ، كانت المرةّ الأولى لهَذين الشابين التي يسمعان فيها مثل تلك الكلمات عن عالم الجن، وهي المرة الأولى لهم التي يعلمون فيها أن البشر هم المفتاح لإطلاق القوة الخفية لتلك الكائنات، وصفٌ غريب لعالم يملئه الغرابة والغموض، لم يكتفَ أحدهم بما قيل، لم يتحمل (عصام) الصمت مثل المرات السابقة، خرجت كلماته غاضبة مضطربة:

ـ طالما الاتصال بين البشر والجن محرم وكذلك السحر، ولعالم الجن تلك القوة الخارقة لما خُلق الجن بالأساس؟، ولمَ

أنزل الله السحر؟!.

ابتسم لهُ (درويش) وتحدث بنبرةٍ هادئة قوية:

ـ وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون، خُلق الجن للعبادة مثل البشر وأما عن القدرات الخارقة فالإنسان لديه قوة جبارة لكنهُ دائم التشكك ويظل يبحث في الخارج رغم أن القوة بداخله وهو دومًا مفتاح السر؛ أما السحر فهو سلاح كان الغرض منهُ واضحًا خدمة الإنسان لكن الإنسان دومًا يُسرع للاستخدام المُدمر لكُل سلاح، الديناميت على سبيل المثال أساس اكتشافه واستخداماته كانت لإزاحة الجبال وحفر المناجم لخدمة البشر لكن كيف استخدمناه؟!، هُنا مكمن الأمر اختياراتك وحدها هي المتحكم وأنت فيها حُر والأمر بيدك تقتُل أو تُعمر.

أشار (خالد) بيده وهو يتحدث إشارةً غير مفهومة عبرت عنها كلماته:

ـ أنا أتفهم كل ذلك واشعُر أني لأول مرة أرى عالم الجن، لكنِ لم أفهم ما الذي يدفع إنسانٌ التعامل مع الجن أو الشياطين وفتح بوابات هذا العالم؟!، وكيف يواجه من ليس لهُ علم بهذا العالم شره سواء كان هذا الشر مُباشر أو بتسليط من الإنس؟.

أشار لهُ (درويش) بإبهامه كأنما انتشى من حديثه وأجاب بنبرةٍ حاسمة:

ـ الحقد هو سُمّ الروح فإذا تملكك الحقد تسممت روحك والروح إذا تسممت قبحت كُل روحٍ رأت، فتسعى تنفُث سُم روحها على من نعمت روحهم بالسكينة؛ السحرة يسعون بحقدهم إلى نشر دين أسيادهم من الشياطين وهو الكفر والحقد، هي دائرة من الحقد تُسمم كُل روحٍ تسقُط بداخلها، أما حصن من يواجه شرّ هذا العالم الحاقد هو الابتعاد عنه والتمسك باليقين في أن ما تمُر به من أزمة ما هو إلا ابتلاء من الله وأن الله وحده هو الذي أتى به وهو الذي يُنهيه، فابتلائك بالسحر كابتلائك بلص هاجمك بالقوة فجرحك، الأمران أزمة وابتلاء الفارق أحدهم تراه والأخر لم تُدركه ببصرك لكنك إذا كُنت مُخلصًا بإيمانك فسترى ببصيرتك وتشفى سريعًا؛ الحصن الوحيد هو الله كُن على يقين أنهُ من أراد اختبارك فأُصمد بإخلاص يُعجل لك الخلاص.

أنهى كلماته على صوت (عصام) من الكرسي الخلفي بالسيارة:

ـ انحرف يسارًا فالمنزل بالشارع القادم يسارًا.

انحرفت السيارة ودلفت لداخل أحد الشوارع القديمة عدة أمتار وتوقفت، هبط الثلاثة يتقدمون بخطواتهم الثابتة مع

هبوط ستائر الليل على الحي والشارع القديم، منطقة بسيطة وشارعٌ أبسط إلا أنهُ مع دخولهم له كان الشارع يبدوا كأنهُ ينتفض من بعيد، زحام ينشئ بمنتصف الشارع، أصوات صدامات تختلط بالصُراخ ترتفع كُلما اقتربوا، نظر الشابان إلى (درويش) الذي كان يُتمتم سرًا في خُطواته وهو يسير ببطءٍ شديد في ثبات دون أن يبدوا على ملامح وجهه أي توتر أو اضطراب، وصل الثلاثة إلى الجمع الواقف أمام منزل (عصام)، هرع إليه أحد الشباب صارخًا في فزع:

ـ أين كُنت يا أستاذ (عصام) شقتك مُنذُ دقائق يصدُر منها أصواتُ صُراخ وكأن معركةً تدور بها.

أجابه (عصام) بثبات ونبرة مرتفعة أدهشت الشاب والجمع أمام منزله:

ـ كُنت أبحث عمن يُمكنه حل الأزمة ووجدته عند رجلٌ كريم استضافني في منزله ولم يتوقف كرمه عند هذا الحد إنما أرسل معي ابنه وهو بعون الله قادر على وقف كيد الشيطان.

أنهى حديثه وهو يوجه نظره إلى (درويش) لتتوجه إليه أنظار الجميع وترتفع الأصوات المفزعة بالأعلى تخترق الجدران إلى النفوس الخائفة أمام المنزل، نظر (درويش) إلى (عصام) موجهًا إليه حديثه:

ـ أُريدك أن تُحضر الأربع أشخاص الذين صعدوا معك أول مرة.

أومأ برأسه إيجابًا وتحرك معه أحد الشباب للبحث عن الجيران الأربعة وإحضارهم، ظل (درويش) على ثباته لا ينطق بكلمة ولا يُدير نظره عن شباك شقة (عصام) بالأعلى، بدا معتزًا بنفسه يكاد يُقارب الغرور من هيئته ووقفته القوية، حتى سمع صوتٌ حنون قائل:

ـ تفضل يا ولدي لا تقف في الطريق.

انحنت جبهته تجاه الحاجة (سعاد) صاحبة الصوت وهي تقف على باب المنزل، اندفع تجاهها باسطًا يده إليها فما أن بسطت يدها إليه حتى قبلها وأردف في نبرةٍ مهذبة إلى أبعد حد:

ـ وهل لأبنٌ ألا يُلبي دعوة أمه وأمرها.

ابتسمت إليه بقوة وأشارت لهُ بالدخول فتبعها ومن خلفه (خالد)، شقتها بالدور الأرضي، بسيطةً للغاية لكنها تحوي أثمن المشاعر، تحوي تلك الجُدران بداخلها الحُب والوفاء ومع الأسف الألم، جلس (درويش) بغرفة الصالون على أحد الكراسي ولجواره (خالد) وفي مواجهتهم (سعاد) على أحد الكراسي تواجه باب الغرفة بنظرها وعلى يمينها كنبة

الصالون وأحد الكراسي، رفعت صوتها إلى من ليست معهم بالغرفة:

ـ احضري عُدة القهوة يا (ريهام).

ألقت جُملتها وهي تنظر إلى الشابين في ابتسامتها الصافية وتابعت بنبرتها الحنونة:

ـ مرحبًا بكم في منزلنا، وأسأل الله أن يفك كرب (رجاء) وزوجها فهم طيبون ولا يستحقون ما يحدث لهم.

أجابها (درويش) بذات نبرته وهو يحتفي بها:

ـ أضاء الله قلبك ودربك يا أمي، فليطمئن قلبك من ناحيتهم والآن فلتُطمئنيني عن حال قلبك على ولدك؟

تبدل حال المرأة من سؤاله، ذهبت ابتسامتها ليستعمر وجهُها الحُزن الذي يستشري بروحها كسرطانٌ خبيث يُدمر كُل ما هو جميل بعينيها، إن لتلك السيدة التي تحيا على معاش زوجها المتوفى ولدٌ هو (أحمد) وابنة هي (ريهام) ، بالرغم أن هذا الولد هو الأكبر وهو بالسنة الأخيرة من دراسته الجامعية بكلية التجارة إلا أنهُ سبب ألم وحُزن تلك السيدة، أهمل هذا الشاب دراسته مُنذُ فترة واتجه إلى صُحبة السوء وطريق تعاطي المخدرات وحينما قررت الأم المُسنة مواجهته أساء لها وكاد يرفع يده على من حملتهُ في

بطنها وهنًا على وهن وسهرت أيامٌ وليالٍ طوال على رعايته، هبت شقيقته الصُغرى بعامين لنجدة أمها فما كان منه إلا أن ضربها ضربً مُبرحًا، تلك المعركة دارت بالأمس وهو يحاول الحصول منهم على أية أموال تكفي لشراء المخدرات التي يتعاطها، انتهت المعركة بانتزاعه ثمن الكُتب الخاصة بدراسة شقيقته في كلية دار العلوم ليرحل دون عودة مُنذُ الليلة الماضية؛ هربت دموع القهر تحفُر طريقها عبر تجاعيد الحزن التي صنعها الألم على وجهها مع الزمن، أجابته بنبرة ملئها العجز:

ـ القلب يتألم يا ولدي ولا قوة للطبيب بالمرض، فلا الطبيب قادرٌ على المرض ولا المرض منهُ شفاء؛ هذا حال قلبي مع ولدي فهو المرض والترياق.

قطع الحديث دخول (ريهام) تلك الفتاة الجميلة في ثوبها الزهري الفضفاض وحجابها تحمل بين يديها مُعدات صناعة القهوة من كؤوس وموقد النار النحاسي وعلبتي البن والسكر، انتصب (درويش) يحملهم عنها فور دخولها ووضعهم على الطاولة أمام (سعاد) بينما اندفعت ابنتها تضرعها في صدرها وهي تسأل في فزع:

ـ ما يُبكيكِ يا أمي؟!.

أجابها (درويش) في نبرة حازمة قوية:

ـ ما أبكاها إلا حال الزمن والأيام، لكن هل الله غافل عن حالها وحالكم؟!، لا والله فما غفل عنكم ولم ينساكم إنما يا أمي أبشري بفرجٍ قريب ولسوف يعود لكِ ولدك في ليلتك تلك ويعود كما دعوتي الله سرًا وعلانية؛ فما دعاه أحدٌ بيقين الإجابة مثلك إلا وأجابه.

لم يتفهم الموجودين من أين لهُ بتلك الثقة التي بدت لهم كأنهُ يعلم علم اليقين!، أنهى الموقف صوت (عصام) على أبواب الشقة يستأذن بالدخول، هرعت الفتاة تختفي من الغرفة وتغيب في المنزل بين جدرانه، لترفع (سعاد) صوتها بالإذن لهم بالدخول، تقدم الجمع وهم (عصام) وأربعةً من جيرانه وهم من كانوا معه بصحبة (رمضان) في المرةِ الأولى، جلس اثنان منهم لجوار (سعاد) وهم من صمدوا مع (عصام) حتى النهاية وعلى يمينها ويسار (درويش) الباقين، سأل أولهم (درويش) في قلق وهو أحد الجالسين لجوار (سعاد):

ـ لقد علمنا أنك تُريدنا فما الأمر؟!.

ـ سوف تعلمون ولكن أُريد منكم جميعًا أن تقصون عليَّ ما رأيتموه في المرةِ الأولى.

سرد الصامدون ما شاهدوه من نيران والشيطان المتجسد

وهروب (رمضان) وإطفائهم نيران باب الحمام وهم يتعجبون أنه لم يحترق شيئًا إلا الباب؛ وسرد الهاربون في فزع أنهم شاهدوا الجحيم والشقة بأكملها تحترق وأنهم هربوا بعد أن هرب الشيخ!، فما الذي سوف يفعلونه بعدما هرب من يستطيع التعامل مع هذا الشيطان؟!، كان الجميع ينتظر حديثه على لهيب النار، لم يتأخر كثيرًا في الإجابة نهض واقفًا وأردف في ثبات وهو يفتح أقرب زر من قميصه إلى عُنقه ويُشير إلى رقبته:

ـ ما الذي ترونه على رقبتي؟.

كانت الإجابات جميعها أنها (مسبحة)، فتح حقيبته وأخرج منها (مسبحةً) أخرى وأردف سائلاً:

ـ وما الذي ترونه بين يدي؟.

تكررت الإجابة عليه أنها (مسبحة)، جلس وأردف في لهجته الثابتة الصارمة:

ـ إن الشياطين لا تُغير حقيقة إنما تتلاعب بأعينكم كذبًا، ما شاهدتموه من لهيب وحرائق ما هو إلا كذب وكيد شيطان، ولو أن في صدوركم إيمان وثبات لأضعفتموها، سأصعد أمامكم ولا يسبقني أحد، ولا يتحرك أحدكم من موضع أوقفتهُ فيه، ولا تصدقون أي شيئًا من ما سوف تشاهدونه

بالأعلى، لا يُصدق أحدكم إلا أن الله هو خالق الإنس والجن ولا يقدرُ على الخالق مخلوق، ومهما تهيأ لكم أني أستغيث لتُنجدونني أو سمعتم صراخ لا تصدقون؛ وجب عليّ حضوركم فما فعلهُ (رمضان) هو أن أوصل لكم رسالةً بضعفه هي أن الشياطين لا يقدر عليها أحدا، وهذا كذب وادعاء فما للشياطين سُلطان إلا على من يتبعهم.

أنهى حديثه بنهوضه وقوله:

ـ توكلت على الحي الذي لا يموت.

تحرك إلى خارج الشقة وتحرك خلفه (عصام) بجيرانه الأربع و(خالد)، وضع قدمه اليُمنى على أولى درجات السلم وهو يُتمتم بنبرة غير مسموعة، ظل يصعد الدرج وهم خلفه في بطءٍ، كلما ارتقى درجة كان ينظُر إلى أعلى كمن يحدث الله، ما أن ارتقى إلى الدور الأعلى حتى صار الجميع يسمع صرخاتٍ مُفزعة وصدامات قوية، بدأت الأضواء ترتعش وشعر الجمع من خلفه ان الأرض تهتز، ضرب(درويش) الأرض بقدمه اليُمنى بقوة صارخًا بالآية الكريمة ((فكشفنا عنك غطائك فبصرك اليوم حديد))، ثبت النور وكذلك الأرض من تحتهم، لم تتوقف الأصوات لحظة بل كانت تزداد كُلما ارتقوا دورًا، حتى وصل إلى باب شقة (عصام)، كان وقع الصوت مُرعبًا يختلط به الصراخ وهرولة الخيل ولهيب

النيران، أشار (درويش) للجمع من خلفه التوقف بينما صعد يواجه الباب المُغلق، أخرج من حقيبته قنينةً صغيرة، فتحها وأخذ يكتُب رموزًا على أعلى الباب ثم رسم نصف دائرةً على الباب وكتب بها أحرفًا متفرقة لأحد أسماء الله الحسنى ومن أسفل الاسم كتب حرفين عربيين، ما أن انتهى حتى توقف الصوت فجأة وبدأ الجميع يشُم ريحٌ طيبة، بسط يده إلى (عصام) وهو يُشير بها كأنما يطلُب مفتاح الباب، سلمه له صاحب الدار في صمت، وضع المفتاح بالباب ودق عليه ثلاثة دقات وأردف وهو يفتحه ((ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق))، فتح الباب وأضاء النور وتقدم يتبعه الرجال، أشار لهم الاتجاه يسار الباب في الجانب المطل على الشارع من الصالة الكبيرة، نظر إلى (عصام) سائلاً:

ـ أين اتجاه القبلة هنا؟.

أشار لهُ (عصام) تجاه مُنتصف الحائط على يمينه الذي يقع الباب في أوله، أشار لهُ بالتوجه مع الجمع والوقوف معهم، اتجه إلى الحائط على يمينه موضع إشارة (عصام) ورسم نصف دائرة بالمداد من ذات القنينة بيده وبداخلها أحرُفٌ متفرقة لاسم من أسماء الله الحسنى وأسفله حرفان عربيان، ثم اتجاه للحائط المواجه للباب ورسم نصف دائرةً أخرى مُعيدًا ما فعله بالحائط الأول باسما جديدًا من أسماء

الله الحسنى وأحرُف مختلفة، اندفع تجاه الجمع يدفعهم الى التقهقر للخلف وسكب خطًا بعرض الشقة من القنينة اصطف الجمع خلفه، أشار لهم بيده تجاهه فتفهموا أنهم لا يجب أن يتجاوزوا هذا الخط، اتجه إلى الجدار المواجه لجمع الرجال وعلى يسار هذا الجدار ممر الطرقة، التفت إلى (عصام) وهو يُشير للجدار أمامه سائلاً:

ـ خلف هذا الجدار حمام منزلكم؟

أومأ لهُ برأسه يؤكد لهُ حديثه، أغمض عينيه لحظات وهو يُتمتم وينتفض وبدأ يتصبب عرقًا، فتح عينيه واتجه للجدار ورسم عليه دائرةً كاملة بقُطر مترًا ونصف، وكتب حول الدائرة في شكلٍ دائري الآية الكريمة

((محمدً رسول الله والذين معه)) حتى نهاية الآية، وبسويداء الدائرة كتب سبعة رموزًا لم يفهمها أحد وحولها ظل يرسم دوائر صغيرة بداخلها جداول بعضها به حروفًا عربية وأرقام وبعضها حروفٌ بلا أرقام ودوائر أخرى لأرقام بلا أحرُف، تراجع إلى الجمع المشدوه من ما يفعل، نظر لهم بقوة فكانت نظرته تُصيب كل من وقعت عينيه عليه بالقشعريرة والمهابة منه، قبض بيده على مسبحته التي أخرجها من حقيبته يتدلى نصفها من قبضته، أعطى الجمع ظهره وصب نظره على قلب الدائرة التي رسمها وبدأ حديثه

بقوة وهو يضرب الأرض بقدمه ((بسر رافع السماء عن الأرض بلا عمد وباسط الأرض على مدد))، ما أن ألقى السر الأول حتى خرجت الصرخات مُدوية من الحمام تكاد تهدم الجُدران....

(٩)

الطماطمة

أصابتني نظرته الحادة بالرهبة والفزع، تبدل هذا الشاب عن كُل المرات التي رأيتهُ فيها، بدا جبارًا يُطبق قبضته على سلاحه استعدادًا لمعركةٍ مُدمرة، ضرب الأرض بقدمه وهو يصرُخ قائلاً

((بسرُ رافعِ السماء عن الأرض بلا عَمد وباسطِ الأرض على مدد))، اهتزت الأرض لضربته لتتبدل الجُدران أمام ناظري، تشكلت الغابة المُظلمة أمامي من جديد، يقف هذا الشاب يُشع نورًا كقمرٌ أضاء ظُلمات ليلٌ بهيم، يُطبق في يده على سياطٍ من اللهب!، قائدٌ يتقدم جنودٍ لا تضح معالمهم من لباسهم الأحمر المُدرع، يرتدون خوذات تُخفي ملامحهم ولكن يظهر من أعلاها قرنان لكل خوذة، تحمل يُمناهم سيوفٌ نارية ويُسراهم دروع حمراء مُستديرة منقوش عليها ذات الرموز بسويداء الدائرة المرسومة على الجدار، يتقدم الجُند ثلاثة قادة يصطفون عرضًا خلفه ضخام عن عامة الجُند خوذاتهم ذهبية ودروعهم كذلك حتى ملابسهم حمراء مُطعمة باللون الذهبي، ضرب الأرض بقدمه مرةً أُخرى مُعيدًا ذات الجُملة، اهتزت الأرض من جديد وخرجت صرخات

مُفزعة تُدوي من قلب الغابة الميتة، فرفع يُمناه بسلاحه إلى أعلى صارخٌ بتكرار جملته للمرة الثالثة، أمسى صوت الصراخ لا يُحتمل مع صرخته الأخيرة، تشكلت دائرة نارية كبيرة في مواجهته يندفع منها كائنات بشعة المنظر تُهرول تجاهه على أربع، مسوخٌ ذميمة حمراء البشرة كثيفة الشعر يتقدم على تلك الكائنات أحدهم صارخًا بوجهه:

ـ أنا (سيلنار) ذراع سيدي الطويلة وأميرة قبيلة الطماطمة خدم السيد الأعظم، ما أتى بك هُنا وما دفعك لفتح بواباتُنا؟.

ـ درويش ابن بركة ابن العاصم ابن الراوي، أتيت مُنفذٌ للعهد السليماني بحضور جنود الملك الأحمر، أمرً عليكِ غلق بوابات عالم الجن، مُنهيًا سحر معتوقة المُسلط على وحيدها وآل بيته.

تعالت ضحكاتها الشيطانية وهي تصرُخ فيه:

ـ تُحاول نجدة الإنسي فتفتح البوابة ولا تعلم أنك نفسك لن تنجوا من يدي، لقد انتظرتك كثيرًا لأثأر لسيدي منك عن المرتين السابقتين، المعركة بيني وبينك ولنرى من منا سوف يصمُد للنهاية.

نفثت سُم كلماتها واندفعت كالبرق تجاه صدره بسيفها الأسود تبغي تمزيق قلبه بنصل الحقد الشيطاني، تلقاها في

بسالة بيُسراه التي نشأ لها درعٌ أبيض مُنيرًا من العدم، خرت من وقع التصادم بدرعه أسفل أقدامه، خرجت صرخته تشُق ارض الظلام وسمائها السوداء بقوله ((وما هم بضارين به من أحدٍ إلا بإذن الله)) وهو يهوي عليها بالسياطِ بيده ممُزقًا درعها لتسقُط منها قطرات النار، نهضت وهي تتأوه ألمًا وتدور حول ذاتها، صرخت فيه:

ـ يا لك من لعين.

ألقت كلماتها وهي تعاود هجومها عليه تحاول النيل من رأسه بقطعها، تصدى بيُسراه لضربتها وهوى عليها بضربةٍ تفادتها بانحنائِها، أسرعت توجه لهُ ضربتها الثانية وهي مُنخفضة الهامة، تصدى لها بدرعه فطاح سيفُها بعيدًا عن منالها، سدد ضربته وهو يصرُخ ((إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فَهيَ إلى الأذقان فَهُم مُقمّحُونّ))، طوق السياط عُنقها وهي تنازع رفع رأسها من اختناقها بالقيد على عُنقها، جذبها بقوة أسفل قدميه وهو يصرُخ فيها:

ـ بسر رافعِ السماء عن الأرض بلا عَمد وباسطِ الأرض على مدد، وبسر عهود سُليمان وطاعة خالق الإنسُ والجان.

ألقى كلماته تلك ثم صرخ بكلماتٍ غريبة ولُغةً أغرب بدت قويةً للغاية، خرجت لها من أسفل الشيطانة قيودٌ نارية طوقت أقدامها ويديها، تحرك القادة الثلاثة من خلفه تجاهها

ساحبين لها خلف قائدهم وبين جنودهم؛ صرخت وهي بين يديهم بعدةِ كلمات رددها خلفها الجمع المُصاحب لها والتي أُسرت من بينهم وهم في فزعٍ شديد، لم أفهم من كُل كلماتها إلا كلمة (ظام)؛ لم تكد تُنهي كلماتها حتى تجددت بوابة الجحيم يندفع منها عددًا كبيرًا من المسوخ يبدون أكثر قُبحًا وشراسة وقوة من السابقين، يتقدمهم نمرٌ أسود يهرول حتى توقف أمام (درويش) فتبدل إلى مسخًا ذميمًا، شيطانٌ نهض من قعر الجحيم تدفعه نيران الحقد، كُتلة من السواد والشعر الأسود لجسد وحشٌ شيطاني لا يوصف من فرط بشاعته، صرخ فيه بقوة :

ـ من أنت لتتجرأ على الوقوف أمام أعواني لثلاثة مرات، وتأسُرّ من قادتي ثلاثةٌ، تلك المعركة إن دافع عنك فيها جنود محرز الأحمر لأجعلها حربٌ طاحنة بين قبائل الجن بإجماعها، لا حماية لك مني اليوم.

ألقى كلماته الشيطانية وهو يصرُخ بلُغةٍ لم أفهمها فاشتعلت الغابة بأكملها وتبدلت وأمست بُقعة من الجحيم يتدافع من دائرة الجحيم جنود الشيطان بلا توقف، جيشٌ أسود من الشياطين يصطف خلف هذا الصارخ في استدعائهم ولم أفهم من لغته إلا أخر كلماته وهو يُشكل سياطٌ ناري بيده من اللهب فكانت ((أنا المُحرر من الأسر، أنا الشيطان العتيد

المريد، أنا فخر معشر الطماطمة والشماشقة، أنا فخر إبليس ذاته؛ أنا ظام))؛ ألقى جملته وهوى بضربةٍ مُباغتة تجاه (درويش) ليتلقاها على درعه، كانت ضربته هي الإشارة لهجوم الشياطين من خلفه، فما أن هوى بضربته حتى تقدمت جنود محرز الأحمر من خلفه تصنعُ دائرةً للحماية حول (درويِش) تعزله مع (ظام) و(سيلنار) التي ترقُد مُقيدة بداخلها، اشتعل القتال بين الجيشين حول الدائرة فكان القادة الثلاثة المذهبين أولي بأسٍ شديد للغاية فكانت ضرباتهم قاضية لكُل من اقترب، يدورون في دوائر حول دائرة الحماية بسُرعةٍ خاطفة فما يكاد أحدٌ يقترب حتى قُطعت رأسه على أنصال سيوفهم النارية؛ لم تكُن المعركة بداخل الدائرة بين (درويش) و(ظام) أقل في وطأتها عن خارجها، بل كانت أشد قوة؛ تلقى درويش الضربة وهو يُسدد ضربته محملة بكلماته:

ـ ((كُلما استغاثوا يُغاثوا بماءً كالمُهل يشوي الوجوه)).

أصابت الضربة وجه خصمه الذي ضحك بقوة وهو يصرُخ فيه ويُسدد إليه ضربته:

ـ كم أنت غبي فأنا لا أؤمن بدينك ولا ربك!؛ أنا المارق على كل الأديان يا أبله.

سدد ضربته تجاه رأس درويش الذي انخفض بها يحتمي

بدرعه، اندفع تجاهه خصمه يدفعه بدرعه يحاول طرده خارج دائرة الحماية ومن بين جنوده، ضغط درويش بقوة على أقدامه وصرخ فيه وهو يدفع درعه بقوة:

ـ إن كُنت المارق على كل الأديان فإنك سجين نبي الله سليمان.

ظفر بجملته وهو يدفع بقوة مُطيحًا بخصمه أرضًا، بدا خصمه مصدومًا من بأسه، ضرب درويش السياط بدرعه فتحولوا إلى سلسةٍ من اللهب الأبيض، سدد نظراته وكلماته لعدوه الراقد أرضًا وهو يُلقي عليه السلسلة:

ـ إنهُ من سُلَيمَان وإنهُ بسم الله الرحمن الرحيم، وبسر عهود سُليمان وخالقِ الإنس والجان.

كانت تلك هي الكلمات التي فهمتها ثم صرخ بكلماتٍ لم أفهمها بدت ليّ لُغةً قديمة للغاية، لغةً ميتةً مُنذ ألاف الأعوام، إلا أن كلماته كانت ذات قوةً جبارة تبدلت لها الغابة من جديد فأزهرت فجأة وأشرق عليها الضوء الأبيض بقوة وبدأت دائرة الجحيم تنحَسر؛ قفز (ظام) هاربًا خارج الدائرة مهرولاً تتبعه جنوده ولم يتوقف إلا أمام الدائرة مُباشرةً مُستديرًا برأسه بنظرة الحسرة وحقد الهزيمة والانكسار صارخًا بأخر كلماته وهي:

ـ لنا لقاءٌ آخر.

هرب بشياطينه وأُغلقت دائرة الشيطان، أصطف جنود الملك الأحمر أمامه وهم مُطبقين على أسيرته بينهم يتقدمهم قادتهم الثلاثة بلباسهم المُذهب، نظر لهم في تواضع وأردف في نبرةٍ ملئها الوُدّ:

ـ انصرفوا محمودين مشكورين، ولنا لقاءٌ آخر.

أجابوه بكلماتٍ لم أفهمها لكن نبرتهم كانت تحمل الكثير من التوقير والاحترام له، انتهوا من كلماتهم له ورمقني كُل قائدًا منهم بنظرته، شدهني الأمر فتلك النظرات والعيون أعرفها جيدًا، تلك القشعريرة في جسدي هل هم القطط الثلاثة في منزل (بركة)؟!؛ رحلوا ورحلت الغابة على مشهد الشروق والإزهار البديع، تلك هي شقتي وهذا هو (درويش) لكن ظهره لنا أنا و(خالد) وجيراني والجميع مشدوهًا صامت كأن على رؤوسنا الطير، اتجه بوجهه للقبلة ليخر ساجدًا، حقًا يُصيبك الابتلاء والكرب في قلبك بوخزة وينتهي الألم وتبلُغ سعادة الرضا بسجدة، طالت سجدته وطال الانتظار لأستقي الأمان والراحة من أعيُن هذا الناسك البُنيّتين، نهض مُتجهًا لموضع الدائرة على جدار الحمام، شدهني أن كُل كتاباته قد مُحيت تمامًا من على الجدار!، رسم نصف دائرة وكتب اسم الله (القوي) بأحرُفٍ مفرقة وأسفله حرفين عربيين لم

ألمحهما، استدار إلينا واقترب منا جالسًا على رُكبتيه أرضًا باسطًا يُمناه إلينا كاشفًا عن مسبحته مُتحدثًا بنبرة هادئة مُطمئنة:

ـ لا أعلمُ ما رأيتموه، إلا أن ما تُشاهدونه الآن هو الحقيقة؛ فماليَّ درعٌ وسيفٌ إلا حبيبي الواحدِ، هو نورالفجر بعد ظلام كل ليلٍ هو الأحد الصمدِ.

صرخ أغلب جيراني بالتكبير والثناء الشديد عليه حتى بالغ أحدهم بقوله:

ـ كرماتك يا مولانا.

تبدلت ملامحه الباسمة إلى جحيم الغضب وهو يصرُخ فيه:

ـ عن أي كرامات تتحدث، فأنا مثلك وقد تكون أنت أفضل مني!، فالجميع متساوون أمام الله، أربط على قلبك بالأيمان وأخلص في حُب الله وأدعوه وأنت متيقن في الإجابة فيُجيبك، ويسألونك عن الجبال قُل ينسفها ربي نسفا.

أنهى كلماته الغاضبة بهز رأسه رفضًا رافعًا رأسه لأعلى يسارًا باتجاه القبلة وعاد لنبرته الهادئة الخاشعة يُناجي بقوله:

ـ في عشقي لك لا أحتاجُ للكلماتِ فالصمتُ يكفيني

والنظرة إليك تُرضيني؛ وجودك عن الدنيا يُغنيني ونورك وحدهُ يُهديني، ولي قلبٌ تصرُخ دقاته معترفةً بعشقِّكَ في سرٍ وفي علني، فأبرأ إليك من كلُ عملٍ أو قولٍ صدر بجهلي.

عاد ينظُر إلينا وعاد يُحدثنا بعيون دامعة:

ـ فليعلم جميعكم أن أقصى ما قد يُحققه عدوكم هو تحقيق مشيئة الله فيكم، فالأمر كُله بيده وحده، تصيبنا سهام الألم فنشعر بأن المُرّ لن يمُرّ، وبالرضا والصبر وحدهم يمُرّ كُل مُرّ.

أجابهُ (خالد) بنبرة هادئة:

ـ لا أُريدك أن تتأذى من كلماتهم فلقد تعلقت قلوب الحاضرين بعشقك، فهي نعمة من الله فلتشكُرهُ عليها ولا تغضب.

ابتسم (درويش) وأجابهُ:

ـ العشق للبشر مُتقلب وقد يموت يا صديقي أما عشقُ الله حيٌ لا يموت؛ فاللهم إني سائلُك في قلبٍ ثابت في عشقِكَ ثبات الجبال الرواسيّ، وإني لا أخشى سوى أن تشرُد روحِ فيتقلبُ قلبِ وينشغل عن عشقكَ، وإني أرى أبلغُ آيات حكمتك في تقليبُ القلوب وأسألك بعظمتك ألا يكون قلبي منهم، فكم من قلوبٍ زهدت في معشوقيها ولا دوامٌ إلا في

عِشّقكَ إلى الأبدِّ.

أجبتهُ:

ـ أنت على حقٍ دومًا مُنذُ التقيتُ بك، قبل كلماتك كُنت أتمنى أن أكون مثلك ولكنِ الآن تفهمت فإذا كان جميع البشر أطباء فمن سوف يبني الأرض ويُعمرها، أنت على حق فما أملكه بالتأكيد ملكتهُ لهدفٍ وما تملكهُ أنت تملكهُ لهدفٍ مغاير والنتيجة أن جميعنا يُكمل الآخر لتكون هنالك حياة.

نظر إلى مُبتسمًا وأردف في نبرةٍ رقيقة:

ـ يبدوا أنك بدأت تُحرر قلبك فتحرر عقلك، أعانك الله وسدد خُطاك.

ألقى كلماته الأخيرة ونهض واقفًا، أعاد ترتيب هيئته وحمل حقيبته، مُعلنًا انتهاء الأمر ورغبته الرحيل، أعاد جيراني الثناء عليه وشكره وفشلت كُل المحاولات في ضيافته منهم، أصر أن لديه عملاً يجب أن ينتهي منه الليلة، هبطنا من الشقة فأسرع خطواته يتخطى باب شقة الحاجة (سعاد) بالدور الأول، أسرعت خلفه ومعي (خالد) حتى توقف بعد المنزل بأمتار، استدار لنا فكانت ملامحه تحمل الحزم والغضب معًا وبدا ذلك من نبرته وكلمته:

ـ اتبعوني ولا تشتركوا فيما سوف يحدُث.

سلم حقيبته إلى (خالد) وقام بلف مسبحتهُ المكونة من الأحجار الكريمة بعدد تسعٍ وتسعين حبة على قبضة يده اليُمنى، كان يسير ونحن خلفه كأنهُ ابن المنطقة ويعرف كُل شبرًا فيها، كُنت أعرف تلك المنطقة التي عرج إليها بعد شارعي يمينًا، هي منطقة تأوي العديد من المجرمين وتجار المخدرات، هذا الوباء الذي ضرب الشباب والكبار يُدمر الكل بلا رحمة بين رحى الإدمان والجريمة، كانت خطواته سريعة إلى حدٍ كبير، بدأت خطواته تتباطأ قليلاً على أحد النواصي، كان هنالك خمسة شباب يجلسون على إحدى المصاطب الحجرية، تقدم بهدوء إليهم فيما توقفنا تمامًا عن الحركة واكتفيت أنا و(خالد) بالمشاهدة كما طلب منا، توقف أمام الشاب الجالس بالمنتصف، فقد كُنت أعرفه جيدًا هو (أحمد) ابن الحاجة سعاد جارتي، انحنى إليه سائلاً في ابتسامة صافية:

ـ أنت أحمد؟.

كان الشاب مُنتشيًا من مخدر الحشيش بخلاف أنهُ أدمن الحبوب المخدرة، فقد هذا الشاب عقله حتى طلب مني مُنذُ فترة أن أجلب له حبوبٌ مخدرة من شركة الأدوية التي أعمل بها لئتاجر ونتربح، جاهد معي حتى أقنعته أني لا أعمل على خط إنتاج أو توزيع تلك الأدوية، رفع أعيُنه الزائغة إلى

سائله ومسَّد بكفه على وجهه وهو يُجيبه في غنجٍ مُستفز:

ـ هو أنا، أتُريد حشيش أم أقراص مخدرة؟.

لم يتمكن الشاب من سحب يده بعيدًا عن وجه (درويش) حتى تراجع برأسه للخلف كثيرًا وهوى على أنف الشاب برأسه فسمعت تهشيم أنفه!، شدهني فعله والضربة المفاجأة والمُغايرة للموقف تمامًا، سال دم الشاب بغزارة مع صرخاته وهو يئن من الألم يُغطي وجهه بيديه، فزع الجالسون لجواره، أسرع أحدهم تجاه (درويش) يحاول أن يُسدد لهُ ضربة من قبضة يده تجاه وجهه، انحنى قليلاً لليمين مُتفاديًا ضربته، أطبق على يد المهاجم بين ذراعه وجانبه الأيسر، أطبق بيده على تلابيب المهاجم من رقبته وهوى على أنفه برأسه مُهشمًا أنفه ضاغطاً بقوة على يده المُقيدة فسمعنا صوت كسرُها وهو يُسدد إلى أحشائه ضربة قوية بركبته أطاحت بالشاب بعيدًا يتأوه ألمًا، اندفع بكامل جسده للخلف يُلاصق هذا الشاب الذي رفع يده بهراوةٍ كاد أن يهوي بها على رأسه من الخلف مُتفاديًا ضربة الهراوة التي سقطت أمامه، سدد ضربةً مزدوجة بكوعيه إلى بطن الشاب خلفه، استدار بسرعة إليه وهو يسدد إلى أنفه اللكمات بشكلاً سريع، فما شعر الشاب إلا ووجهه يمتزج بالدماء وهو يهوي أرضًا، عاد الشابان الآخران اللذين هرولا مُبتعدين مع بداية

المعركة، كُنت أظُن أنهما يهربان إلا أنهما ذهبا وعادا بأسلحةٍ بيضاء كبيرة بأيديهما يدعمهم ثلاثة شباب آخرين، انحنى (درويش) يُطبق بيُمناه على الهراوة من الأرض، لا أعلم هل كان يُقبلها أم كان يهمس لها سرًا بألا تخذله أم حولها لعصى موسى بكلِماته!، كان الجمع الغاضب على وشك الوصول إليه وهو ما يزال يهمس أو يُقبل العصا بيده!، ما أن اقتربوا منه حتى تبدلت العصا بيده!، أصابها مسٌ شيطاني صارت العصا كأنها جُزءٌ من جسده، هوى بها على ضلع أول المهاجمين بقوة، فطاح من شدة الضربة أرضًا كأنهُ دُمية أطاح بها طفلٌ زهد اللعب بها لتتأوه ألمًا وصراخًا، اندفع تجاه القادمين يُهاجمهم!، لاقى الثاني بضربةٍ على رأسه فشجها وهو يُسدد ضربة بقدمه إلى بطنه فهوى، عم الذُعر أرجاء المكان فأمسى الجميع يفر من أمامه، حتى باقي المهاجمين لم يُكملوا المعركة هرولوا هربًا وهم يصرخون:

ـ ضابط من الحكومة!.

لم أفهم عن أي ضابط يتحدثون، من عساه يكون ضابطٌ بلحيته تلك؟!، تفهمت الأمر في لحظة فلقد أراد هؤلاء المجرمون إخفاء هزيمتهم أمام (درويش) باختلاق تلك الكذبة، عاد إلى (أحمد) الذي كان يتأوه ألمًا في مكانه دون حراك، أخرج من جيبه القنينة التي كان يكتُب منها بالأعلى

وسكب منها قليلاً على راحة يده اليُمنى، ثم غسل بها وجهه بعد أن أبعد يديه بالقوة، بدا أن وجه هذا الشاب كمن غرق في نهر من الدماء، كان الغريب ليّ هو صوت تهشم العظام الذي سمعته يصدُر من هذا الشاب و(درويش) يغسل لهُ وجهه بمداد القنينة!؛ أشار إلينا بالاقتراب فحملت الشاب أنا و(خالد) كُلٌ منا يضع يدًا له حول عنقه، بينما حمل (درويش) حقيبته وتقدم في خطواته عائدًا تجاه منزلي بلا توقف أو حديث، كُنت أسير خلف هذا الشاب مشدوهًا، ما هذا الشاب وما كُنهه حقًا، أهو إمام في زمنٍ ندُرت به الأئمة أم أنهُ وحشٌ إن أُطلق صار أشرس ما أنجبت الغابة، حاد الذكاء والطباع، قوي الحضور ولهُ مهابة، صامتٌ حد الغرابة ولبق الحديث حد الطلاقة، كُل ما تيقنت منه وأنا خلفه أن هذا الشاب هو قائد يعلم متى ومع من يُفرط في قوته ومتى يُلجمها كفارس أطبق على فرسه حتى صارا جسدين بروحٍ واحدة وعقلٍ واحد إن أراد الفارس الركض أطاعهُ فرسه الذي يمتطيه بكفاءة وإن أراد التوقف ثبت كالجبال الرواسيّ، توقف عن الحركة أمام منزلي فكان جمع الجيران ما يزال يتحدث عن هذا الشاب الذي غلب الشيطان، استدار واقترب منا قبل أن ينضم إلينا أحد، رفع بسبابته ذقن (أحمد) بيننا وأردف في نبرة حازمة وهو يصُب نظراته على عيني الشاب الباكيتين:

ـ فلتعلم أن تلك المرة جئتك مُكتفيًا بالألم، فإن عُدت لك المرة المُقبلة فصدقني سوف تشتهي الموت من ما سوف أفعله بك وما أسببهُ لك من وجع، احفظ كرامتك وعرضك والزم بيتك هذا فعهدُك فيه ثلاثة أشهُر لن تبرح فيهم الفراش ولتبول فيهم كُل يومًا على نفسك حتى ترى الذُل وترى من سوف يكون بجوارك ويستُرك، ولنا بعدها لقاء.

اندفع الجيران إلينا يتخبطون من هول المشهد يسألون عن حال (احمد)، اندفعت الحاجة (سعاد) وابنتها إلى الشارع تصرُخ فزعًا، استقبلها (درويش) في لُطفٍ بالغ وتأدُب كبير وتحدث إليها بنبرة مُطمئنة:

ـ لا تقلقي يا أمي، الأمر بسيط فهو سليم البدن مريض الروح، ها قد عاد إليكِ ابنك لكن عليكِ أن ترضي بقضاء الله فيه، سيلزم فراشه ثلاثة أشهُر فلا تذهبي إلى الأطباء وتهدري جهدكِ ومالك، فما أن انقضت الأشهر الثلاث ستجديني على بابك أطلُب قهوة شفاء وطهور ولدك.

كان الموقف قويًا بين دموع المرأة وكلماته لها الواضحة عكس طريقته التي يعتمد فيها دومًا الرسائل المخفية، أومأت رأسها إذعانٌ، حمل الجيران نجلها يُدخلوه منزله فيما انصرفنا إلى موضع سيارة (خالد) عائدين إلى منزل بركة بعد تلك الليلة الصاخبة، لم ينطق (درويش) طيلة طريق العودة

بكلمة، كُل ما قاله هو آية قرآنية واحدة ((إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم))، قالها وهو ينظُر إلى الشارع الذي أقطنه كأنهُ يودعه بعينيه ولاذ بالصمت طوال الرحلة حتى وصلنا منزل بركة من جديد.....

(١٠)

بداية ونهاية

هبط الجمع من السيارة يتقدمهم (درويش) في طريق العودة إلى منزله، كان يُسرع خطواته يتحاشى الالتفات خلفه حتى لا يلمح أحد السائرين خلفه الدموع الهاربة من عينيه، هذا الشاب قد تظُن أنهُ صُلبًا قاسي القلب، لكن تلك ليست الحقيقة هو يملك قلبًا يتألم حد أن ينفطر تجاه أي ألم يُصيب أية روحٍ يراها، كانت ليلته عصيبةً وثقيلة على نفسه وقلبه، اندفع من الباب إلى غرفته يتحاشى الجميع، كان أبيه وأمه يعلمون حاله بعد كل موقفٍ مُشابه، ينعزل بغرفته ولا تنقطع صلاته ومناجاته يسأل الصفح والغفران من الله إن أخطأ ويخشع في إذعان إلى خالقه يتضرع طالبًا الرضا والقبول؛ تقدم (عصام) و(خالد) إلى داخل المنزل بعد استقبال الحاجة لهم ليتجهوا إلى غرفة (بركة) الجالس على فراشه كعادته وعلى يمينه (رجاء) وأطفالها، اندفع الأطفال إلى أحضان أبيهم في سعادة، تبدل حال تلك الأسرة بين ليلةٍ وضُحاها، انحنى (عصام) يحاول تقبيل يد (بركة) فلم يمنعه بل ربت بيُسراه على كتفه برفق وأردف وهو يبتسم:

ـ فقط قبلتها منك لأؤكد لك أنك ولدي فلا تُكررها، اجلس

فأعلم أنك تحتاج أن تسأل كثيرًا كما أعلم أن (درويش) صعب الفهم.

جلس عصام على مقربةً من (بركة)، تبعه (خالد) في السلام والجلوس ليحتلوا يسار مجلس بركة الذي وجه نظره وحديثه إلى (عصام):

ـ اسأل فيما تُريد، فلا أُريدك أن تحمل في نفسكَّ شيئًا من ولدي.

أومأ برأسه رفضًا وأجابه:

ـ على العكس فإني أحببته بشدة ولن أُخفي عليك كم تمنيت أن أكون مثله، أما الغريب الذي أُريد أن أفهمه هو وعد (درويش) لشابٌ بمنزلي أنهُ سوف يظل طريح الفراش ثلاثة أشهُر بعد معركةً جبارة أبرح الشاب فيها ضربًا ولم أفهم لما؟!.

أنهى كلماته والتفت إلى مجاوره وهو يوجه لهُ نظراته وحديثه:

ـ و(خالد) رفيقي، هادئٌ بشكل غريب وحينما يتحدث يلفظ بما أُريد قوله لم أفهم ما سرُّ هذا الثبات والدقة في الكلمات التي رأيتها منه وكيف وصل لها؟!.

ضحك (بركة) بصفاء فأطل القمر على وجهه بدرًا مُنيرا، وأردف:

ـ ما وعدهُ درويش يا بُني إنما هو وعد الله، أطالت أم هذا الشاب دُعائها وبُكائها تسأل الله شفاء ولدها وأن يرُدهُ لها، يقول تعالى ادعوني استجب لكم، هي دعت كما أُمرتّ فأُجيبت كما وعدتّ وما أنا وأنت ودرويش سوى أسباب؛ أما عن رفيقك فسيُجيبك بنفسه عن السبب.

نظر (عصام) إلى رفيقه الذي كان يبتسم فأجابهُ عن سؤاله بنبرة هادئة:

ـ الصبرُّ والثقة يا رفيقي هم السبب، كُنتُ مثلك أكاد أُجن من أجل الإنجاب، كُل الأطباء تؤكد سلامتي أنا وزوجتي للإنجاب ومع ذلك لا نُنجب، حتى جئت هنا فعلمت السبب، وكان الصبرُّ والرضا بما قسمهُ الله الهدف وأبلغ من إدراكِ السبب، تبع هذا الصبر الثقة في أن الله وحده قادر على تبديل المصائر وما علينا إلا السعي والأخذ بالأسباب، كانت رحلتي طويلة وشاقة لكنها تكللت بالعطاء، فلم يحرمني الله مُرادي ومطلبي بل أجابني، ومن يومها عاهدت نفسي أن أصبر وأفتش عن الحقيقة بداخلي، فتبدلت نظرتي فهل مثلاً كُنت مؤهلاً للإنجاب في أول زواجي؟!، أؤكد لك أن الإجابة هي (لا)، كُنت زوجٌ سيء وكنت سأكون أبٌ أسوأ، مُتعجرف

غاضب دائمًا لا يهتم إلا بنفسه؛ أما الآن فقد تبدل كل شيئًا بداخلي فعمت السكينة روحي وبدني.

كان يسمع كلمات رفيقهُ مصدومًا تملأ أعيُنه الدهشة، تحدث إليه (بركة):

ـ بالتأكيد قد قرأت سورة يوسف، ما الذي فهمتهُ منها؟

ـ أن إخوته كادوا له وكان أبيه يُحبه بشدة وتألم وبكى فراقه حتى ابيضت عيناه، ثم اجتمعوا بعد مُعاناة يوسف، هذا ما فهمته!

ـ ما كان يوسف ليكُن عزيز مصر لو لم يّمكُر لهُ إخوته ويبيعونه بخسًا، كانوا يراهنون على سقوطه وضياعه وهم لا يعلمون أنهم ما هم إلا أدوات وأسباب في جعله عزيز مصر، يا ولدي قُل لمن يُراهن على سقوطك أن سجين مصر أصبح عزيزها ليُنجيّها من سبعٍ عُجاف.

أصابت كلماته قلب الشاب، تلاحمت كلمات (بركة) بداخله مع كلمات (درويش) لتكتمل بداخله الصورة التي لم يكُن يراها، كُل ما حدث له ومرّ به بالتأكيد لهُ حكمة ويخدمه، نظر إلى بركة وأردف:

ـ أطال الله عمرك وأدام خيرك وعلمك علينا، لا أستطيع أن أفيك شُكرًا، هل تأذن لنا بالانصراف فقد أرهقناكم كثيرًا؟

أبتسم له وأجابه:

ـ لا داعي يا ولدي للشكر فلا تشكُر إلا الله هو مُنجيك ومُخلصك، أما إذن الانصراف فلك ذلك لأنك سوف تعود بعد غد، ولك أيضًا البُشرى فلم يُضيع الله جُهدك إنما تأخر عنك رزقك حتى تستحقه واعلم أنك لن تمنع رزق أحدهم وما منعتهُ حرامً سوف تسعى إليه حلالً، الآن ارحلوا في حفظ الله ورعايته.

انصرف (عصام) وزوجته وطفليه بصُحبة رفيقه بعد وداع مؤلم لمنزل بركة وآله، ما أقسى لحظات الوداع والفراق عن من تُحب وتأتمنه على روحك، رحلوا بخطواتٍ ثقيلة مُحملين بآلام الفراق ومرارته، تتوجس أرواحهم خيفة فقد السكينة التي سكنتهم في هذا المنزل، تنتفض أجسادهم ثائرة على الفراق، كم تمنوا لو يُقيمون في هذا المنزل حتى مماتهم، ما أن تحركت السيارة بهم تبتعد عن ريحُ البيت الطيب وآله، حتى بكى كُل من بالسيارة، (عصام) ورفيق رحلته (خالد) وزوجته وأبنائه، كلمات الطفلين كانت كافية لتمزيق نياط قلب الأب والأم وحتى صديقهم، أبدوا الطفلان تعلُقً شديدًا ببركة ومنزله، كان تضرعهم لوالدتهم بأن يبقوا في هذا المنزل وتعهداتهم بالتضحية بمصروفاتهم الصغيرة! والإذعان لكل رغبات أمهم كافية لتنفجر دموع العاشقين على فراق

معشوقٍ ألهمهم طريق الرشاد فكان لهم الهدى والمشكاة في طول الطريق وظُلمته، رحلة العودة لتلك الأسرة كانت أتعس ألاف المرات من رحلة قدومهم!، هذا هو حال الإنسان في الرحيل تعس وفي العودة أكثر تعاسة ولكُلٍ من التعَستين أسبابٌ مؤلمة!، وصلت السيارة على أول شارعهم فهبطت الأسرة في صمت وتكفلت أعيُن (عصام) بشُكر رفيقه فكانت النظرة أبلغ من ألف كلمة، تحرك جمعهم ببطء كمقاتلين استنزفتهم المعارك فكانت خطواتهم مُتثاقلة تكاد تقترب إلى التراجع عنها إلى التقدُم، لم يُفكر هذا الشاب إلا في آخر كلمات (بركة) له وسؤالٍ واحد يدور برأسه، هل تركنا بركة برحيلنا عنه؟!، رغم يقينه أن قلب بركة المُتسع ومنزله الرحبُ مفتوحان لهُ ولغيره دائمًا لم يفهم سر تكرار هذا السؤال برأسه، حتى وصل باب منزلهم ليشدهه هول ما رأى، كان الوقت قد تأخر قليلاً والنور بمدخل منزله خافتٌ، لتقع عيناه على قطٌ أسود، ما أن التقت عيناهم حتى عرفه فهو ذات القط بمنزل بركة وبمعركة (درويش) لكن هذه المرة لم تخشه روحه إنما اطمئن لرؤيته قلبه، ابتسم وقد أتته الإجابة عن سؤاله فالإشارات لا تنتهي لأولي الألباب فتكون جلية لو كانوا يتفكرون، صعدوا الدرج ودلفوا لشقتهم التي اختلف ريحها عليهم فأصبحت أطيب من قبل، شعروا بها بالأمان كما لو أنهم لم يعيشوا بها قبل هذا اليوم، لم يتمكن أحدهم

من الصمود يقظًا أكثر من ذلك، سقط (عصام) على كنبة الصالة الكبيرة باسطًا ذراعيه على مسندها لتسقط (رجاء) على يمينه وتدفن رأسها بصدره، احتلت (روان) الجانب الآخر لصدر أبيها بينما حشر (مازن) نفسه بين أمه وأبيه؛ لم يشعر أحدهم بالزمان أو المكان، سقط الجميع فريسة سُباتٍ عميق لم يستفيقوا منه حتى ظُهر اليوم الثاني، فتح عينيه لتُدهش بأشعة شمس الظهيرة تنساب عبر الفتحات الصغيرة لباب شرفته، نهض بهدوء من بين زوجته وأطفاله مُتجهًا إلى شرفته وهو يسأل نفسه أيُعقل أن ننام كُل تلك الفترة ونحنُ جالسون؟!، جلس على كُرسي لجوار باب الشرفة يواجه زوجته وأطفاله النائمين من أقصى الصالة، أشعل سيجارة وهو ينظر لتلك الملاك النائم، تلك الفتاة ليست زوجته فحسب فهي حُب عمره، عرفها منذ كان يقطن بعقارٍ قرب الجامعة كان يملك به والدها شقةً، عرفه والدها من محل الأغذية بالعقار، فكان يعمل به منذ وصوله من بلدته ليتمكن من الإنفاق على دراسته بكلية الصيدلة ويكون قريبًا من الجامعة، وكان يسكن مع بعض العمال ببدروم العقار، فور أن علم والدها (عبد الرحمن) دراسته دعاه لشقته وعرفه بوحيدته التي يرعاها مُنذُ وفاة والدتها، فكانت تدرس بذات كليته، صارت رفيقة طريقه ودراسته كُل يومٌ، حبيبته وابنته وشقيقته فكانت بعينيه كُل نساء الأرض وهي كذلك لم ترَ

في الدنيا رجُلٌ غيره، ساعده والدها الذي كان يعمل بشركة أدوية مُنذُ عقود وعلاقته جيدة للغاية مع صاحبها ويعتبره شقيقًا له الحصول على فرصة عمل بالشركة، وما أن انتهت دراستهم حتى زوج وحيدته له، هي ليست مُجرد زوجة أو حبيبة هي شريكة حياه بل هي لديه الحياة ذاتها، اكتشف انهُ لم يخرج مع زوجته وأطفاله للتنزه مُنذُ فترة كبيرة، نهض يوقظها مُبتسمًا مُتحدثًا برقة:

ـ هل يسمح الملاك النائم لعاشقه بإيقاظه وطلبه للخروج وتناول الغذاء بالخارج؟!.

احمرت وجنتيها واتسعت عيناها فأصلت وجهها جمالاً على جماله وأردفت في دلال:

ـ إذاً هو يومٌ رومانسي.

ـ بالتأكيد، وهل هنالك شك في أنك دُرة القلب ورفيقة العُمر والدرب؟!.

تنهدت وأردفت:

ـ لم أعرف طوال حياتي للرجولة معنى إلا أنت ولم يذوق قلبي حلاوة العشق إلا معك.

ـ إذًا فلتوقظي الأطفال ليبدأ اليوم.

استعد الجميع ليومٍ جميل كان بمثابة المُتنفس لأرواحهم المُتعبة من تنزه وطعام بأحد الفنادق على النيل لينتهي اليوم بأحد الأفلام بالسينما، قطع ضحكاتهم جرس هاتفها فور خروجهم من قاعة السينما مساءً، كان المُتصل صاحب الشركة التي يعمل بها زوجها وهو بمكانة العم لها أجابته باهتمام وشوق:

ـ عمي (محمود) كيف حالك لقد اشتقت إليك كثيرًا؟.

ـ كيف حالك يا ابنة (عبد الرحمن) وكيف حال زوجك، لقد علمت أنهُ تغيب عن العمل ليومين مُتتابعين، أمل أن يكون السبب خيرًا.

ـ لا يا عمي الأمرّ كان خطيرًا، فلقد...

قطع حديثها نظرة (عصام) لها ليُنبهها لوجود الأطفال وأنهم وسط جمعٌ من الناس، انتبهت لنظرته فأومأت برأسها تفهُمًا وأردفت لمُحدثها:

ـ لن أستطيع التحدث لأن الأطفال معي، عصام سوف يحكي لك كامل الأمر غدًا.

ـ مُمتاز أخبريه أن يصعد لمكتبي غدًا فور وصوله الشركة ولا يتسلم وردية العمل على سيارته.

ـ سأبلغه.

ـ إلى اللقاء يا ابنتي.

نظرت للهاتف وعلى وجهها علامات الجهل فسألها زوجها في دهشة:

ـ ما الأمر؟!.

ـ لا أعلم لكن عمي (محمود) يريدك أن تصعد لمكتبه غدًا ولا تتسلم ورديتك حتى تلتقي به، كما أني شعُرت أن هُنالك أمرًا بنبرته بدا لي مقهورًا!

ـ أنتِ تُبالغين يا (رجاء) في مخاوفك، اطمئني ولا تقلقي غدًا سوف أعلم الأمر وأطمئنك.

رُغم كلماته التي جاهد بها ليُطمئنها لم تطمئن، تعكر صفو هذا اليوم وانتهى بالقلق والعودة للمنزل، زاد تعكُر صفو هذا اليوم بعد عودتهم رؤية حال الحاجة (سعاد) وحُزنها على ابنها، وقع الكشف عليه ثلاثة أطباء مُنذُ عاد بصحبة (درويش) أمس، أكد ثلاثتهم سلامة الشاب العضوية، حتى أنفهُ سليم تمامًا!، إلا أن الشاب يرقُد طريح الفراش غير قادر على الحركة أو الحديث، حتى أنهُ بال في سرواله أكثر من مرة!، بدا أن ما قالهُ (درويش) يتحقق بدقة، الآن فقط تفهم (عصام) سبب سماعه طقطقة عظام أنف هذا الشاب بين

يدي درويش وهو يغسل وجهه بمداد قنينته لقد أعاد عظام أنفه لمكانها، هل يحترف هذا الشاب الطب أيضًا؟!، صعدوا لينتهي اليوم بالقلق والحزن، في الصباح أسرع (عصام) في طريقه إلى عمله، وصل مقر الشركة ليتجه لمكتب صاحبها كما أبلغ زوجته، كان ينتظره كما أبلغته السكرتيرة فطرق الباب برفق ودلف إلى داخل المكتب الكبير، كان هذا الستيني يجلس بكرسي مكتبه وبدا حزينًا حقًا، رحب به وأردف وهو يُشير إليه بالجلوس على الكرسي أمامه:

ـ عندي لك خبر واستفسار، أيهُم تُريد أولاً؟

ـ الخبر.

ـ كما تعلم حينما تم تعينك بالشركة كان ذلك ترضية لرفيق عمري وحماك، وأما الآن فقد اثبت كفاءة كبيرة ووجب أن تتحصل على موقعك الحقيقي بالشركة، إما تختار أن تتوجه لإدارة المصنع أو تُدير الشركة من هُنا مكان حماك، أي الموقعين أنسبُ لك؟

شده الشاب ما يسمع ولم يتذكر سوى كلمات (بركة) قُبيل رحيله، أجابه بلهجة مُضطربة:

ـ أُريد البقاء بإدارة الشركة هُنا، لقد أتقنت التوزيع وصارت لدي خبرة كبيرة بكُل شبرًا بها، فالأفضل لي وللشركة

الاستمرار هُنا.

ـ لك ذلك، الآن يأتي الاستفسار ما الذي دفعك للغياب يومين مُتتاليين وما الأمر الذي لم تستطع (رجاء) سرده أمام الأطفال؟!.

زفر بشوقٍ وأردف:

ـ ((بركة)).

أجابه بتعجُب:

ـ بركة؟!، يبدو الاسم مألوفًا ليّ، ما علاقته بسؤالي؟!.

سرد عليه الشاب أغلب قصته مع بركة ودرويش، لم يحذف من تلك القصة سوى كُل ما يتعلق بأمه فهذا سره ولن يكشفه تحت أي ظرف، كان الرجل يُنصت إليه في انتباه وتركيز شديدين، أنهى الشاب السرد على بشرة بركة له بالترقية بشكل مُستتر في آخر جمله قالها له، انتصب الرجُل واقفًا مُندفعًا من خلف مكتبه ليجلس أمام (عصام) وأردف في تضرُع ورجاء غريب:

ـ الآن تذكرت اسم (بركة)، أرجوك يا بُني أن تنهض معي وتوصلني إليه حالاً لا يجب أن يحل المساء قبل أن ألتقي به، فإن حل المساء دون اللقاء سوف تنزف كثيرًا من الأرواح دمٌ

بدل الدمع من أعينهم.

أومأ برأسه رفضًا وأردف في دهشة:

ـ غير مُمكن أن يكون كُل ذلك صُدفً أو عبثًا.

سأله الرجُل في دهشة:

ـ ماذا تقصد يا بُني فلم أفهمك؟!.

أجابه بنبرة ملئها الدهشة:

ـ لقد أخبرني بركة أني سوف أعود لزيارته اليوم!، كيف لهُ أن يعلم غيبًا؟!.

ابتسم وهربت من عيونه دمعةً وأردف في خشوعٍ:

ـ أنت لا تعرف (بركة) فهو أحد من قال فيهم الله « إن لله عبادًا اختصهم لقضاء حوائج الناس »؛ ما سوف أسردهُ لك ونحنُ في طريقنا وما أعرفه عن بركة سوف يُذهلك، لكن الآن انهض أرجوك فلا مُتسع من الوقت أمامنا فالضُحى يقترب وأمامنا سفر.

نهض الشاب يُسرع خطواته هو وهذا الستيني إلى خارج مبنى الإدارة مُقتربين من سيارة (محمود) الفارهة، سلم المفتاح لعصام وأخبره أن يقود بنفسه فلا طاقة لهُ للقيادة وليُسرع الشاب في طريقهم إلى بركة، دلفا إلى داخل السيارة

وانطلقوا، نظر (محمود) إلى (عصام) وهو يعلم أن هذا الشاب يقتله الشغف والفضول لمعرفة ما لديه حول بركة وأسباب معرفته به....

(١١)

عشقٌ وجنون

شِرارٌ

شخصت عيناه حينما وقعت عليها، تلك الفاتنة ابنة الواحد والعشرين ربيعًا، تتوهج كشمسُ في مُنتصف نهار يومٍ صيفي شديد الحرارة فتحرق قلوب الهائمين، تسلب الناظر لضوئها رُشده فتسحره بنورها ويبقى أسير عينيها البُنيتين تكوي روحه نيران الشوق أملٍ في أمطار الوصل التي لا تهبط لتُهدأ نيران قلبه المشتعلة، تتزين ابنة الصعيد بحجابها وجمالها النقي الصافي فلا تشوبها شُبهة تصنُع، زاد من عشق هذا الشاب لها تفوقها الكبير في دراستهم بكلية الآداب قسم التاريخ، دومًا ما رأى أنها ملكةً من الحضارة المصرية القديمة، هربت من سجن الزمن فأتت من الماضي تضيء عتمة حياته البائسة، تلك هي السنة الثانية لهم بكليتهم وكُل محاولاته التقرُب منها تبوء بالفشل، (نورا) تينك الفتاة ينطبق عليها بشدة قاعدة أن لكُل شخصٍ حظًا من اسمه، لقد أخذت من اسمها ضيائه وتوهجه وجماله حقًا، تلك الفتاكة المُدمرة لكُل مُتطفلٍ أو باحثًا عن العبث معها، سُرعان ما تتحطم أحلامه وقد يكون بعض أسنانه أيضًا وهو على

أعتاب أولى محاولاته!، ما كان ليُخاطر بتلك الكلمات القليلة والنظرات البسيطة في كُل يومٍ يراها فيه وهم يتناقشون حول محاضرةً أو شخصيةً تاريخية، ما كان ليخسرها ولو على حساب احتراق قلبه بلوعة الشوق كُلما نظرها وهي تُشرق بقدومها وتغرُب معها الحياة برحيلها عنه، تحرك راحلاً من الجامعة تقتله التساؤلات والتفسيرات لكُل كلمة طبيعية تُلقيها في حوارٍ بينهم فيفشل في التماس أي تفسيرًا أو إحساسًا يُهدأ ألام روحه وقلبه، توقف كعادته أمام بائع الكُتب لجوار سور الجامعة فأسرع إليه عم (إبراهيم) مُتهللاً قائلاً:

ـ للتو وصلتني مُفاجأة لك، لم يكد يبتعد رجُلٌ باعني مجموعة من الكُتب القديمة، اشتريتها لك كالعادة.

اقترب من أذنه وهمس له:

ـ أخبرني البائع أن بها كُتبً للسحر وأهمها كتابٌ باسم ((تسخير الشياطين في وصل العاشقين)).

تبدل حال (عمر) تمامًا، وأجابه بحماس:

ـ أين تلك المجموعة أُريدها كاملة.

أشار تجاه لُفافةً من قماش لمجموعة من الكتب مُقيدة بحبلٍ من الكتان البالي ، أخرج لهُ الشاب مبلغًا من المال فسعد عم (إبراهيم) به ولم يكُن هنالك مجالاً للحديث أكثر،

أسرع (عمر) بحمل اللُفافة ورحل ليلحق بسيارة أجرة يصل بها إلى قريتهم، ظل طوال رحلة عودته إلى قريتهم من مقر جامعته بإحدى محافظات الصعيد المصري صامتًا، تلك الرحلة اليومية تستهلك من الزمن قُرابة الخمس وأربعين دقيقة، إلا أن تلك الرحلة تستنزف من روحه ما يفوق الزمن بمراحل، فتلك الرحلة بزمنها القصير هي أثقل على نفسه من رحلةٍ إلى قعر الجحيم، بالرغم من أنهُ الولد الوحيد لأبيه وهو الأصغر بعد (زينب) شقيقته الوحيدة التي تكبُره بعامين، وعلى خلاف العادات بالصعيد كان دومًا هو محط السُخرية لوالده ومثال الفشل لوالدته!، لم يفهم يومًا أو يعرف سر اهتمامهم وتقديرهم المبالغ فيه لشقيقته!، دومًا هي المُدللة لهم وتنال مديحهم المبالغ فيه ولم ينسى يوم نجاحها بالثانوية العامة والتحاقها بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، وافق والده على خلاف توقعه تمامًا فكان يظن أنهُ سوف يدفعها للالتحاق بجامعة المحافظة لأنها الأقرب وخاب ظنه!، الحق أن ما فعله والده دفعه للتعجُب أكثر، نحر الذبائح وأحضر أحد أشهر المُنشدين بالصعيد لإحياء ثلاثة ليالي فرحًا بشقيقته!، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل امتد لشراء والده سيارةً حديثة وأحضر لها رجُلاً من أهل القرية ليكُن سائقها في رحلتها اليومية إلى الجامعة!، توقع أن يحدث معه المثل بنجاحه في الثانوية العامة والتحاقه بكلية

الآداب بجامعة المحافظة، رغم سوء المعاملة ونعته دومًا بالفشل وأنهُ لن يصل لما وصلت إليه شقيقته كان هدفه هو دراسة التاريخ التي يعشقها مُنذُ الصغر وقراءة الروايات، كان بإمكانه الذهاب لجامعة القاهرة لكنهُ اختار جامعة محافظته لتوفير الوقت والمجهود، ورُغم أنهُ حقق ما أراد أُتهم بالفشل وأنهُ من سوف يُضيع ثروة وارث العائلة!، حتى أن والديه اعتقدوا التحاقه بجامعة المحافظة عن فشل وأنهُ ليس اختياره كما قال لهم حتى شرحت لهم شقيقته أن مجموع شقيقها يمكن أن يُدخله جامعة القاهرة، اعتاد هذا الشاب أن يكون منبوذًا في داره، فقرر اعتزال كُل ما يؤذي نفسه وإن كان أهله، أعاد ترتيب الحجرات بالدور الأعلى بينهُ وبين شقيقته، ليحصُل على أخر الغرف بالدور بعيدًا عن الدرج وعن أسرته التي لم تمس أقدام أحدهم باقي الطُرقة مُنذ انتقلت شقيقته للغرفة الأولى باستثناء (زينب) تلك الجميلة هي النور الوحيد في ظُلمات حياته، كم من معارك قادتها مع والديها لكشف سر سوء المعاملة لشقيقها ولم تخرج الإجابات عن أنهُ يجب دومًا الضغط على الذكر حتى يشتد عوده ويستطيع تحمل المسئولية! حتى استسلمت كما استسلم شقيقها، توقفت السيارة فهبط منها ينحرف سيرًا تجاه اليمين مُتخذًا طريقًا فرعيًا هو مدخل قريته، طريقٌ فرعي عرضه قُرابة العشر أمتار، على اليمين شونة الغلة والخضار

منتصف الأرض الزراعية وعلى مرمى النظر من أعلى المنزل خلفه تقع مقابر القرية التي تبعُد عنه مسافة خمس مئة مترًا، تقدم (عمر) يجتاز بوابة منزلهم وحديقته عبر ممرًا رُصف بالحجر ترسمه الأشجار يمينًا ويسارًا كأنهُ ممرًا إلى الجنة بينما يراه هذا الشاب طريقٌ نهايته الهلاك والجحيم، التمس خطواته إلى منزل اللعنات كما أطلق عليه سرًا، وصل إلى المنزل وهو منزلٌ ريفي الطراز كبيرًا بشكلٍ ملحوظ، يقع بدوره الأول صالة كبيرة للغاية قد تكون بمساحة منزل كامل من منازل القاهرة، غرفة الضيافة على اليسار من الباب الرئيسي للمنزل بها حمامٌ منفصل عن المنزل، يتبعها يسارًا مطبخ المنزل الكبير يتبعه الدرج الأيسر الخشبي للدور العلوي وهذا هو الطرف الأيسر من الدرج المصمم على شكل مثلث متوازي الأضلاع، يواجهه من جهة اليمين لباب المنزل الطرف الآخر للدرج، يسبقه حمام المنزل يسبقه غرفة والديه، أما بين طرفي الدرج بالمواجهة للقادم من الخارج باب مخزن المنزل، يتم به تخزين الطعام وبعض الأثاث القديم، تقدم بخطواته تجاه المطبخ للبحثِ عن الدته التي كانت بداخله بصحبة سيدتان يُساعدانها في إعداد الطعام، الحاجة (فاطمة) هي أمه ورغم أن الأم دومًا حنون على أبنائها تغلُبها عواطفها لم تكن (فاطمة) تلك المرأة يومًا، هي ابنة الصعيد التي درست فحصلت على بكالوريوس الصيدلة، ابنة

عم زوجها وهم عائلة قوية وثرية للغاية بالوراثة، دومًا ما كانت هي عنصر الحزم على أبنائها رغم ميلها مع والده تجاه شقيقته قليلاً أو كثيرًا في بعض الأحيان، هي امرأة عصية على الجميع يصعُب إقناعها إلا بالمنطق لكنها مع ذلك مندفعة كثيرًا وفي أغلب الأحيان تحكم على الأمور قبل إعمال المنطق لكنها وللحق سرعان ما تبدل رأيها وموقفها إذا ثبت لها ضعف منطقها أو خطأه!، تحدث وهو ينظر لها من خارج الباب حاملاً لُفافة الكتب بين يديه قائلاً:

ـ مساء الخير يا أمي لقد عُدت، هل عادت (زينب)؟!.

استدارت تواجهه من موقعها بداخل المطبخ وأردفت بسخرية:

ـ هل تسأل عن أختك كرجُل يطمئن على عرضّه؟!، أشك في ذلك فأنا أعرف سبب سؤالك، اصعد إلى غرفتك وحينما ننتهي من إعداد الطعام سوف يصلك بالأعلى.

دققت النظر لما يحمله بين يديه وأردفت بذات القوة:

ـ أرى أنك أحضرت كُتبًا جديدة!، طالما تهرول خلف دراسة الماضي والقراءة به ثق أنك لن تفلح في الحاضر ولا المستقبل، اذهب إلى غرفتك فكل يومٌ أتأكد أنك حقًا من سوف يُدمر عائلتنا.

جرعته سُم الحسرة والمرارة يُمزق حنجرته وأحشائه فيُدمر ما بقي من نياط قلبه ألمًا، ارتقى الدرج وهو يتمنى أن ترتقي روحه إلى بارئها، ما الذنب الذي اقترفته لأعامل بهذا الشكل طوال حياتي؟!، أي إعداد وأي مسخٌ ذميم يُريدونني أن أكونه بهذا الشكل؟!، إلى متى سوف أحافظ على صمتي وأجمح شياطين الشر بداخلي أمام كُل ذلك؟!، لم يدرِ إلا وهو بأعلى سطح منزلهم، لقد ارتقى حتى لم يبق بينهُ وبين الله جدار ولا حجاب، سقط جاثيًا على رُكبتيه أمامه كُتبه بلُفافتها، نظر لأعلى فانفجرت أعيُنهُ دمعًا وانتفضت عروق عُنقه قهرًا فخرجت كلماته صُراخًا من الألم تشُق صمت السماء، أراد من الله أن يسمع أنينه ويربت على قلبه فلقد أوشك على الضياع، تمنى أن يرى علامة واحدة ليطمئن قلبه، نظر لأسفل فتذكر كُتبه وبالتأكيد سوف يجد فيها حلاً لما يمُر به، حمل لُفافته واندفع هابطًا إلى غرفته تشتعل بقلبه نيران الرغبة في الوصول إلى المعرفة، ولو أن الشيطان ذاته هو من يملك المعرفة فقد وصل هذا الشاب إلى المرحلة التي سوف يُقابله فيها ليصل لما يُريح عقله وقلبه، تقدم عبر الطرقة بالدور الثاني مُندفعًا تجاه غرفته، دلف إلى الداخل وأغلق الباب على نفسه ليختلي بكُتبه، طالما بحث حول السحر ولم يتحصل على أحد كُتبه ، كان شغوفًا للغاية بالبحث حول كُل ما هو غامض، لم يفهم يومًا

كيف تأتي السحرة بتلك القدرات الخارقة، تمنى كثيرًا أن يمتلك تلك القُدرة حتى وصلت يديه إلى تلك المجموعة التي لا يعلم كُنهها حتى الآن، اتجه إلى مكتبه بزاوية الغرفة الكبيرة التي تحتل مكتبته الضخمة جانبها الأيمن بالكامل، وبالمواجهة قطعة صغيرة بها مكتبه يتبعه الشباك الأمامي للغرفة، ففراشه ثم خزانة الملابس بالجانب الأيسر وخلفه من الجانب الآخر للجدار الذي يقع بأوله باب الدخول يحتل رفه الآخر باب الشرفة الخلفية للمنزل، تلك الشرفة التي تُطل على أجمل الأشجار بالحديقة خلف المنزل تُطل أيضًا على النهاية لكُل البشر، فهي أيضًا تُطل على مقابر القرية!، فك وثاق الشيطان باحثًا بين كلمات الجحيم عن الحقيقة!، لم يُدرك أن تلك الكتب والكلمات لا تحوي إلا الدمار والهلاك لمالكها وكل من حوله، فهي معبرًا من الظلام يقودك إلى أحد أفتك شياطين الأرض وأحد أقوى أبناء إبليس ذاته في قلبِ الجحيم ينتظر فتحك البوابة ليُمزق روحك، جاهد نفسه لفهم تلك الكُتب وفك شفراتها وطلاسمها دون جدوى، جميعها تحوي طُرقًا ومسميات لأدوات ومكونات صعبة، ظل يسحب كتابًا تلو الآخر حتى وجد دفترًا أخيرًا، مكتوبٌ بخط اليد ومداداً لونهُ أحمر يُخالطهُ سوادً، كُتبت الكلمات بخُبثٍ شديد لتكون خادعة لكُل من يقرأها، احتوت البسملة والصلاة والسلام على رسول الله كمُفتتح للدفتر!، كانت الخطوات في

الصفحة التالية لصفحة المُفتتح بسيطةً، فوائد القسم الجلية فإن أردت تهيج المحبة في قلبِ أحدهم أو كشف مستور أو جلب أحدهم أو فك سحر أو عقد سحر لأحدهم او استخراج خبيئة، اختر توقيتًا متأخر في الليل واختلى بنفسك في مكانٌ مفتوح، اقرأ القسم التالي ستين مرة، كان القسم مكونًا من كلماتٍ غريبة، كُتب في نهايته وتوكل بعد القسم بأن يتشكل لك الخادم فيظهر لك، لا تخافه بل اطمئن فأنت سيده وأطلُب منه ما شئت فإنك ترى العجب!؛ أنهى القراءة وأسرع بالنظر إلى ساعةِ الحائط وكان الوقت يكاد يقترب من الخامسة مساءً، غضب بشدة فما يزال الوقت ليُجرب القسم الذي قرأه بعيدًا عن مناله في تلك اللحظات، إن الفضول والشغف إلى المعرفة قد يُهلك صاحبه، هي فكرة لم تكن في عقله تلك الليلة ولا الليلة التي تليها، قاطع انتظاره طرقٌ خفيف على باب غرفته، تلك اليد الرقيقة هي بالتأكيد يد (زينب)، أجابها بعد أن أخفى الكتب أسفل المكتب ووضع الدفتر بدرج مكتبه أمامه قائلاً:

ـ تفضل.

فتحت الباب ودلفت لداخل الغرفة، تلك الفاتنة الرقيقة أغلب أقربائهم يسعون لطلب يدها يشاركهم نفس الطلب أبناء أكبر عائلات المحافظة وترفض!، لم تكُن تلك الجميلة

الرقيقة ذات الجسد الرياضي والقامة المتوسطة والأعيُن الزرقاء بهذا الضعف والوهن الأنثوي الذي يدفع البعض منهم للاحتماء بالزواج من رجل يتكفل بها، هي فتاة فولاذية قوية، صاحبة منطق وفكر خاص بها، دومًا ما كانت ترى أن المرأة تستطيع تجاوز أي أمرٍ بمفردها وتستطيع القيادة منفردة على عكس أغلب الآراء بالصعيد المصري، دومًا ما لاقت أفكارها ومبادئها استحسان ودعم والديها وبقوة وكذلك شقيقها الأصغر التي تتعلق به بشدة، جلست على طرف فراشه تتدلى أقدامها أرضًا وأردفت بلهجة مازحة:

ـ أيُفترض أن أتي أطلُب منك الأكل معي كُل يوم، أنت لا تتخيل عدد البشر الذين يتمنون أن أبتسم لهم فقط، لك الحق أن تغتر بنفسك ولديك ما تُحسد عليه فالقمر بذاته يطلُب منك الأكل معه.

أنهت جملتها على ضحكاتٍ لم تنته بل زادت بإجابة شقيقها وهو يضحك بهستيرية:

ـ أجمل ما فيكِ يا زينب هو تواضعك يا شقيقتي.

استجمعت كلماتها بصعوبة قائلة بذات اللهجة والضحكة:

ـ إذا فلنهبط للطعام فعمران لا يرحم ويبدأ باللحم دائمًا.

هبطوا إلى الدور الأول وقد وضع الطعام على الطاولة

بالصالة ويجلس والدهم على رأسها ووالدتهم على يساره، جلست (زينب) على يمينه يليها (عمر)، كعادته لم ينطق رب الأسرة بكلمةٍ على الطعام، يأتي موعد الحديث والنقاش بعد الطعام مع احتساء أكواب الشاي، لم تكُن لدى (عمر) لا الرغبة والقوة لأي نقاشٍ مع والده أو غيره، لم يكد ينتهي من الطعام حتى انسحب مُغادرًا الطاولة إلى غرفته يتحجج باحتياجه للنوم، لم يهتم أحدهم لإجابته سوى شقيقته التي طالبته بإكمال طعامه فأصر وانسحب دون أن ينطق أبيه أو والدته بكلمة، الانتظار لمنتصف الليل كانت لهُ وطأةً على نفسه، الانتظار قاتل بلا شك لكن التسرع والاندفاع أشد فتكًا، فتح شرفته المطلة على الحديقة الخلفية للمنزل ليجلس بها ويشرُد وهو ينظر لتلك الجنة الخضراء وهي تحتضن المقابر بوسطها، هو مشهدٌ لخص في عقله الحياة بأكملها، الحياة وهي الزرع والموت والرحيل وهو القبور، بين الحياة والموت خطوةً واحدة إن أختل توازنك اضطربت بوصلتك واختلفت النهاية فأنتبه جيدًا أين تضع قدمك وأين تتجه بخطوتك، لم يشعُر بنفسه أو الوقت حتى استيقظ مفزوعًا ينظر إلى ساعته فقد اقتربت الساعة من الواحدة بعد مُنتصف الليل، اتجه إلى درج مكتبه يُخرج الدفتر فحمله وغادر غرفته يتحسس خطواته ألا يوقظ أحدٌ، صعد يتلمس المعرفة وإرضاء رغبته الدفينة بنفسه وقلبه، وصل إلى سطح

منزلهم، السكون والظلام أطبق على البلدة فكانت ميتة لا صوت فيها إلا اهتزاز أوراق الشجر بفعل الرياح ونباح الكلاب في الأراضي الواسعة؛ فتح الدفتر وشرع في إطلاق الطلسم، كانت الكلمات غريبة إلا أنهُ كان يشعُر بقوة تتملكه كُلما تقدم في تكرار القسم، حتى انتهى من المرة الستين وطلب أن يظهر لهُ الخادم فظهر لهُ على هيئة طفلٌ لا يزيد عمره عن الثلاثة عشر عامٌ بديع الجمال يلبسُ ملابسٌ بيضاء ناصعة، فور أن ظهر لهُ أنحنى لهُ في تأدبٍ كبير وأردف وهو منحني الجبهة:

ـ رهنُ أمرك وإشارتك يا سيدي.

انفتحت أعيُن الشاب على اتساعها وأصابته حالة من السعادة والجنون وهو يضحك بقوة، هل حقًا الأمر بهذه السهولة؟!، إنهُ حقًا أسعد أهل الأرض بلا شك ليتمكن من تلك القوة بهذه السهولة، أردف في سعادةٍ بالغة:

ـ ما اسمك؟

رفع جبهته وأجابه في أدب بالغ:

ـ خادمُ سيده (شِرارّ) من ميامين الجن، رهنُ أمرك فما هو طلبك؟

لم يكُن الأمر يحتاج الكثير من التفكير بطلبه الذي طالما

حلُم به، أردف بقوة:

ـ إني أُحب فتاة أُريد منك أن تدفعها إلى حُبي.

رُغم أنهُ كان يتمنى أن يطلُب منه أن يكشف لهُ سبب معاملة أُسرته السيئة له، لكنه كان يخشى ألا يتمكن من رؤية هذا الجني مرةً أخرى فكان الأهم لديه هو قلبه على حساب عقله، نظر لهُ الخادم في أسف وأردف بلهجةِ ضعف:

ـ لكن الحُب يفوق قدرتي فهو من قُدرات سيدي وحده!، إلا أني أستطيع أن أُحسن علاقتك بها فقط وأن أدفعها للانتباه لحبك لها.

غضب بشدة وأجابه:

ـ لم أفهم ما قُلته.

ـ يا سيدي إن الجن درجات فأنا خادم بسيط هُنالك من هو أعلى مني بدرجات أكثر، غداً أظهر لك قدراتي كاملة مع (نورا) حبيبتك، لكن إن أردت حُبها خالصًا لك فعليك التعمق بدفترك أكثر لتصل إلى سيدي.

أنهى كلماته واختفى تمامًا من أمام الشاب الذي هبط لغرفته يحمل القلق والتفكير بعقله ودفتر الشيطان بيده، هل سوف يبدأ رحلة البحث في هذا الدفتر من جديد غدًا؟،

كان قراره هو انتظار ما وعدهُ به (شِرارّ) من إظهار قدراته وبعدها يُحدد ماذا سوف يفعل؛ في الصباح أسرع في رحلة رحيله إلى الجامعة، جاهد في البحث والتفتيش عن محبوبته في أروقةِ الجامعة فور وصوله ولم يعثر عليها، بيد له أنها تأخرت وسوف تلحق بالمحاضرة الأولى وبعد انتهائها بالتأكيد سوف يجدها، تحين مجلسه بأخر الصفوف على غير عادته لتظل أعيُنه مُعلقة على أبواب القاعة، كان قلبه يتراقص بصدره يكاد ينخلع كُلما فُتح باب القاعة لدخول أحدهم من فرط شوقه ولهفته لمعرفة ما سوف يحدُث، حتى فُتح الباب بهدوء فبدأ يلمح أحدهم يتقدم نحوه لا يُعقل ذلك إنهُ (شِرارّ) يتجه نحوه وهو يُشير لأحدهم خلفه فبدأ (عمر) يُدقق النظر خلفه فشدهه أن من يسير خلفه ونحوه هو (نورا)، انفتحت عيناه على اتساعها وشِرارّ يجتازه كأنهُ لفحةٌ من هواءٍ ساخن ليجلس على يساره وهو يهمس له:

ـ لن يراني أو يسمعني غيرك فلا تتحدث أو تنظر إليّ، فقط اسمعني وانتبه.

ألقى كلماته بينما جلست (نورا) على يمينه وهي المرة الأولى مُنذُ ابتدأت دراستهم بالجامعة يجلسون متجاورين، نظرت له (نورا) وأردفت وهي تهمس:

ـ هل أتيت مُتأخرًا مثلي لتجلس بالخلف؟!، لقد تعطلت

السيارة التي كانت تُقلني فتأخرت، وعند دخولي لمحتك فقررت الجلوس لجوارك لفهم ما لم ألحق به من تلك المحاضرة.

همس (شِرارّ) بأُذنهِ اليُسرى:

ـ أنا من عطلت السيارة ودفعتها لرؤيتك والجلوس لجوارك وهذا أقصى ما يُمكنني فعله فور انتهاء مُحاضرتك اتجه لمكانٌ خالي خلف المبنى وأشرح لك ما عليك فعله للولوج إلى قلبها.

أنهى كلماته واختفى تمامًا بينما (عمر) ما يزال داخل صدمته لم يفق منها إلا على صوت (نورا) سائلة:

ـ هل أضاعتُ الكثير من المحاضرة؟

ـ على العكس لم يَضُع منكِ شيئًا مُطلقًا فالبداية ديباجة عن المحاضرة الماضية.

لم يفهم كيف مرت عليها الدقائق إلى جواره ولم تفهم أو تشعُر بعشقه وولهه بها!، أنفاسه تخرُج من رئتيه تحمل لهيب الشوق إليها ولا تشعُرا!، دقات قلبه تصرُخ بعشقهُ لها تُسمع من بهِ صممٌ ولا تسمع!، فأي عاشقٍ بُليَّ مثلما ابتُلي هذا الشاب بمعشوقٍ لا يشعُر بقلبٍ قتلهُ العشق حتى شخصت روح العاشق فأذابها الشوق في كيانِ معشوقهِ وهو لا يدري!، فور

انتهاء المحاضرة اندفع للخروج من القاعة باحثًا عن مكانٍ خالي ليلتقي (شِرارّ) كما أخبره وقد كان اللقاء خلف المبنى لجوار شجرة كبيرة بالحديقة حول مبنى الكُلية، فور أن وقعت عيني (عمر) عليه سألهُ في شغف وشبق للمعرفة:

ـ أخبرني كيف أصلُ إلى سيدك فلم أعود أحتمل الانتظار أكثر.

ـ الآن عليك الذهاب إلى عاصمة المحافظة فسوف تجد أحد العطارين الكبار فلتُحضر منه بعض أنواع البخور والأدوات سوف أخبرك بها ونحنُ عنده فلن أترُكك، وتعود لمنزلك فور جلب الأدوات وتنتظرني بغرفتك حتى مُنتصف الليل وسوف أحضر إليك لنُكمل مراسم تحضير سيدي.

أطاع (عمر) كلماته وانطلق يتبع إشارته وكلماته بالكامل حتى وصل إلى متجر العطارة وتحصل على كُل ما طلبه من البائع الذي كان يتعجب من طلبات الشاب، حمل الأدوات بحقيبته ورحل في رحلة عودته إلى منزله وهو يتجاهل كُل ما يُعرقل مسيره، حتى والدته تحاشى اللقاء بها بمنزلهم مُكتفيًا بإخبار أحد السيدات التي تساعدها بالمنزل بعودته وصعوده لغرفته حتى ينام، سجن نفسه بغرفته يحلُم بأوهام الحُب القادم إليه بعد مراسم التحضير في ليلته تلك، مرت الساعات عليه أعوامٌ حتى تجسد (شِرارّ) أمامه

بغرفته وطلب منه إحضار الأدوات والصعود إلى سطح منزلهم وألا ينسى دفتر التحضير وإحضار شيئًا من ملابس شقيقته الأنثوية لربطهُ بحبيبته (نورا) مُعللًا ذلك بأن جميع أسحار العشق واحدة لكُل النساء!، أسرع في جمع الأدوات والمطلوب بعد التسلُل لغرفة شقيقته وسرقة قطعةً من ملابسها ثم أسرع في الصعود إلى أعلى وهو يُراقب (شِرارّ) الذي طالبه بفتح الدفتر حتى وصل لصفحةٍ كُتب عليها العزيمة الحمراء، كان بها رسمٌ لدائرة يتوجب عليه رسمها أرضًا بها نجمة خُماسية والعديد من الرموز والأرقام كتبها جميعًا، وطُلب منهُ تقيد حيوانٌ يسير على أربع لونهُ أسود فأسرع تجاه غرفة الأرانب بسطح منزلهم وأخرج أرنبٌ أسود قيدهُ بقطعةِ الملابس التي سرقها من شقيقته وأشعل الفحم يحرق عليه البخور الذي جمعه فكانت رائحتهُ قذرة إلى حد كتم الأنفاس في الهواء الطلق، أسرع في قراءةِ العزيمة الحمراء كما كُتب وظل يُكررها حتى بدأ الأرنب المُقيد بمُنتصف الدائرة يقفز كمن حضرهُ الموت، قُطع قيده ومُزق الأرنب تتطاير أشلائهُ ودمائه تُلطخ ما حوله فصار (عمر) كمن غرق بنهر دماء وتبدل لون ملابسه ووجهه إلى الأحمر القاني، تشكل كائنٌ ملعون لم يستطع هذا الشاب تخيُله أو بناء صورةً عنهُ من الظلام فلقد كان ضبابيًا لم يتعرف على كُنههِ، جاهد في التماسك وهو يصرُخ فيه:

ـ أنا سيدك وأطلُب منك.

قاطعهُ صوت ضحكةً خشنة للغاية بدت شيطانية مُرعبة وصوتٌ أشد رُعبًا أجابه:

ـ أنا من يحكُمك أيُها الإنسي وليس العكس.

صدرت تلك الكلمات وبدأ صوت الضحكات ينخفض ويبتعد حتى تلاشى!، أسرع في هبوطه وهو يتوهم أن الأمر توقف عند حد فشله في التحضير!؛ لم يتخيل هذا الشاب أن ما قام بفعله ما هو إلا البداية باستدعاء أحد أفتك شياطين الجن وأبناء إبليس ذاته....

(١٢)

مُنذُ عشرين عامًا

إبراهيم التائب

عُدت من عملي بالشركة باكرًا في هذا اليوم، ما أن دلفت إلى داخل شقتي حتى كانت زوجتي (دعاء) انتهت من الاستعداد للذهاب إلى السوقِ لشراء مُستلزماتنا من مأكل ومشرب، تركتها ترحل فمُنذُ زواجنا تجتاح علاقتنا مشاكل لا حصر لها، لم أفهم السبب في هذه المشاكل التي تنفجر بين الفينة والأخرى بلا سبب مُقنع رغم زواجنا عن حُبٍ أفلاطوني!، كان أكثر المشكلات وقعًا في نفسي ادعائها أني أقوم ليلاً من فراشنا وأضرب أحد زوايا الغرفة بيدي كأن تلك الزاوية كيسٌ رملي يتدرب عليه مُلاكم!، قطعًا هذا ضربٌ من الجنون كيف لي أن أفعل ذلك ولا أشعُر وكيف أستيقظ ولا أجد أثرًا لخدشٍ ولو بسيط بيدي؟!، أما عني فكنت دومًا سعيد طالما أني بعيدٌ عن المنزل وعنها، فور اقترابي من المنزل عائدًا تبدأ تتثاقل خطواتي وأشعُر بأن روحي تُنتزع مني نزعًا، رحلت فقررت النوم قليلاً، كُنا بالظهيرة وبالتأكيد سوف توقظني عصرًا لتناول الطعام، بدلتُ ملابسي وذهبت لفراشي، كان الأرق عدوي في تلك اللحظات والإرهاق الذهني

والفكري يجتاح جسدي فظللت عالق بين الوعي وفقده حتى صعقني هول ما حدث!، سيطرت على جسدي قوةٌ غريبة لا أعلم كُنهها ولا من أين أتت، صرتُ دُمية ماريونت يُحركها لاعبٌ لا أراه!، وجدتني أتجه تجاه زاوية الغرفة وأقوم بتسديد الضربة تلو الأخرى للحائط في جنون!، جاهدت بقوة منع نفسي ولم أستطيع!، أستغرق الأمر دقائق كانت تمُر عليّ أعوامًا، أصرُخ ألمًا ويُطلق عقلي ألاف الإشارات الرافضة لما يحدُث ولا يُطيع جسدي أمرًا له، شعور أنك دُمية يتلاعب بها أحدهم ولا قُدرةً لك على ردعه أو منعه قاتلٌ، تُرك جسدي خاضعٌ لسيطرتي فجأة مثلما سُلبت مني قدرتي عليه فجأة، لا أسباب أو تفسيرٌ علمي لدي لما حدث، هربت مهرولاً من الغرفة لصالة شقتي يقتُلني التفكير ومحاولة البحث عن تفسير لما حدث، إذاً لقد كانت (دعاء) على حق، هل جُننت حقًا؟!، هل تُصيبني نوبات صرع؟!، ما الذي يحدث وكيف يحدث ولما يحدُث معي ذلك بعد زواجي وليس قبله؟!، انتزعتني من حالة القتال الفكري عودة (دعاء) التي سألتني مشدوهة:

ـ ألم تقل إنك سوف تنام ما الذي يوقظك؟!.

أجبتها مُضطربًا:

ـ يجب أن أعود للشركة لوقف مجموعة من الأدوية سوف

تخرُج خطأً.

ألقيت كلماتي وأسرعت في ارتداء ملابسي والهروب من المنزل بحثًا عن تفسيرٍ لما حدث، قادتني أقدامي إلى الشركة حتى اصطدمت بصديقي (عبد الرحمن) الذي صعقه رؤيتي وحالتي فسألني في خوفٍ بدا من لهجته:

ـ ماذا حل بك يا محمود، ما الأمر؟!.

لم أستطيع الإجابة فأخذ بيدي وتحرك معي نُغادر الشركة، وهو يُجاهد في طمأنتي ودفعي للحديث؛ سردتُ عليه كامل قصتي مُنذُ زواجي بعدما جلسنا على أحد المقاهي المجاورة للمصانع القديمة الخاصة بالشركة في منطقة البساتين، فور أن انتهيت من قصتي ربت بقوة على يدي وأردف في ثقة:

ـ اطمئن يا صديقي، هيا بنا لنجد الحل لمشكلتك.

أنهى كلماته ونهض يطلُب مني الرحيل، فسألته:

ـ إلى أين يا عبد الرحمن؟!، ومن هذا الذي يملك حل مُشكلتي؟!.

أجابني بثقة:

ـ الشيخ إبراهيم التائب.

تحركت معهُ ولا أعلم إلى أين ولا من يكون (إبراهيم) هذا

الذي قد يملك حلّ لمشكلتي!، كان مسيرنا سريعًا في حرارة وقيظ شمس الصيف حتى بدت ملابسنا كأنها أُغرقت في عرقنا، اندفعنا من شارعٍ إلى حارة والعكس حتى اقتربنا من منطقة مقابر البساتين، توقفنا أمام منزلٌ كبير يفصله عن المقابر ثلاثة شوارع لا أكثر، تقدم (عبد الرحمن) إلى داخل المنزل فتبعته، صعد للدور الأول طارقً الباب بلُطف، لحظات وفُتح الباب على صوتٍ رقيق بكلمة « تفضلوا « لندلف إلى داخل المنزل، اتجهنا إلى الصالة مُباشرةً وكانت فسيحة، جلسنا أسفل الشباك المفتوح على كنبةٍ كبيرة، تكشف لي من فتح لنا الباب وهو قادمٌ للجلوس على يمين مجلسي أنا و(عبد الرحمن)، رجُلٌ مُسن حنى الزمن ظهره وأضعف جسده، بعض العظام كُسيت جلدًا، يرتدي جلبابٌ أخضر فضفاض، فور أن جلس ابتسم لنا وأردف:

ـ كيف حالك يا عبد الرحمن وكيف حالك يا محمود؟!.

شدهني معرفته باسمي فسألته:

ـ من أين لك معرفة أسمي؟!.

ضحك بقوة وأردف:

ـ سوف تفهم كُل شيئًا فلا تتعجل.

نهض من جلسته وغاب في المنزل لدقائق، لا أعلم لما

شعرت في وقتها أن هذا الرجُل يعلم أكثر مما ينطق به، وهذا ما ثبت بداخلي حينما عاد إلينا، أعطاني ورقةً بيضاء صغيرة مربعة الشكل وقلمٌ وطلب مني كتابة اسمي واسم أمي واسم زوجتي واسم أمها ففعلت، تسلم الورقة وكورها بين راحتي يديه الهزيلتين وهو يتمتم بكلماتٍ لم أسمعها ثم ترك الورقة في راحة يده اليُسرى وطلب مني إشعال عود ثقاب فأشعلت العود وأعطيته ُ له وأشعل النار بالورقة على كف يده!، كيف يُشعل الورقة على يده ألا يخشى الحرق!، كُنت أُراقب المشهد وتتوجس نفسي خيفة من ما يحدُث، لم يتوقف عن تمتمته حتى خمدت النار فأمست الورقة مجرد رمادًا محترق، نهض يقترب مني وهو يفرُك بقايا الورقة المحترقة بين راحتي يديه ولم يتوقف عن ما يُتمتم به سرًا، حتى وقف أمامي فانحنى وهو ينفُخ البقايا من يده على وجهي!، شعرت أن لهيبًا من الجحيم يحرقني، فتحتُ عيني ناظرًا إليه لأجد في عينيه نظرةً لم أنسها يومٌ ، نظرةً أوقفت الكلمات بحنجرتي، تفهم أني لا أستطيع التحدُث فأردف:

ـ أنهض واتجه إلى المرآة وانظر لوجهك وسوف تفهم سبب مُشكلتك.

ألقى كلماته وجلس وهو يهز رأسه أسفًا، نهضت من جلستي أتجه إلى المرآة فأشار لصديقي أن يتبعني، صعقني هول

الصدمة وما رأيت، اسود وجهي تمامًا كأنهُ غارقٌ في بحرٍ من الظلام لا نور فيه قط، قطعةٌ من الفحم قُطعت من أعمق نقطةٍ بمنجمٍ يمتد لألاف الأمتار تحت الأرض، قُطع صوتي تمامًا من الصدمة فنظرت إليه سائلاً بعيني ما الذي أصابني وما الحل؟!، رفع صوته قائلاً:

ـ اذهب معه يا عبد الرحمن إلى الحمام لغسل وجهه وأحضره.

تحركت إلى الحمام غسلت وجهي بينما وقف صديقي إلى جوار الباب يراقبني، لم أعلم إن كان الماء هو ما يحرق وجنتي أم هي دموعي التي انفجرت بلا سبب وأنا أغسل وجهي أم أمرٌ أخر!، خرجتُ من الحمام عائدًا إلى موقع جلوسي في صمت، رمقني بنظرةٍ قوية وأردف:

ـ يا بُني لقد عُقد لك سحرًا خبيث مدفون، الغرض منه دفعك للجنون والطلاق من زوجتك، الآن اذهب إلى منزلك سوف تجد في ظهر المنزل أسفل الزاوية التي تضربها، كوبين مكسورين من الزجاج بداخل بعضهما بينهما ورقةٍ مدفونين بالأرض فَاذهب وأحضرهما إليّ فورًا ولا تتأخر.

رحلت أنا وصديقي تُصيبني الصدمة والدهشة، ما كُنه هذا الرجُل ومن أين علم كُل ذلك؟!، كيف تحول وجهي إلى هذا السواد القاتم!،ما الذي سوف يحدُث إن وجدت هذا السحر

في الموضع الذي أخبرني به؟!، من عساهُ يكون قد عقد سحرٌ ليّ ويُريد دفعي للجنون وطلاق زوجتي؟!؛ جميعها أسئلة بلا إجابات ما يضع كل ذلك على المحك والتصديق من عدمه عندي هو هذا السحر المدفون، أسرعت الخطوات فأوقفت أول تاكسي قابلنا، وصلت السيارة أمام منزلي بمصر الجديدة، هبطنا فأسرعت خطواتي تجاه المنطقة الخالية خلف العقار الذي أقطُن به، نبشت الأرض بيدي في جنون، كُل ما يهُمني الآن هو اكتشاف الحقيقة فإن وجدت أثرًا لهذا السحر فيجب أن أعود لهذا الرجُل الغريب لأفهم كُل ما يدور بنفسي، وإن كان كاذبً وكان هذا الأقربُ لعقلي الرافض لتصديقه سوف أبدأ في رحلة علاجٍ نفسي قد يطول أمدها، لم أستمع لكلمات صديقي وهو يحاول دفعي النبش بهدوء حتى لا أجرح يدي، إن مقدار الألم من تمزُق روحي أشد وطأةً عليّ من أن تُقطع يد قطعًا، لم يدم نبشي أكثر من ثلاثين سنتيمتر حتى صعقني هول ما رأته عيني ولمستهُ بيدي، لقد وجدت الكوبين الزُجاجيين والورقة بينهما!، أصابتني الصدمة والذهول فمنعتني الحديث، حمل (عبد الرحمن) الكوبين بيده وأنهضني بالأُخرى، قادني إلى التاكسي أمام المنزل فلقد طلب من السائق انتظارنا ليُقلنا في رحلة العودة، حافظت على صدمتي وذهولي طوال رحلة العودة إلى الشيخ إبراهيم، صعدنا لمنزله وكان الباب مفتوحً

وهو على ذات جِلسته التي تركناهُ عليها، أومأ رأسهُ أسفًا فور أن دلفنا للداخل وهو يُشير لنا بالجلوس، نظر إلى بآسى وأردف في لهجةٍ حزينة:

ـ أعلم أنك رحلت من عندي وأنت تتمنى أن أكون كاذبٌ وأعلم أنك نبشت الأرض وأنت تتمنى ألا تجد شيئًا، وأعلم أنك صُعقت لما أيقنت صدقي؛ فلتعلم يا ولدي أني عاهدتُ الله مُنذُ أن أخذ (بركة) بيدي ألا أكذب أو أُضلل أحدهم أو أخطو خطوةً في طريق شر.

أنهى كلماته وأخرج من جيب جلبابه لُفافتين من القُماش الأبيض سلمني أولهم وأردف:

ـ تلك اللُفافة بها ثلاثة أوراق هي لزوجتك كُل يومٌ تُذيب ورقةً منهم بماءِ الاستحمام الخاص بها لمدة ثلاثة أيام متتالية بلا توقف.

ثم سلمني اللُفافة الأخرى وأردف:

ـ وتلك لك بها سبعُ ورقات سوف تفعل بها نفس فعل زوجتك لسبع أيامٌ مُتتالية، فلا حديث بيننا إلا بعد تمام السبع أيام فتعاودني بزيارتك لتفهم؛ قد لا يروقك ما أُقدمه لك كحلٌ لمشكلتك فأنت صيدلي ولا تؤمن بخرافات عجوزٌ خرف مثلي لكنك لن تخسر شيئًا إن فعلت ما أقوله لك، ولا

تغفل صلاتك في تلك الأيام ولا تقطع عن لسانك الدعاء لنفسك بفك كربك، الآن تستطيعون الانصراف ولنا لقاءٌ آخر إن كان بالعُمر بقية.

رحلت من منزل هذا الرجُل ولم يرحل قلبي ولا عقلي معي، بقي شيئًا مني بحوزة هذا الرجُل رُبما تعلقتُ بغموضه، رُبما أحببته لما لمستهُ من صدق كلماته، وصلت لمنزلي والصدمة تُسيطر عليّ تمامًا وهو ما لاحظته (دعاء) فور دخولي، لم أتمكن من الكذب أو المُماطلة في الإجابة فالأمر يتعلق بها كما يتعلق بي ويجب على كلينا التصدي له، سردتُ عليها كامل القصة فصُعقت من هول ما سمعت، بدأنا إتباع تعليماته كما طلب، كان الغريب في الأمر أن الأعراض التي كُنا نشعُر بها من بُغض وكره تتلاشى شيئًا فشيئًا، عاد الحُب يسري بأوردة علاقتنا من جديد فنشط قلبها ليزدهر زواجنا فأمكنا القول بعد السبع أيام أنهُ زواجٌ سعيد، قررت اصطحاب (عبد الرحمن) ومعاودة الزيارة لهذا الرجُل، تحركنا ظُهرًا من مقر مصانع الشركة القديم فوصلنا إلى منزله وكان باب شقته مفتوحًا، بدا كأنهُ ينتظر زيارتنا من صوته ونحن على الدرج نواجه الباب قائلاً:

ـ اصعد يا عبد الرحمن أنت وصديقك!

تملكتني الدهشة من جديد ولكن أخبرني عقلي ربما يكون

قد شاهد دخولنا المنزل من شباك منزله، دلفنا إلى الداخل فأشار لنا بالجلوس وهو يُرحب بنا بحرارة، ما أن جلسنا حتى لمحت الأكواب الزجاجية التي أخرجتها من باطن الأرض لجوار منزلي والسحر بينهم على الطاولة، قطع الطريق على سؤالي بقوله:

ـ الآن يحق لك أن تفهم، لكن لن تفهم قبل إنهاء الأمر تمامًا.

قال كلماته وأخرج ورقة السحر من بين الكوبين وأشعل بها النار بعد أن أغرقها بمسحوقٍ أبيض، فاشتعلت منها النيران بقوة رغم صغر حجم الورقة حتى صفيت تمامًا على كف يده، نفخ في الرماد فبدا لي الرماد يطير كسربُ ذُباب يهرُب من الشباك المفتوح خلفنا في مشهدًا عجيب لم يتقبلهُ عقلي نهائيًا في لحظتها، كما تقبل عقلي بصعوبةٍ ما قالهُ، أخبرني أنهُ كان فيما مضى ساحرًا من أشرُّ أهل الأرض، مُنذ عشرين عامًا كان يخدم أحد الشياطين الأقوياء بل كان ذلك الشيطان أحد بني إبليس ذاته، أعطاهُ هذا الشيطان قوةً جبارة فكان يُطلق النساء ويزوجهم طبقًا لهوى شيطانه، على من يُريد امرأةً مُتزوجة القدوم إليه فيُطلقها لهُ بالسحر ويجلبها له صاغرة!، يدفع الأمراض الخبيثة دفعًا تجاه أي فردٌ قاد الحظ عدوه إليه، حتى القتل كان لهُ عنده طريقةً، كان يقتُل بالسحر بكُل سهولة!، كان يقوم بسحره

في القبور بعد منتصف الليل في الأيام القمرية لكل شهرٍ عربي، ينبشُ قبرًا مُناسبًا فيُشعل الحطب بداخل القبر ويعقد سحرهُ الخبيث وينتهي قبل الفجر فيُغلق القبر ويدفن السحر بداخله فلا تصلهُ يد المسحور أبدًا؛ حتى اليوم الذي جاء إليه شابٌ يطلُب منه أن يُطلق لهُ امرأةً يُحبها لكنها مُتزوجةً من شقيقه!، لم يكُن هذا طلبه فقط بل طلب منه قتل شقيقهُ وطفله الرضيع من تلك المرأة، لم يمتعض من تلك الطلبات الصادمة يومًا بل كانت تُسعده وتُسعد شيطانه لأبعد حد، فكُلما كثُر الفساد أُطلقت يد الشياطين في الأرض أكثر، سدد الشاب المبلغ المطلوب ورحل، استعد للذهاب للقبور ليلاً كالعادة، تحسس خطواته في الظلام بين شواهد القبور يسعى لاقتناص قبرٌ مُناسب لفعله الشيطاني القادم، شدهه أن القبرُ المُناسب كان مفتوح الباب، اقترب من القبر فتفاجأ بوجود كبشٌ عظيم بداخل القبر، لم يكُن بتلك السذاجة حتى لا يفطُن إلى أن هذا الكبش ما هو إلا تشكُل إلى أحد أقوياء الجن أو الشياطين، لكن من عساه ُ يكون ليقف أمام إرادة سيده وإرادته، تقدم إلى داخل القبر بينما انحصر الكبش في أحد الزوايا من خلفه، بسط الحطب وأشعل به النيران وما أن اشتعلت وعكف يبدأ عقد سحره حتى أتى الكبش من خلفه فوضع رأسهُ على كتفه وهو يمُد فمه للنيران فنفخ فيها حتى انطفأت وعاد لزاويته خلفه يراقب، تكرر الأمر مراتٌ ومرات

حتى اقترب الفجر، أشعل النيران فلم يأتي الكبش من خلفه كالمرات السابقة بل التف حوله ليواجهه يفصلهم الحطب المُشتعل، كان الكبشُ عظيمًا ناصعُ البياض لهُ أعيُنٌ متسعة وقرونًا تلتف حول رأسه مُدببةٌ لأسفل، رمقهُ بنظرةٍ كادت تحرقه وصرخ فيه بصوتٍ مُرعب كادت لمهابته تنقبض روحه قائلاً:

ـ طوال الليل وأنا أسأل الله أن أقبضُ روحك فأسمع أمره ((أمهله))، كم تمنيت قبض روحك اللعينة لكن لهُ إرادةً أن تبقى؛ تظُننٌ شيطانٌ أيُها الأبله بينما أنا رسول موتك.

***

توقف عن الحديث وسرد قصته وأصابته رعشةً فرمقني بأعيُنٍ ملئها الخوف وأردف:

ـ وإني أتيت الله بذنوبٍ عظيمة والموت كأسٌ على الجميع تجرُعه، فلا تفجُر وتتكبر في الأرض فإنك من الثُراب وإليه راجعٌ.

عاد لإخباري بباقي ما حدث لهُ وبدل حياته، هرول هربٌ من هذا القبر مُنكبًا على وجهه تجلده سياط الخوف من الموت حتى بلغ منزله فرقد فيه صريعٌ ثلاثة أيام، حتى أتى لزيارته أحد أقربائه فحملهُ إلى مسجد السيدة زينب وهو

يُؤكد له أن هُنالك حلّ بالتأكيد سوف يجدونه في هذا المكان المبارك، تركهُ قريبهُ على عتبةِ المسجد ودلف إلى الداخل يبحث عن من يُمكنه مساعدته، كانت الدُنيا مُظلمة في نهارها أمام عينيه مُنذُ ليلته لم تُشرق شمسٌ بعينيه، مُنذُ غربت شمس يوم واقعة القبر وهو يحيا حياة الأموات بلا روح حتى رأى (بركة)، أشرقت الشمس من جديد بعينيه، أضاء نور قلبه ظُلمات هذا العاصي التعس، بسط لهُ يده يربت على يده وقلبه يُنهضه في صمت ويدخُل به إلى المسجد، جلس لجواره بأحد الزوايا ينظره وأردف في نبرةٍ حنون:

ـ أحمد الله على عودتك يا إبراهيم، لقد دعوت الله لك كثيرًا ليُنجيك.

أجابهُ مصدومًا:

ـ من أنت وهل تعرفُني؟!.

ـ أنا بركة، أما عنك فأعرفك جيدًا فأنا من أوقف سحر الشاب الذي طلب منك تطليق المرأة وقتل زوجها وطفله وهو شقيقه، هل كُنت تظُن أنهُ لم يذهب لغيرك قبلك ويفشل؟!.

أصابته الدهشة أكثر من كلماته فأجابه مفزوعًا:

ـ أنا لم أُنفذ لهُ سحرًا فلم تُعقد لي نارٌ من يوم زارني،

رحمني الله لكن شيطاني لن يرحمني أبدًا.

ضرب على قلبه برفق وأردف:

ـ ومن ذا الذي يُمكنهُ أن يقربك بشرٍ وأنت التائب إلى التواب أما تعلم أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، الأمر لك والعهد لله ألا تعود لشرٍ أو سحرٌ وأن تخدم الناس خيرًا مُحتسبًا أجرك من الله وحده وشيطانك فهو ليّ ولن يقربك مرةً أخرى فلي معركةً معه لا دخل لك بها؛ أتُعاهد الله على ذلك وتُعاهدني؟

أجابه بقوة وهو يبكي ندمًا على فعله:

ـ أعاهد الله وأعاهدك.

نهض (بركة) ينصرف فعاجله السؤال قبل رحيله:

ـ ألن أراك ثانيةً؟

نظر إليه مُبتسمًا وأجابه ورحل:

ـ بالتأكيد سوف نلتقي طالما طريقُنا واحد.

أنهى قصته ونظر ليّ بتمعُن وأردف:

ـ تلك هي قصتي يا بُني وأظُن أنك الآن تفهمت كيف عرفت سحرك، فلقد فعلت مثلهُ كثيرًا بزمنٍ مضى فليغفر الله

ليّ.

نظرتُ إلى (عصام) وهو يقود سيارتي مذهولاً مما سمع وأردفت:

ـ كان ذلك يا بُني قبل عشرين عامًا، ظلت فيها علاقتي بالشيخ (إبراهيم) على خير فكُنتُ أحبه لصدقه وتوبته المخلصة، حتى علمت بالأمس أنهُ توفي مُنذُ شهرًا فلقد انشغلت عن السؤال عنهُ لأكثر من ثلاثة أشهر والآن وأنا في أمس الحاجة إليه اكتشفت أنهُ توفيَّ فأجدك تخبرني بقصتك وأنك على اتصال ب(بركة)!؛ إن إشارات الله ورسائلهُ لنا لا تنتهي أبدًا يا بُني.

أجابني وما تزال صدمته تعتلي قسمات وجهه:

ـ سبحان من بيده المُلك والحُكم وحده، إن كُل ما يتعلق ب(بركة) دومًا مُلهم مُريحٌ للروحِ والجسد.

أجابني ولاذ بصمته فكلينا كان يحتاج للحظاتٍ يتصافى بها مع روحه، السحر والشياطين هي أحد أفتك الأسلحة التي عرفها الإنسان، يندفع إليها يقودهُ الشغف أو الحقد لتحقيق رغبته ولا يدري أن هذا السلاح بيده سوف ينفجر بوجهه عاجلاً أو أجلاً، تُصيبنا الأزمة فتُغلق علينا أبواب الدُنيا وتظُلم الحياة بينما أبواب السماء مفتوحة دائمًا ونور الله لا

يغيب عنا ليل نهار، كم تتمزق روحي على (زينب) تلك الفتاة الرقيقة تواجه شرٌّ لا قبل لها به، كانت كلمات شقيقتي وهي تئن ألمٌ على ولديها وما يمُرون به قاتلةً ليّ، لم تكن تلك هي شقيقتي التي أعرفها مُطلقًا!، طوال حياتها لا تنكسر أبدًا ولا تنحني مهما كانت المواجهة قوية، بيد ليّ أنها كُسرت وخَسِرت قوتها وتمزق نياط قلبُها، مهما بلغ الإنسان قوةً تبقى نُقطة ضعفه أبنائه، حتى الحيوان قد يأكُل أطفاله إن شعر بالخوف على حياتهم، لم يكن ذلك حالها وحدها بل شاركها فيه زوجها، لم أكن لأتخيل أن (عمران) قد يقبل فكرة أن يتحدث إلى تحت أي ظرف بعد أخر مشكلة حدثت بيني وبينه بسبب محصوله من المزروعات المُستخدمة طبيًا في إنتاج العقاقير الدوائية لشركتنا التي كان يملك بها ما يزيد عن رُبعها هو وشقيقتي، حدث الخلاف برغبته رفع سعر التوريد فرفضت فقرر البيع لإحدى الشركات المُنافسة لنا!، وضعني في موقفٍ أمسيت مُجبر فيه على فضّ الشراكة معه، رغم يقيني أنهُ فعل ذلك بغضبٍ لا يُريد من خلفه لا جني أرباح زائدة أو دفع شركته للخسارة هو من باب العناد فقط، تلك هي مُشكلتي معه مُنذُ كُنا أطفال ولا أعلم كيف لشقيقتي أن تتزوجه طيلة تلك الأعوام بلا خلافٌ واحد يُذكر بينهم، لا أُنكر عليه كرمه البالغ وأدبه إلا أني لا أُنكر عليه أيضًا اندفاعه وتهوره في كثيرًا من الأحيان وعصبيته وقسوته؛ لم

يصعقني حقًا سوى بكائه، هذا الأنين الذي أسمعه لم أتخيل يومًا أن أسمعه أو أحلُم حتى أن أره يبكي لأي سببٌ، كان كُل ذلك وأخر كلماته وهذا الاختيار القاتل الذي يقف أمامه هو وشقيقتي كافيًا لحفر الحالة المأساوية التي تمُر بها شقيقتي وأسرتها بروحي وعقلي، بدأ الأمل يتسربُ من بين يدي حينما علمتُ وفاة الشيخ (إبراهيم)، جزعت روحي وارتعبت من مجرد التفكير في الاختيار الموضوع أمام شقيقتي وزوجها أيُضحيان بولدهم أم ابنتهم؟!، حتى أرسل الله ليّ هذا الشاب ليكُن الهُدى من ظُلمات الطريق كما كان والد زوجته (عبد الرحمن) مشكاة النور ليّ مُنذُ أكثرِ من عشرين عامًا؛ كُل أمالي أن يكون (بركة) الذي أخبرني عنهُ عصام هو ذاتهُ بركة الذي ألهم الشيخ إبراهيم طريق الرشاد قديمًا فتكون نجاة تلك الفتاة المسكينة هي وشقيقها على يده، أندفع ولا أمل ولا رجاء ليّ إلا في ربي فهو سيهديني، قطع الأفكار بعقلي توقف السيارة وصوت (عصام) قائلاً:

ـ فلنهبط لقد وصلنا.

(١٣)

ناصور

زينب

صعدت إلى غرفتي راضيةً عن يومي باحثةً عن النوم والاستعداد لغدٍ كُنت أتوهم أنهُ أفضل، لم يخطُر بخُلدي يومًا أن أمُر بما مررتُ به وما كُنت لأُصدقه وإن قُسمَ ليّ بجهد الأيمان حدوثه، لم أتذكر الكثير مما حدث معي في ليلة البداية إلا أن ما أتيقن منه هو بداية الأمرُ فجأة وتطوره بشكلٍ خاطف!، صرت كلما اقترب من فراشي باحثةً عن النوم أشعر أن أحدهم إلى جواري بالفراش، اسمع أنينه، اشعُر بحرارة أنفاسه، كنت أصرُخ فزعًا وكان والدي على عهده ورأيه لا يُصدق ولا يكترث، وكذلك أمي لم تكن لتُصدق مثل تلك الخرافات أبدًا خاصةً مني، فرغم أننا من أبناء الصعيد ونحيا به إلا أن أمي حاصلة على بكالوريوس الصيدلة وأنا أيضًا بالسنة الدراسية الأخيرة من نفس الكلية، حتى أبي فهو مُهندسٌ زراعي وشقيقي الأصغر يدرُس التاريخ، أسرتنا ما كانت لتُصدق مثل تلك الخرافات مُطلقًا، إلا شقيقي دومًا كُنتُ أرى بعينيه نظرةً لا أستطيع تفسيرها أهي خوفٌ أم قلق أم شفقة، لكنهم أجمعوا على عدم تصديق كلماتي وأن

ما أمُرّ به ما هو سوى أضغاث أحلام من إجهاد الدراسة التي أُضني بها نفسي حتى تلك الليلة الملعونة؛ دخلت إلى فراشي قلقه أتساءل هل سوف تتكرر تلك الأحلام مرةً أخرى أم أنها انتهت؟!، تركتُ الضوء فكنت قد اعتدت أن اتركه مُنذُ بدأ الأمر فلم أعُد أحتمل الظُلمة مع ما أعانيه وحدي، لم أكد أُمدد جسدي بفراشي حتى انقطع التيار الكهربي فجأة، انتفضت فزعة يكادُ قلبي ينخلع خوفًا، لمحت أعيُنً تشتعل نارًا لكائنٍ بزاوية الغُرفة يقترب مني، اندفعت صرخاتي تنطلق صرخةً تلو الأخرى في جنونٍ وفزع، لم تكُن صرخاتي وحدها كافية لردعه أو دفعه للتراجع، باغتني باندفاعهُ تجاهي فلم يرتدُ إلى طرفي إلا وأنا ألتصق بالجدار خلفي مصلوبةً!، صفعاتٍ وضربات تتوالى على جسدي وصُراخي يرتقي ألمًا بلا مُجيب، عاد الضوء ومعه أبي وشقيقي وأمي تصرخ من هول ما أصابني، تلك كانت البداية فقط!؛ ما تبع تلك الليلة فما كان ليُصدقه أحد مُطلقًا أما أنا فكُلى يقين بحدوثه فأثاره ما تزال على جسدي وبداخلِ روحي ولن يشعُر أحدٌ بما أعاني!، بكماءِ تصرُخ لجمعٍ أصابهم صمم، نياطُ قلبي يتمزق ألمً فلم يعُد به مثقال ذرة حياة، روحٌ مهترئة قص الشيطان أجنحتها فقيدها بأغلال حقده ليغتصب أمنُها كُرهًا فأمسيتُ محظية شيطانٍ نجس يغتصب روحي في شبقٍ وشغف كُل ليلة وسكن الفزع جسدي لينقطع عن

العالم صوتي بعد أن حولني الشيطانُ لدُميةٍ يُحركها متى شاء أينما أراد، ولم يبقى لتلك الدُمية المهشمة إلا نظري إلى السماء ومُناجاتي لربٍّ في صمتٍ فأصبح أملي بك وحدك ويقيني أنك تسمعُني ولن تترُكني أو تخذلُني ؛ تبدل الأمر فأشتد آلمًا وقسوة وصرتُ أسمع همساتهم، وسوساتهم، فحيح حيات تلتف حول روحي لا تتورع عن تمزيقها، لا تمل أبدًا أو تتوقف أو تكتفي مهما كان مقدار الألم الذي يقتلني كُل لحظة يقتربون فيها مني، صرخاتي ما هي إلا أعظم الألحان لهم طربًا، يُطربون فيشتد رقصهم على جثتي كُل ليلة، أما تلك الليلة كان الأمرُ أشد ألمًا فهي الليلة السادسة مُنذُ دنس وجودهم روحي؛ دخل الليل يُنذر بقدومهم، هُم خدم الشيطان ولا يعصون لهُ أمرًّ، يتسابقون على إرضائه والفائز برضاه من يؤلم ضحيته حتى تستلذُ الألم فينتشي سيده بصرخات الفزع ويتأهب وترضى ساديته، قُيدت روحي بداخل جسدي التعس مثل كل ليلة مُنذُ قيامتهم سعيًا خلفي من الجحيم، لم يعد لانقطاع الضوء أو وجوده معنىَ فلم أعُد أرى سوى ظلامٌ دامس فور حضورهم فيتسلمون روحي مُتلذذين بتمزيقها، ارتفعت أصواتهم كنقرات أقدامٌ حديدية على أرضيةٍ خشبية في فضاء مكونةً صدى أشد وطأةً على روحي من حضورهم، هي طبول إعلان المعركة التي لم أربح فيها يومًا، رحايا تدور كل ليلة تتطاحنُ فيها

الشياطين وتتسابق على طحن روحي ولا تتوقف حتى تصير ذرات مُتفرقة تذروها رياح اليأس من النجاة، ارتفعت روائحهم الخبيثة تخترق أنفي، رائحة احتراق ألاف الأرواح بعد تحلُلها عفنً على أيديهم، اصطفوا في شكلً دائري على سقف غرفتي؛ جسدي مُمدد على الفراش في وضع الصلب، لا أتحكم في أي عضو منه حتى جفوني لا أتحكم في إغلاقها، أمسيت عاهرة الشيطان ولا حق ولا قدرة ليّ على ردعه، انفتحت عينُ الشيطان من منتصف دائرتهم، ارتفعت لها دقات قلبي وبدأت تظهر مخالبه تخرج من قعر الجحيم، كم تمنيت لو أصرخ حتى أوقظ أهل الأرض والسماء ليردعوه عني، تمنيت لو أصرُخ حتى ينقطع صوتي وتتمزق أحبال حنجرتي وينفجر قلبي فتكون الراحة في الموت من هذا العذاب الذي لا ينتهي، انفجرت الدموع من عيني تحرق وجنتي هبوطًا حتى شعرتُ أني أرقُد على بحرٍ من دموع الألم والقهر، خرجت يداه الشيطانيتين السوداوين بمخالبهما الطويلة وشعرهما الكثيف ولزوجتها الحمراء الدامية ورائحتهما العفنة، وجهه الأسود المظلم بظلام حضوره، أعيُنٌ تشتعل بلهيب حقد الجحيم، قرنان حلزونيان مدببان، أنفٌ وفمُ حيوانٌ لا أعلم كُنهه، أنيابٌ مدببة يخرج منها لسان حيةً مشقوق، إنهُ يدنٌ مني!، يبدو أنه قد انتشى حقًا ولم يعُد يكتفي بالمشاهدة، هبط فوقي يعتليني، لهُ جسدٌ كثيف

الشعر الأسود وقدمان كبيرتان للغاية، مسخٌ ذميم لهُ اذرع تكاد تلامس كفوف أقدامه، اقترب يشُم رائحتي فتساقط علي وجهي لُعابه الدامي اللزج وتحسس وجنتي اليُسرى بلسانه، لم أتأكد إن كان الذي يحرق وجنتي هو لهيب أنفاسه أم تحسُس لسانه، تحدث أخيرًا بلُغةٍ أفهمها وكانت نبرته تُشبه صرخات ألاف الأرواح المُمزقة في قسوةٍ وخشونة:

ـ الآن حان موعدنا، ولتتيقنِّ أن كُل ما مررتِ به لم يكُن سوى البداية فقط.

صرخ بكلماته في وجهي يقتلع بقايا روحي من جسدي المُتهالك؛ إن كان كل ما عانيتهُ معهم لم يكُن سوى البداية فما هي المهلكة التي سوف أمُر بها في ليلتي السوداء تلك؟! لم يكد ينتهي السؤال في ذهني حتى أظلم كُل شيئًا بعيني تمامًا واختفى الشيطانُ وخدمه!، لحظاتٍ وبدأت تعود ليَّ الرؤية من جديد، كُل ما أنظُر إليه أراهُ أحمر اللون تُقاربُ حمرته شفق الغروب أو لهيب النيران، سرت في جسدي قوةً جبارة لا أعلم من أين ليّ بها!، أردتُ الهرولة والهرب من الغرفة يُشجعني على الفرار تلك القوة ببدني ليخذلُني بعصيانهِ أمريّ!، عاد ليَّ الأسرُ من جديد بداخل جسدي، فتحتُ باب غرفتي بغيرُ إرادتي لأقفز تجاه السقف أتعلقُ كعنكبوتٍ ألتصق بسقفُ منزلي!، شدهتني قُدرتي

على السير فوق سقف المنزلِ يتدلى بدني لأسفل وتُمسك يدي وأقدامي بالسقف فكُنتُ أسير عليه كمن يزحف على يديه ورُكبتيه!،هبطتُ تجاه سقف الدورِ الأول أتدلى منه وموقعي أمام درج الدور الأول بأعلى سقفه، أخذتُ أميل برأسي أتكشفُ من يجلسُ تحتي فكان أبي يبدو عليه الحُزن وشقيقي أمامهم وأمُي تبكي وتعول فقديّ، صرختُ ضاحكة ضحكةً شيطانية لا أعلم مصدرها أهي حقًا تصدُرُ مني؟!، أحقًا أنا من يتدلى جسدها مُعلقًا بسقف منزلنا؟!، انتفض جمعهم بالأسفل فصرخت أُمي فزعة، اجتاح ملامحهم الرُعب فبدوا كمن يواجه الموت، قفزت من السقف وسقطتُ أرضًا واقفةً أمامهم!، بُسطت يدي كعصفورٌ من الجحيم يرقُص باليه على أصابع أقدامه ينتشي بلحنِ الشيطان وأنا أنشُد لهُم بصوتٍ لا أعلمُ مصدره قولي:

ـ أنا السيد عليها وعليكُم، فلا هرب لها ولا لكُم من بطشي.

أنهيتُ الكلمات وأنا أنظُر لهم، لا أعلم كيف كانت نظرتي أو هيئتي لهم، إلا أني على يقين أن ما كانوا ينظرونه جرعهم الفزع والرُعب يُمزق أمنهم ويُبدد طمأنينة أرواحهم من أثر ملامحهم، وجدتني أنظُر لأبي وأصرُخ فيه:

ـ ما بك؟!، ألم تكن تقول أن الشياطين خُرافات!، ها أنا سيدُها وسيدك فهل أنا خُرافة أم حقيقةً لك؟، سوف تتأكد

من حقيقتي بتلك الصفعة.

لم تكد تنتهي الكلمة حتى ارتفعت يدي بقوةٍ لتهوي على وجه أبي!، خر صريعًا ينزف من فمهِ دمٌ بعد سقوط أحد أسنانه، ألاف الصرخات الرافضة والغير مُتقبلة لما يحدُث تختنق بها حنجرتي أسيرةً لا تخرُج لتشُق صدري فتُعلن تبرُئي من فعل الشيطان، وجدتني أتجه بنظري لأمي التي سقطت أرضًا في فزع تحتوي أبي وتطمئن على ما أصابه، فكانت صرختي التالية لها:

ـ توقفي عن ادعاء القلق والحُب!، ألم تتمني مئات المرات لو أن لكِ قوةً لصفعه؟، توقفي عن الكذب فلا حاجة لكِ به معي.

صرخت أُمي فزعة وهي تنتحب بقوة:

ـ من أنت وما أتى بك إلينا ولمَ لا تبتعد عنا؟!..

تعالت ضحكاتي بشكلٍ مُخيف وأنا أستدير برأسي ناظرةً لشقيقي والفزع يغزو قسمات وجهه فخرجت كلماتي له مصحوبة بإشارةٍ من كف يدي ليُجيبها:

ـ تحلى بالشجاعة مرةً واحدة أيُها الضعيف وواجههم وأخبرهم الحقيقة، أصرُخ بوجههم واكشف حقيقة ظُلمهم لك وتدليلهم لشقيقتك على حسابك، أخبرهم أن قلبك كان

يتمزق مع كُل إهانة وسخريةً منهم، أخبرهم كم كرهتهم وتمنيت موتهم جميعًا، أخبرهم أنك من أحضرني إلى هُنا.

أنهيت الجملة واتجه نظري لأمي من جديد وتابعت الحديث وأنا أبسُط يدي عائدةً للرقص على ألحانُ الشيطان:

ـ على خلاف توقعاتكم فأنا لا أكذب مثلكم، ها قد كشفت لكم حقيقتكم جميعًا والحق أن هذا الشاب لم يُحضرني هُنا لكم ولكن لسببٌ آخر سوف أترك لهُ شجاعة إخباركم به إن استطاع، لكن لسوء طالعه وطالعكم أني شيطانٌ مريد.

أنهيت الجملة وأنا أُستنسخ في عشرات النُسخ مني، نسخة تتعلق بالسقف وأخرى تعتلي الدرج وأخرى بأخر الصالة تجاه الحمام وأخرى على باب غرفة أبي وأخرى على باب المطبخ، كُنت أنظُر من كُل اتجاه فهو دربٌ من الجنون أن ترى وتشعُر بكُل التفاصيل، لكُل من يتمنى الاضطلاع ومعرفة أدق التفاصيل فصدقًا هي مُهلكة لا تبحث عنها فقليلٌ من الجهل قد يكون نعمةً أنت لا تُدركها، فجأة صدرت الصرخات من جميع نُسخي بصوتٍ بشع:

ـ أنا ((ناصور)) ابن عزازيل عظيمُ عُظماء الجن، الآن ليس لكم إلا خيارٌ واحد للخلاص مني إما قتل ولدكم أو ابنتكم، يجب عليكم التضحية بأحدهم؛ ولكي يكون الأمر واضحٌ لكم سوف أزوركم كُل ليلة فأكسرُ للمُدللة عظمةً واحدة من إصبع

يدها حتى أُهشم كُل عظمةً بجسدها فتنتهي إن لم تتخذوا قراركم.

انحسرت جميع نُسخي فلم يبقى سوى تلك الواقفة أمامهم، شُدت زراعي اليُسرى تجاههم أمامي بدأ يصدُر صوت تقطيع اظفرُ خنصري عن جلده أمامهم تتمزق خلاياه وتنهمر الدماء مصحوبةً بصوت تمزيق لحمي وروحي، اهتزت رأسي طربًا من فرط الألم وأنا أتمزق بأسري داخل جسدي أصرُخ بكُل قوتي ولا يصدُر صوتي، تحدثتُ لهم من جديد قائلة:

ـ أنتم تتوقعون أنها لا تتألم!؛ لقد انتهيت منكم الليلة سوف أترككم مع صرخات ألمها لتُعجلوا قراركم ولو أني أعلم أنكم سوف تُضحون بولدكم فلن تقبلوا التضحية بابنتكم المُدللة وجميعُنا يعلم ذلك.

انتهت الكلمات فجأة كما عاد ليّ جسدي فجأة، كم الألم لا يُحتمل ولا تحتويه كلمات مهما كانت موجعة، صرخاتي وبكائي المكتومان بداخلي لم يحتويهما إلا سقوطي أرضًا وفقدي الوعي، لا أعلم كم كانت مُدة فقدي للوعي إلا أني على يقين أن تلك المُدة كانت صغيرة للغاية تكاد تكون مُنعدمة فكُنت أشاهد كُل ما يُحدث بدون إحساس لا ألم لا سعادة لا حُزن، خواء اجتاح روحي وجسدي، اندفعت أمي تجاه شقيقي تصفعه على وجهه بقوةٍ خائرة أنهكها الفزع

وهول ما شاهدته وهي تصرُخ فيه:

ـ ماذا فعلت بأختك وبنا، أي شيطانٌ تلبسك لتفتح علينا بوابات الجحيم.

صرخ أخي فيها بقوة ودموعه تنهمر من عينيه:

ـ متى اهتممتُم لأمري لتسألينني عما فعلت اليوم، إن ما يحدُث لزينب ولكم ما هو إلا ما قدمتهُ أيديكم؛ لا تتأخروا في قراركم فبالأساس أنا ميتٌ لكُم مُنذُ زمنٌ بعيد.

لحظات وبدأ الجنون، بدأت تخترق أُذني نغمةً أعرفها وصوتٌ أحفظهُ، هو صوت عم (بكر) مؤذن مسجد قريتنا، كان صوته فيما مضى يُبشر بقدوم السكينة أما الليلة فصوته بمكبر الصوت كان إعلان حربٌ مزقت روحي إربًا، انتصبت واقفة أصرُخ بجنون وفزع:

ـ أسكتوه.

عُدت أرى خدم ناصور من جديد، يعُج بهم منزلنا في كُل شبرٍ منه وجميع الشياطين تصرخ، قفزت بقوة أرتقي الدرج ولا يتوقف صراخي حتى وقفت على سور سطح منزلنا، أخذت تخرُج من فمي كلماتٍ لا أعلمها، غزا دُخانٌ اسود قريتنا فجأة مصدرهُ القبور خلف منزلنا، هاجت جميع الحيوانات بقريتنا، الجميع يصرُخ فزعً، استيقظ كُل من

بقريتنا، ليُشاهدني في عشرات النُسخ على سطح منزلنا وهو يشتعل، انفجر مُكبر صوت المسجد بعد أن وصل إليه الدُخان الأسود، هرول كُل أهل قريتنا تجاه منزلنا مذعورين من هول ما يُشاهدون، دقائق غزا فيها الخوف قريتنا فطمسها، فتحت بوابات الظلام مُعلنةً سيطرت أفتك الأبالسة والشياطين على قريتنا بحقدهم الأسود، انقطع صوت عم بكر وعاد إلى الألم من جديد، كُل عضوٌ بجسدي يصرُخ وجعًا في صمتِ الأخرس، قتلني الألم فلم أعود أشعُر بشيءٍ حتى صباح اليوم التالي؛ انفرجت جفوني ببطء تُعيد فتح أبواب الرؤية لعالمنا من جديد، كُنتُ أستلقي على فراش والدي بغرفته بينما يغفوان جالسين على كراسي حول فراشي يحتضن كُلٌ منهم مُصحفًا، جسدي يؤلمني بشدة تُعجزني عن الحركة، بيد ليّ أن أمي قد ربطت لي خنصري الأيسر جيدًا، هذا الدوار والصداع بالتأكيد نتيجة حقني بعقارٍ مُخدر فتلك تأثيراته وأعلمها جيدًا، صدر صوتي ضعيفًا يوقظهم، اندفعت أمي لجواري تمسح برقةٍ على وجنتي سائلة في قلقٍ وخوفٍ:

ـ كيف حالك يا حبيبتي هل هُنالك ما يؤلمك؟.

أجبتها بضعفٍ:

ـ كُلي يتمزق يا أمي روحي وجسدي، هل انتهى هذا الألم أم أن لهُ كرةً أخرى؟.

أنهيت سؤالي ولم أحصُل على إجابةٍ له، ضرعتني إلى صدرها وهي تبكي وتنتحب تُطالب أبي أن يجد حلاً ولا يجلس مُستسلمًا، أردتُ أن أُجيبها وما عساه أن يفعل وما عساكم جميعًا أن تفعلوا، لقد وقعتُ تحت براثن شيطانٌ لعين لا يرحم ولا يصفح ولا ينتشي إلا بوصول روحي لحلقي فيتوقف ليلتقط أنفاسه يمنعها الرحيل حتى تعود تلك الروح المُمزقة أسيرةً له فيُعاود اغتصابها بلا هوادة في شبقٍ ونهم، انتفض والدي من جلسته لا يعلم إلى أين أو ماذا يتوجب عليه ليفعله، لم يجد سوى عم (بكر) ليُحضره فسمع منه كُل ما حدث وكان رأيه أن الوحيد الذي يُمكنه إيجاد حلاً لنا هو خالي ومعشوقي (محمود)، طالما كانت تشدُهني حكاياته عن عالم الجن والشياطين التي علمها من شيخٍ على صلةٍ به، كان هذا الشيخ قد زار بلدتنا مُنذُ أعوامٌ طويلة مضت، لكن كيف لأبي أن يتحدثُ إليه بعد أخر الأزمات بينهم، أقسم أبي جهد أيمانه أنهُ لن يلتقي به أبدًا حتى أنهُ أوصى في حال وفاته ألا يحضر جنازته أو عزاءه!، يقترب الليل مُعلنًا بدء لعنتي ومُعاناتي من جديد، تلك الليلة أدخُلها بعد أن عاد إلى الأمل حينما علمت أن أبي تحدث إلى خالي (محمود) وطمأنه أنهُ سوف يتصرف ويصل قريبًا لبلدتنا طالبًا منهُ أن ينقل ليّ رسالةً واحدة هي الآية الكريمة « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »، حل الليل وحلت معهُ

لعنتي ومُصيبتي عادت رؤيتي لكُل ما تقع عيني عليه يتلون بالأحمر القاني، تلونت حياتي بلونِ الدماء ولم أعود أعلم متى أو كيف سوف تنتهي مأساتي، اندفعت لخارج الغرفة لأجد أبي وأمي بالخارجِ، صرختُ ضاحكة بخُبثٍ وشيطنة وتحدثت وأنا أقترب منهم:

ـ يا لكم من فشلة تُعلقون أمالكم على (إبراهيم) وهو خادمٌ عندي يأتمرُ بأمري، دعوني أعلمكُم سرًا، لقد مات مُنذُ بضعة أشهر وشقيقكِ لم يعلم إلا من أيام ولم يستطيع إخباركم أنهُ لا يملك لكم حلاً، ألم أُخبركم أني سيدكم، والآن بما أنكم لم تتخذوا قراركم فحان موعد العظمة الثانية.

انتهت الجمُلة وجُذبت يدي اليُسرى بقوة لتُبسط تجاههم، تمزقت الأربطة الطبية عن خنصري التي صنعتها أمي، سمعت ُ كما سمع كليهُما ورأى صوت تكسير العُقلة الثانية من خنصري، حُررت صرخاتي وحرر بدني، صرختُ كما لم أصرُخ يومًا حتى ملئت الأرض والسماء صُراخًا وأنا أرقُص كطير ذُبح وهو في نزعه الأخير، حتى فقدت وعيّ وأملي بكلمات هذا الشيطان الملعون، أيُعقل أن أظل قابعةً بداخل هذا السجن وتُغتصب روحي ويتمزق جسدي ألمٌ بهذا الشكل حتى أنتهي؟!، حتى حقي في الصُراخ من فرط الألم والوجع سُلب مني فأي جحيمٌ هذا الذي أحياه وأي ذنبٌ اقترفتهُ

ليكُن ذلك جزائي، استيقظت فجأة على وقع كلماتٍ لم أفهمها، عادت القوة الجبارة تُشعل جسدي بغضبٍ، انفرجت بوابات عيوني فكان شقيقي يقف أمام فراشي يُردد كلماتٍ لا أفهمها، أيُعقل أن يكون حقًا هو من فعل بي ذلك؟!، تعالت ضحكاتي بغرابة وأنا أُستنسخ لعشرات النُسخ واقفةً أمامه، أجابهُ هذا الشيطان على لساني ساخرًا:

ـ أيُها الأبله أتستنجد مني بخادمي!، شِرارّ خادمي وعبدي ويأتمر بأمري، محاولةً جيدة طالما أنك أحضرتني يجب أن تتذوق الألم فيبدو أنك تشتاق إليه.

اندفعتُ تجاهه أقبضُ على عُنقه بيدي وهو يصرُخ ليندفع والدينا محاولين تخليصهُ من قبضتي، أمسكت بيُسراه فكسرت ساعده وأنا أصرُخ فيه بقوة:

ـ هذا لتتذكر ألا تحاول العبث مع ((ناصور)) وثمن محاولتك البائسة لتخليص شقيقتك.

انتهيت منه وأنا أدفعهُ للسقوط بعيدًا بأخر الغرفة، فخرجت منه آخر كلماته وهو يتأوه ألمًا:

ـ هذا الضوء في نهاية الطريق هو الذي ألهمني القتال والصبر في ظُلماته!؛ لم يكُن سوى ضوء نيران الجحيم تُزكيه أخبث شياطينها! الويل لي.

بيد ليّ أن هذا الشيطان لم يكتف بما فعل في تلك الليلة، وجدتني أقفز لأندفع في صعودي إلى سطح منزلنا وعاود استدعاء شياطينه وأبالسته، رأيتهم بأشكالهم البشعة وأرواحهم الشريرة يصطفون كجيشٌ ملعون أمام منزلنا يتلقون أوامره، ليبدأ الجنون بقريتنا، جميع حيوانات القرية تصرُخ تحاول الفرار من المنازل، أهل قريتنا يهرولون خلف حيواناتهم، حرائق تشتعل فجأة فما أن يندفع الناس لإخمادها حتى تنطفئ فتشتعل بمكانٍ أخر، هي ليلة من الجحيم ذاق مرارتها جميع أهل قريتنا، بدأ يقترب الصباح ليُعلن الهدنة من تلك الحرب الملعونة التي لا قبل لنا بها، ولكن من عساه يواجه هذا الشر في الليلة القادمة ومن لهُ قوةٌ ليوقف هذا الجنون، وإن في صدري ألاف الصرخات سجينةٌ تُعيق حُريتها قيود كابوس الواقع!، فصرتُ أحلُم بحُريةٍ لا مكان لها إلا بأحلامي فكانت جريمتي الوحيدة هي الحُلم!، أصاب نصلُ اليأس روحي وقص أجنحتي ممزقًا أطرافي فصار التحليق والهرولة هربٌ من الجحيم حُلمٌ ينتزعني منهُ كابوس الواقع هذا آخر ما أذكُره من الليلة قبل نومي حتى انتزعني منهُ حلول الليلة الثالثة مُنذُ حضوره.....

(١٤)

نذرُ الشيطان

حل المعقود

تحركنا عدة أمتار بالشارع الذي تركنا سيارتي ببدايته، حتى توقفنا أمام أحد المنازل ليدلف (عصام) إلى داخل المنزل وأنا خلفه، طرق الباب بهدوء ليفتح لنا شابٌ علمت بعد قليل أنهُ (درويش) الذي بدا من ملابسه كمن يتأهب للرحيل، استقبلنا بترحيبٍ كبير وأدخلنا إلى غرفة (بركة)، شدهتني هيئته والنور الذي يُشع من وجهه، كان يقرأ القرآن من مُصحفًا كبير على حاملٍ حديدي أمامه، أشار لنا بالجلوس ولم يرفع عينيه عن المصحف، جلسنا ولم تمُر لحظات حتى خلع نظارته ونظر لعصام وأردف باسمًا:

ـ مبارك عليك وظيفتك الجديدة، لقد أخبرتك أنك ستأتي ولكنِ لم أُخبرك أننا سنرحل معك.

أنهى جملته ووجه نظره وحديثه إليّ:

ـ كيف حالك يا (محمود) كُنت أتوقع أن يكون لقاءنا قبل هذا اليوم لكنهُ ترتيب القدير فلا يتحرك شيئًا بمُلكه ولا يخطو إنسان خطوةً إلا بأمرّه، فلا تتعجل.

أصابت كلماته روحي فأجبته بنبرةٍ كساها الحُزن واختلط بها الدمع:

ـ كُنت أتمنى رؤيتك يا سيدنا مع شيخي (إبراهيم) أسأل الله أن تكون أنت مُرشده ومُخلصه؛ ليكون خلاص عائلتي من مأساتها على يديك.

أومأ برأسه إيجابًا وأردف في قوة:

ـ أنا هو يا ولدي وأما الخلاص من الشر فهو بأمرِ الله لا بأمرّي وقد صدر أمرهُ، أنا أنتظركم منذ الصباح وكما تشاهدون فنحنُ جاهزون للتحرك فلا داعي للتأخُرِ، رحلتنا طويلة وقطار اليأس لا يرحم من يعترضه ولا يتوقف عن طحن الأرواح مهما كانت بريئة!.

أنهى كلماته التي أصابتني بالعجز عن التفكير والحديث مُنتصبًا يطلُب منا المغادرة وهو معنا وانضم لنا ولده (درويش) في رحلتنا، كان (بركة) يتكئ بخفة على عصا لها رأسُ حية بيُمناه ويتكئ بيُسراه على ذراع ولده، حتى وصلنا إلى السيارة فاتجهت إلى باب القيادة لأقود الرحلة، تحركنا بالسيارة فكان بركة إلى جواري ومن خلفه ولده لجواره (عصام) الذي التزم الصمت ُ تمامًا مُنذُ التقينا ب(بركة)، تحركنا بالسيارةِ وكُنتُ أُسرع في قيادتي أملاً في الوصول

لبلدتنا قبل المساء فالطريق ليس طويلاً إنما كانت تُلهب عقلي أخبثُ الأفكار عن ضياع شقيقتي وزوجها وأبنائهم وهو ما لم يقبلهُ عقلي مُطلقًا، حتى نظر لي (بركة) وأردف باسمًا:

ـ هل تعلم قصة نبيّ الله نوح؟

بدأت أُهدأ من سرعة السيارة وأجبته بثبات:

ـ بالتأكيد أعلمها جيدًا.

ـ ماذا تعرف عنها؟

ـ أنهُ دعا قومه للإيمان بالله فرفضوا فدعا عليهم فأهلكهم الله بالطوفان وأنجى نوح ومن أمن معه بالسفينة.

ابتسم وأردف:

ـ اختصرت ألف عامٌ إلا قليل في سطرٍ واحد لا يحوي إلا الهلاك، ولم تتفهم أن هذا الهلاك أتى بعد ما يُقارب الألف عام من المُحاولة لإقناعهم بالذات الإلهية العُليا وهي واضحةً وقطعية الثبوت والدلالة!.

شدهتني كلماته وطريقته، أجبته بلهجةٍ مُضطربة:

ـ يا إمام لم افهم سؤالك فأجبتُ مُتعجلاً حتى لا تظن أني أجهلُ الأمر.

أومأ برأسه رفضًا وأردف في حُزن:

ـ إن الجهل بأمرٍ لن يُنقص قدرك إنما ما يحُط منك هو ادعاء المعرفة بكُل شيء؛ قف عند أول قرية تُقابلك يمينًا وصف سيارتك لجوار مسجدها فلا أُحب أن أتأخر عن موعد وصلي بمعشوقِ.

ألهبت نفسي وصدري كلماته، فهل حقًا أنا أدعي المعرفة؟!، لما يقسو عليّ لهذا الحد فالله وحده يعلم أني لا أدعي علمٌ لا أملكه أو معرفةً ليست عندي وأني أتواضع مع الجميع حتى لا أكون من المُتكبرين والفضل بعد الله في الأمر للشيخ إبراهيم في تعليمي هذا المنهج، فلما القسوة إذًا وما السبب لذلك؟!، تفهمت أنهُ يُريد اللحاق بصلاة الظُهر فالأذان يوشك أن يُطلق، دلفتُ بالسيارة داخل القرية فهي بالطريق الزراعي لمحافظتنا ووجهتنا، قُمت بصف السيارة قبل المسجد بمسافة قصيرة، هبطنا جميعًا من السيارة ليسبق بركة جمعُنا تجاه المسجد، ما أن وصل لجدار المسجد حتى سحب عصاه وهشم (أزيار) الماء الثلاثة المُصطفة لجوار المسجد، تلك القدر الفخارية الكبيرة نستخدمها كثيرًا في القرى المصرية لحفظ ماء الشُرب للمارة، وجه نظره وحديثه الحازم لولده قائلاً:

ـ احضر ليّ تلك الغرابيلُ واتبعني.

أنهى كلماته وهو يُتجه بخطواته تجاه باب المسجد، صعقني هرولة رجُلٌ من داخل المسجد يُسرع تجاه بركة الواقف أمام باب المسجد من الخارج، ما أن وصل إليه الرجُل حتى انحنى يُحاول تقبيل يده في تأدُبٍ بالغ وهو يقول:

ـ أضئت مسجدنا وقريتنا بنورك يا سيدنا.

سحب بركة يده يمنع الرجُل تقبيلها وأردف في غضبٍ وهو يُشير بعصاه تجاه الأزيار المهشمة:

ـ من بدل تلك الأزيار لكم ومن سمح بوضعها بغرابيلِ الشيطان تلك أسفلها، أليس منكُم رجُلٌ رشيد؟!.

بدت ملامحُ الرجُل كمن يُحاسب من ملك الموت فخرجت كلماته بنبرةٍ ملئها الخوف:

ـ أتت امرأةً يا سيدنا مُنذُ شهرًا وأخبرتنا أنها نذرت للمسجد الأزيار الثلاث المُزينة بغرابيلِها المُطرزة بتلك الخيوط الحريرية بألوانها المُختلفة، فمن عساه يرفُض نذرٌ لله!.

وكزهُ بركة بعصاه في صدره تجاه قلبه وأردف بغضبٍ عارم:

ـ ألم يُنبئك قلبُك الميت هذا بأن هذا ما هو إلا نذرٌ للشيطان، ألم يقشعر بدنك والسحر معقود بغرابيلِ أزيار ماء

موقع الكتب العراقية

المسجد!، كم شابٌ في بلدتكم أتى إليك يستجير بك من فعل الشيطان، ألم يربط عقلك هذا بين تلك الأزيار وبداية شكوى أهل القرية!.

صرخ الرجُل باكيًا:

ـ استغفروا الله العظيم، أُقسم لك يا سيدنا لم أفهم أو أشعر بأي شيء، فلو شككت بالأمر للحظة لما قبلُت ولو الثمن عُنقي.

ربت على كتفه برفق وأردف بحنين:

ـ هون على نفسك يا ابن عبد الله، اذهب واجمع كُل من اشتكى إليك (ربطه) واحضرهُ إلى لنُصلي الظهر سويًا.

هرول الرجُل إلى داخل القرية فغاب بين مبانيها القليلة وحقولها الواسعة، استدار لنا (بركة) موجهًا حديثهُ إلى (درويش):

ـ حل المعقود يا ولدي ريثما أؤذن للظهر، أسرع حتى تلحق بالصلاةِ.

أنهى جُملته ودلف إلى داخل المسجد فيما بقينا أنا و(عصام) نراقب (درويش) وهو يُفكك عُقد الحبال الحريرية بألوانها الزاهية والمختلفة، كانت الغرابيلُ الثلاثة تكتسي

تمامًا بالخيوط في كُل خيطًا سبعة عُقدا، متى ينتهي منهم وصوت (بركة) يشُق الفضاء حاملاً أذان الظُهر بصوتهُ الرقراق بكلمات الأذان، (الربط) هو أحد أخبث أنواع السحر وأكثرها انتشارًا بالقُرى المصرية في قّبليها وبحريها على حدٍ سواء، يقوم السحر بمنع أي علاقة جنسية بين المرء وزوجه في خُبثٍ ودناءة، كثيرًا ما سمعتُ عنه لكن تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها بعيني هذا السحر، انهمك (درويش) في تفكيك العُقد، نظرتُ إلى (عصام) الذي بدا ليّ غريبًا للغاية، صامتٌ لا يسأل كأنما يعلم تفاصيل الأمر، لم يكُن من الأمرُ مهربٌ لدي لإنهاء شغفي للمعرفة، فتحدثتُ إلى درويش قائلاً:

ـ هل نُساعدك في فك العُقد حتى نلحق بالصلاة.

رفع جبهته إلى وأردف ويديه لا تتوقف عن فك العُقد:

ـ لك الشُكر فلا أحتاج لمُساعدةٍ وأما الصلاة فسوف نلحقها لا تقلق.

ألقى جُملته وعاد ينظُر لما بين يديه، اجتاحتني خيبة الأمل فلم أفهم شيئًا، لم يدُم إحساسي سوى لحظات حتى خرجت كلمات درويش وهو يُتابع عمله:

ـ أعلمُ أنك تحتاج للفهم لذلك سأجيبك، سحر الربطُ هذا لا ينشط ويقوى إلا باستمرار بلل أحباله السبع بألوانها وعُقدها،

فجاء خُبث الساحر من براءة المسحور، وضعت الأزيار لجوار المسجد لضمان استمرار الماء فيهم وبالتالي استمرار بلل العُقد، طالما تلك العُقد مُبللة على حالها والعُقد معقودة يبقى المربوط مربوطًا!، ولا شك أن كثيرًا من المعقودين بتلك العُقد قاموا بوضع الماء في تلك الأزيار طلبًا في ثواب الله؛ الآن تفهمت إلى أي مدى يصل حقدُ الساحر وخُبث السحر والشياطين؟!.

صعقني هول كلماته وما يصفه، هل ممكن أن يصل الإنسان من الحقد والخُبث إلى هذا الحد؟!، أن يعقد سحرًا لجوار مسجد ليكُن تنشيطه بمحاولة الناس التقرُب إلى الله؟!، أي خُبثٍ هذا وأي شيطانٌ ماكر لبر لهذا الأمر، لم تمُر لحظات حتى نهض (درويش) وقد فكك كامل العُقد والخيوط من الغرابيلُ الثلاثة، نظر إلينا وأردف:

ـ أحتاج إلى عود ثقاب إذا أمكن.

بسط عصام يده بالكبريت له، قبس من الأرض قبسٌ من تُراب غبر به الحبال وأشعل بها النيران وهو يُلقيها حبلٌ تلو الآخر ويُردد:

ـ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يُصلح عمل المُفسدين.

موقع الكتب مجانية

أنهى الأمر وأشار لنا اللحاق ببركة داخل المسجد، اندفعنا للوضوء بينما بقي (بركة) وحده لجوار القبلة، ما أن انتهينا من الوضوء وخرجنا حتى كان المسجد يزدحم بالبشر!، رفع الرجُل الذي تحدث إليه بركة بأول الأمر الإقامة وتقهقر للخلف، أشار بركة لدرويش بالتقدُم للإمامة، أجابه (درويش) في ذهولٍ وتأدب بالغ وهو يُشير إليه بكلتا يديه يُقدمه قائلاً:

ـ لا أؤمهم وبهم إمامي.

أجابهُ بابتسامة وتقدم إلى الإمامة فكانت صلاته خفيفةً شعُرت برقتها وخفتها على روحي حتى أني أصابني حُزنً بانتهائها، ألقى السلام وجلس يواجه المُصلين وأردف في نبرةٍ قوية:

ـ الابتلاء هو اختبار من الله للنفوس المؤمنة لتنتبه لمعاصيها فتتوب عنها فينالها مغفرةٌ من الله ورفعٌ لبلائه، أصابكم اليأس بيُعدكم عن مسجدكم هذا فانشغلتم بالتنقيب عن الأموات أسفلكم فأنهضتم جشع قلوبكم ليُعميّ أبصاركم أن الله أنعم عليكم برزقكم في حرثكم ونسلكم، فسُلط عليكم السحر يُصيب كرامتكم وذكورتكم فما فعلتم؟!، هل هرعتم إلى الله تتبرأون من ذنوبكم أم هرولتم للتفتيش عن كُل ساحرٌ عليم كفرعون موسى!؛ اتقوا الله فلا رزق لكم من لحم الأموات، اسعوا في الأرض مُعمرين لا باحثين عن

قبرٍ تنهشون عظامه بحثًا عن ذهبٍ أو فضة، فالأرض لكم أصلحوها فليرحل جمعكم إلى الله فهي خير رحلة تبلغونها وخير نهايةٍ ترجونها.

أنهى كلماته ونهض ليقودنا للرحيل، اندفع إليه الجميع يُسلم عليه ويقبل يده وهو يُبشرهم بانتهاء الأمر، حتى وصل إليه إمام المسجد الذي أحضر جميع أهل القرية، وقف أمامه مذهولاً وأردف في حُب:

ـ وإن أقسمتُ لك أني رأيتك نورًا حتى أني هرولت أجمع الناس وأنا على يقين أني لن أجدك حينما أعود فهل تُصدقني؟!.

ابتسم إليه وربت على كتفه وأردف في حنين:

ـ أُصدقك فحامل القرآن لا يجوز لهُ أن يكذب، وأعلم أنك لا تعرفني وأعلمُ أني قسوت عليك ولكنها قسوة الأب لولده الذي حط من قدر نفسه؛ أنت يا ولدي حاملُ للقرآن فلا يجوز أن يضيع أهل قريتك وأنت بينهم، فأن اتخذت القرآن دستور كان الله لكَ قاضيًا وأصبحت ملائكتهُ وجميع خلقه لك درعٌ وسيف.

كان الأمرُ مُذهلاً للجميع فبرغم ما أدهش الأمر أهل القرية وإمام مسجدهم لم يكُن ذلك أكثر إذهالاً ليّ مما حدث

دومة الكتب عراقية

بعد رحيلنا من القرية، ما أن خرجنا من المسجد وتحركنا بالسيارة حتى نظر ليّ وأردف:

ـ الآن سوف ترى نبي الله (نوح).

انفتحت عيوني على اتساعها وأنا أسألهُ مشدوهًا:

ـ نبي الله نوح!، كيف ستجعلُني أراه.

استدار برأسه للخلف ناظرًا إلى (درويش) وأردف:

ـ أسمعنا صوتك فجميعُنا نحتاج إلى خشوعك يا ولدي، أرح نفوسنا وقلوبنا بسورة (نوح)، إن قائد رحلتنا لم يره ولتُزيد علينا بمُناجاةِ معشوقنا بعدها فكم تشتاق نفسي وروحي لكلماتك.

لم أتفهم كلمات بركة ولا ما ترمي إليه فكيف لتلاوةِ سورة نوح أن تجعلني أراه فلقد سمعتها وقرأتها مئات المرات؟!، كان هذا ظني ومُعتقدي حتى غرد البُلبلُ الصداح تُرسم شفاه سورة نوح رسمًا، أجهشت كما أجهش الجميع بالبُكاءِ من أولى الآيات شعرتُ بخيفة عذاب الله، رأيت أجل الله يحوم فوق رأسي وأمام عيني فانهمرت دموعي خيفة سؤاله ليّ ما قدمت إلى بعد كُل تلك النعم التي أنعمتُ عليك بها!، إن أتى أجل الله لن يمنعهُ مالي ولا ولدي ولا زوجي فأين المنجى منهُ إلا إليه وحده، لأول مرة بحياتي أُشاهد نبي الله نوح

حقًا وهو يشكو إلى ربه بعدما أنهكتهُ الدعوة طوال ألف عامٍ إلا قليل!، أكان يشكو إلى الله أهله أم يُصارحهُ بما في نفسه بعد فشل محاولاته ليلاً ونهارَ لدفع أهله إلى الإيمان، فلم تُزيدهم دعوته ومحاولاته إلا بُعداً وإجحافًا بحق الله!، مزق روحي كفرهم كما كانت روحه تتمزق من ضلالهم، شعُرت بصرخاته لهم وهو يُقدم أدلة الإيمان الجلية ونعم الله البهية وهم يُجحفون!، تمزق قلبي معه حينما اقر لله بعصيانهم له وتسليمه أنهم لن يؤمنوا؛ اهتز بدني وروحي وكُل أركان الكون بعيني لدعوته بتدمير ديارهم بعد تمسكهم بعبادة الأصنام فكانت دعوته عليهم، ثم عاد الأمل والنور من جديد بدعوته للمؤمنين والمؤمنات فسألتُ الله سرًا وجهرًا أن أكون منهم، استرقتُ النظر من المرآة لأرى وأرتوي من نهر الخشوع الجاري على لسان البُلبُلِ الخاشع خلفي، زاد تعُلقي به ودهشتي من حاله!، كان مُغمض العينين يُشير بيده كأنما يرى المشاهد بالآيات ويُمثل حركاتها تمامًا، أنهى القراءة فصمت للحظات دون أن تنفرج عينيه، فما مرت الثواني حتى عاد إلى الشدو مُناجيًا قائلاً:

ليّ قلبٌ ثابتَ في عِشّقكَّ ثباتُ الجبال الرواسيّ، وليّ يقينٌ فيكَّ لا تُزعزعهُ الرياح العاتية

فلا أخشى في الدُنيا إلا شرُد مركبي عن عِشّقكَّ، فيتقلبُ

قلبِ مُنشغلاً فيكون عقابيّ هجرُكَّ

فكم من سُفنّ أضاعت وجهاتُها فضاعت في بحورِكَّ، وكم من قلوبٍ زهِدت معشوقيها ولا ثباتُ إلا بعشقكَّ

وإن ليّ قلبٌ يتمزقَ خوفًا وقلقًا في بُعادكَّ، فلا يطمئن وتسكُنُ دقاتهُ إلا بذكركَّ

أنا الراهبُ الناسكُ في محراب عِشّقكَّ، أنا العاكفُ على أبوابكَّ راجيًا وصلِكَّ

أنا الواصلُ ليلي بنهاريّ في ذِكركَّ، أنا الباحث في ملكوتِكَ عن وجهكَّ

أنا المخلوق من طينُ فيحنُ إلى الثُراب، أنا من يشتهي لُقياك سائلاً حُسن المآب

انتبه فالحياة الدُنيا ما هي إلا اضطرابٌ وسراب، تلك هي الحقيقة ولا يُدركها إلا أولي الألباب

من ليّ غيرك وأنت وحدِكَّ مالكِ الظلام والنور؟، ولو لم تُدرككَّ الأبصار لأدرككَّ الفؤاد في حُزنّ وسرور

وكيف لا أرى وجهكَّ في هدوء ليلٍ ونور قمرٍّ، وكيف لا أُدركَّ وجودك في بزوغ شمسِ كُل فجرٍّ

وحدك تملكُ النهارُ والليلِ، وحدك ربي مالكِ أمري وقدرِ

لم أشعُر بنفسي وأنا أصرُخ مُرددًا لفظ الجلالة، أصاب جمال كلماته وإحساسهُ روحي فجعلني أُحلق معه بالسماء، قاطع حالتي تلك صوت (بركة) قائلاً:

ـ ألفُ عامٍ قضاها نوح في دعوة أهله بلا يأس ولا كلل أو ملل، اللهم ارزقنا إخلاص نوح وحبه لأهله، فكم ضيعنا من أهل وأحباب بعلة الملل أو اليأس.

ساد الصمتُ فشرد كُلٌ منا في أفكاره، وقعت جُملته بنفسي فوجدت صداها بروحي، الآن تفهمت سبب قسوته عليّ بكلماته، لقد أصاب كبد الحقيقة، فأنا من ضيع شقيقتي بإهمالي زوجها وهو ابن عمي وأحق بإخلاصي في حبه، لو أني لم أيأس منه لما وصل أبنائه إلى هذا الحد، لو أني احتويته وجاهدت في حمايته من تسرعه لما انفضت شراكتنا التي أسسها آبائنا مُنذ القدم، نُزايد على الصالحين في التقوى قولاً وأما فعلُنا فهو أقرب ما يكون للعاصين المُتبجحين؛ بدأت تلوح بداية قريتنا أمام عيني، هدأت سرعة السيارة دالفًا بها إلى داخل القرية، صففتُ السيارة بساحة قريتنا لجوار المسجد، هبط الجميع من السيارة ووقف بركة صامتًا ينظُر تجاه الدوار ويمسح القرية بعينيه، لحظات وتحرك تجاه باب المسجد، أردتُ إعلامه أن المسجد قد يكون مُغلقًا فيُمهلني دقائق أذهب لمنزل (بكر) وأُحضر

المفتاح ليقطع عليّ الفكرة والجملة فتحهُ الباب ودخوله المسجد فتبعناه جميعًا، اتجه إلى القبلة يوجه نظره إلى الميكروفون وكان مفصولاً عن الكهرباء، بدا لنا أنهُ لم يُستعمل مُنذُ أيام، قام بإيصاله بالكهرباء واعتدل في وجهته تجاه القبلة رافعً أذان العصر، كُنتُ أظنُ أنهُ استبق موعد الأذان قليلاً فخاب ظني بوصول (بكر) يستقبلني بالأحضان في صمت تقديسًا لصوت الأذان، ما أن انتهى (بركة) من الأذان حتى رفع بكر صوته مُرحبًا:

ـ أحمد الله على وصولكم بالوقتِ المُناسب، فإننا نعيش بالجحيم مُنذُ أيام حتى مكبر الصوت هذا كان قد تعطل ولا أعلم كيف قام سيدنا بتشغيله، سوف أسرُد عليكم كُل ما حدث.

قاطعه (بركة) بقوة:

ـ الأمرُ لله من قبل ومن بعد ولا حاجة لسماع القصة فأعلمها عن ظهر قلب ولا نملكُ وقتًا لنُضيعه أما الآن سوف تُسرع مع ولدي فتُحضر معه بعض الأشياء من أقرب (عطار) لديكم.

أومأ برأسه إيجاباً، رحلتُ مع (درويش) وبكر خارج القرية فأقرب متجر(عطارة) لنا يبعُد قليلاً عن قريتنا، كانت المُشتريات بسيطةً للغاية، ملح وماء ورد وبعض الأعشاب

المعرفة بقُدرتها على طرد الشياطين، انتهينا من المُشتريات سريعًا وعُدنا إلى المسجد الذي امتلئ بأهل قريتنا جميعًا بلا استثناء، حتى (عمران) ذاته كان بالمسجدِ، الجميع ينتظر قيامة الإمام لدعوتهم للصلاة من جلسته مُستقبلاً القبلة، لم يجرؤ أحدًا الاقتراب منهُ أو من (عصام) الجالس خلفه كأن على رأسه الطير، اجتزنا الجميع وتقدمنا (درويش) الذي انحنى على أُذن والده هامسًا وسرعان ما أتتهُ الإجابة همسًا فأسرع لمُكبر الصوت يُعلن إقامة الصلاة التي أمنا فيها (بركة) فأيُّ حظٌ سعيد ليّ اليوم لأُرزق بالصلاة خلف (بركة) مرتين بيومٍ واحد، انتهت الصلاة ليعكُف (بركة) بعد انضمام ولده إليه على تجهيز الأشياء التي اشتريناها يخلطُها ببعض المكونات التي أخرجها (درويش) من حقيبته دون أن يلتفت أحدهم لمن خلفه من أهل القرية، نهض (عمران) وجلس لجواري ولم يحتاج لأن يُعبر بالكلمات فكانت الدموع بعينيه كافيةً لأن تصلني منها آلاف الصرخات آلمًا، ربتُ على يده برفق أطمئنه مُدعيًا ثباتٌ لا أملُكه فحتى تلك اللحظة وبرُغم ثقتي المُطلقة في (بركة) فلا علم ليّ كيف سيواجه هذا الشر المُطلق في غضبٍ على زوج شقيقتي وأبنائه مُدمراً القرية بأكملها!، لم أكُن أتخيل مقدار بطش وقوة هذا الشر حتى كشف لي (بكر) الكثير من ما أصاب الجميع منه في لحظات انشغال (درويش) بشراء الأدوات من العطارِ، أصاب وصف

بكر روحي فتوجست نفسي خيفة فشل بركة أو انكساره!، قطع أفكاري إشارة (درويش) إلى فاندفعتُ تجاهه، أشار ليّ (بركة) بالجلوس أرضًا لجواره فما أن جلست حتى تحدث لي هامسًا:

ـ الآن أُريد منك أن تصحب درويش في رحلة تدورون فيها القرية بأكمله بشكلٍ دائري لتحصينها، فليكُن معك في تلك الرحلة ابن عمك وأصرف أهل القرية على أن يعودون مع أذان المغرب فلن يبدأ حضوره الليلة إلا بعد العشاء، اطمئن فإن هذا ليس اللقاء الأول لي مع (ناصور) فكلانا يعلمُ الآخر حق المعرفة؛ الآن فلتُسرع في تنفيذ المطلوب فعدونا الحقيقي الوقت.

تلقيت أمره وتحركت للتنفيذ، طالبتُ من بكر صرف أهل القرية وإخبار شقيقتي بوصولي وتجهيز الغداء وإرساله إلى المسجد فكُنت أعلم أن بركة لن يُغادر المسجد تحت أي ظرف قبل صلاة العشاء؛ انطلقت بصُحبة (درويش) وعمران نطوف حول منازل قريتنا عبر الزراعات والطُرق، كان الغريب أن (درويش) هو من كان يقودنا ومن المفترض أننا أصحاب القرية لكن خطواته بدت لنا من خلفه كأنهُ يحفظ الأرض هُنا عن ظهر قلب!، أكثر ما شدهني وزرع الخوف والتشتُتَ في صدري وعقلي هو سرد عمران للوضع المأسوي بداره وأما

التشتْت نجم من أمرين أولهم هو ذكر بركة ليّ اسم (ناصور) قبل خروجي من المسجد مُنذُ لحظات لأكتشف من عمران أن الشيطان الذي دمر حياتهم هو بذاته ناصور! بل والأغرب هو سرد عمران لذكر (ناصور) على لسان زينب للشيخ إبراهيم وإعلامهم بوفاته وانهُ خادمه!، قادني التفكير إلى سؤالٍ واحد هو؛ هل هذا الشيطان الذي تلبس ابنة شقيقتي هو ذاته الشيطان الذي كان يخدُمه الشيخ إبراهيم قبل توبته والذي منعهُ بركة عنهُ مُنذُ زمنٍ طويل؟!، لم أكد أُنهي السؤال بعقلي حتى أفرغ (درويش) آخر قطرات الزجاجة الأخيرة عند نفس النُقطة التي انطلقنا منها في رحلتنا الدائرية لجوار المسجد، استدار لنا يواجهنا في قوة وأردف وهو يُشير إلى المسجد:

ـ لا تتعجل في أسئلتك فكم من الأسئلة قادت أربابُها إلى هلاكهم، لا تسمح للعجلة والملل أن تُصيب روحك، الحقيقة التي تبحث عنها هُناك اذهب واسألهُ عنها ولسوف يُجيبك.

أصابتني كلماته بالفزع والتخوف أكثر، هل كان يقرأ هذا الشاب أفكاري؟!، إن كان الابن على تلك القوة فكيف حال الأب؟!، اتجهت إلى المسجد بصُحبة عمران الصامت يتقدمنا الشاب الغاضب!، كان الطعام قد وصل وكان بركة ينتظرنا هو وعصام، فأشار لنا بالجلوس والطعام معه، كان طعامهُ

لهُ العجب حقًا، هو وولده أكاد أجزم أنهم لا يأكُلون!، ما هي سوى لُقيمات قليلة وانفضوا عن الطعام، توضأ كُلاً منهم وانعزل بزاويةٍ من المسجد يُصلي بلا انقطاع حتى أذن بكر لصلاة المغرب، قادنا في تلك الصلاة وصلاة العشاء أيضاً درويش في خشوعٍ كبير، ما أن انتهت الصلاة حتى تحرك (بركة) للمنبرِ ورفع صوته لأهل القرية:

ـ فليلزم جميعكم داره تلك الليلة ولا يتوقف أحدكم عن قراءة سورتي (يس والواقعة) مهما حدث حتى الفجر، إن اشتعلت منازلكم ورأيتم الشيطان ذاته أمامكم فلا تُصدقوا، فإنهم كاذبون ويخدعونكم بسحرهم، وما هُم بضارين به من أحد إلا بإذن الله؛ فلا تخافوا إلا الله ولنا لقاء هُنا في بيت الله مع صلاة الفجر.

أنهى كلماته وتحرك يُغادر المسجد فتبعناه كان يتقدمنا بخُطواتٍ ثابتة تجاه المنزل يليه (درويش) وعصام، أليهم أنا وعمران، كانت حركته تُشبه ولده كأنما يحفظون القرية ومنازلنا أكثر منا!؛ توقف أمام الباب الحجري الخارجي لحديقة منزل (عمران) فتوقفنا نتجمع حوله، نظر لنا ونحن خلفه ثُم اتجه بنظره لحديقة المنزل ورفع صوته ويديه قائلاً:

ـ توكلت على الحيّ الذي لا يموت وأنتَ وحدك درعي وسيفي بإيماني وعشقي لك أحيَّ وعليهم أسألك بعظمةِ

اسمك أن تُثبتني حتى أموت.

ألقى كلماته وتحرك ونحنُ خلفه تجاه المنزل.....

(١٥)

أبو يوسف المؤمن

يقين أيوب

اقتلع روحي من بدني المُنهك هذا الفزع الجنوني الذي ضربهم!، الجميع يصرُخ ويهرول للخلف هربًا على وقعِ صوتٍ يهتف بكلماتٍ قوية ومفزعة لكنِ لم أفهمها قط، كانت كلمات هذا الصوت عميقةً وغريبة لكنها كانت مُفزعة لتلك الشياطين بشكلٍ لا يوصف، هممتُ برأسي أجاهد كشف ما يحدُث حولي وفك طلاسم تلك الصرخات وفزع تلك الشياطين بهذا الشكل، الجميع يفرُ فزعًا ينكبُ على وجهه وكأن الموت يتخطفهم، أي شيطانٌ مريد قد حضر ليفزعوا منه بهذا الشكل؟!، الجُدران أمامي وعن يميني ويساري كأنها نورٌ لا يشُبهُ غبار!، استدرت للخلف فكان الجدار خلفي كأنهُ بوابة للجحيم، الجميع يفرُ فزعًا للنار واللهب والظلام الدامس!، تلك الشياطين التي طالما رقصت على جسدي تنتزع أمان روحي حييتُ للحظة التي أرى فيها رقصات فزعهم وفرارهم!، ما الذي يحدُث وأين كَبيرهم؟!، ولما يفرُ جميعهم بهذا الشكل العجيب؟!، لم تمُر عليّ لحظات حتى بدأت أسمع خواره البشع يشُق ظلام بوابة الجحيم خلفي

وهو يجأر في غضبٍ عارم ويندفع تجاهي فأعاد علي أوجاع الفزع وحسرات الخيبة مُجددًا، كانت عودته تلك المرة غريبةً فهي المرة الأولى مُنذُ عرفته أشعُر بغضبهِ وثورته عليّ!، لم أتشكك لحظةً في بُغضهِ لي ولكامل البشر ولكن تلك هي المرة الأولى التي أراهُ فيها غاضبًا، بطش بي مُنذ اقترب مني، صفعني لأصطدم بالجدارِ المضيء فارتدتُ أسفل أقدامه أتأوه ألمًا فجُن جنونه غضبًا وهو يصرُخ بكلماتٍ لم أفهمها، اندفع بكل قوة في جوفي فلم تمر لحظات حتى تبدلت الغرفة وتبدل كُل شيئًا بعيني، كُنت أرقُد على فراشي مغلولة الأيدي والأقدام بأطرافِ فراشي وأنظُر لسقفِ بهو منزلنا، لم أفهم كيف وصلت بفراشي إلى بهو منزلنا ولا كيف تم تقييد أطرافي بهذا الشكل ولما؟!، أسئلةً عدة طرقت رأسي ألاف الطرقات في تلك الليلة العجيبة التي بدأت بفزعِ الشياطين وغضب سيدهم وتقييد جسدي الهش ولا أعلم كيف ستنتهي، بدا لي أن تلك الليلة هي الأخيرة لي وأني أُشاهد نهاية قصتي البائسة وهذا الشيطان يدون أخر سطورها بدمائي، كُنت أتمنى أن أحيا أكثر لأحتضن أمي ولو لمرةً واحدة!، أُقبل يد أبي وأخبره أني أحبه، أن أهمس لشقيقي في أُذنهِ أني فخورةً به وأعلم أنهُ لم يقصد إيذائي لكن هذا الشيطان بدد أبسط أحلامي وبسط براثن حقده عليّ يسلبُني الأمل فأمسى الموت أعظم الأماني لأهرب من قهرِ الحياة

تحت براثنِ شيطانٌ نجس لا يتورع عن تدنيس روحي ليل نهار، عاد لي نظري ولم تعُد معه سيطرتي على جسدي أو كلِماتي!، نهضتُ عن فراشي كأنما الهواء يحملني وقُطعت قيود يدي وأقدامي وقفزت لجوارِ الفراش وأنا أصرُخ بجنونٍ وأضحك بشكلٍ مُفزع، فتشت بعيوني أمامي لأكتشف الموجودين وهو يصرُخ بحنجرتي فيهم:

ـ أيُها البلهاء أظننتم أن قيودكم الواهية تمنعُني عنها وعنكم، من هذا الذي أتى معكم ليواجهني ويتجرأ على الوقوف في حضرتي؟!.

أنهى الجملة وهو يُفتش بجنون أمامي فكان أبي وأمي وخالي يقفون لجوارهم شابان لم أعلمهما قبل هذا اليوم، حتى أتت الإجابة من كيانٌ لم تضح لهُ معالم، بدا من العدم فكان نورًا ولهُ صوتًا رخيمًا شق صدرهُ وصدري قائلاً:

ـ أنت بحضرةِ بركة ابن الصابر ابن العاصم ابن الراوي يا ابن إبليس، لا يُمكن أن تكون قد نسيت حضوري ولو طال الغياب أربعين عامًا.

ارتعد بقوة بدني وبدأ يُدقق النظر أكثر لهذا الكيان فبدأت تتضح ملامحه، رجُلاً كبيرًا لهُ لحيةً طويلة بيضاء بحُمرةٍ لا يشُبها سوادٌ، أجابهُ بضحكةٍ ساخرة وهو يهز رأسي إيجابًا قائلاً:

ـ بركة!، لقد طال الزمن حقًا حتى التقينا، يبدو أن الزمن قد أتى عليك لقد صرت كهلاً عجوزًا يا بركة، طوال أربعين عام كُنت أنتظر فيها لقاءك حتى ظننتُكَ مت!، لكن تلك ليست طريقتك يا (بركة) أنت لم تكن يومًا من هؤلاء الذين يصنعون أرض معركة ويشيدون جدرانها ويكتب ويتحدث باللغات السبع!، من هذا الذي رسم تلك الأرض وشيد جُدرانها وهتف يطلب صرفي عن تلك الفتاة حتى سمعت صوته وأنا بقلبِ الجحيم؟!.

أجابهُ بثباتٍ كان يُزعزع وجوده بداخل جسدي فكُنت أشعُرَ بمدى فزعه بداخلي قائلاً:

ـ يا ابن الشيطان أنت تعلم أن ألاعيبك لن تنطلي عليّ فقد سبق واستخدمتها معي لإغوائي وأنا بزهرةِ شبابي ولم تنفعك فهل سأقبلها وأنا بعُمري ذلك؟!، وأما عن كوني كهلاً فجميعنا هالك ولله الحمد أعلم فيما أفنيتُ عمري، أما عمن شيد الأرض وانتزعكَ من الجحيم صاغرًا أسفل أقدامي فلن أُخبرك عنهُ سأدعكَ تكتشفه بنفسِكَ ألم تدعي أنك السيد هنا؟!.

صرخ فيه بجنونٍ:

ـ لا تهزأ يا (بركة) ولا تغتر بذاتِكَ فأنت تعلم القواعد وهي

ثابتة ولن أبرح موقعي قبل أن أقتلع روح أحدهم، وأما عمن أحضرني فأنا لا أحضر صاغرًا فتلك المعركة كلينا يعلم نهايتها قبل أن تبدأ وسوف أحصل على روح أحدهم، لكني لن أخوضها معك بل سأخوضها مع من استدعاني وتجرأ على العبث معي وإن انتصر سأرحل دون أن أمس أحدهم، فما رأيك؟!.

صرخ فيه غاضبًا وهو يطرق الأرض بعصاه:

ـ كفاك عبثًا وكذبًا، لن تمس أحدهم بسوءٍ في حضرتي.

أجابهُ بضحكةٍ مُستفزة قائلاً:

ـ يبدو أنك نسيت القواعد يا بركة، أتيتُ هنا بعهدِ دم ولن أبرح مكاني بدون تنفيذه، إما روح هذا الملعون أو تلك الشيطانة، أو لقاء من استدعاني الأمر لك فما هو ردك؟

ساد الصمت للحظات وأنا أترقب إجابة (بركة) كما يترقبها (ناصور) بداخلي، ماذا عليه أن يفعل أمام كلِمات هذا الشيطان وطلبه وإصراره؟!، لقد تورط أخي في طلبه ولا انصراف له إلا بتنفيذ العهد بقتلي أو قتل أخي إما معركةً سَيتعمد فيها هذا الشيطان إيذائي بأكبرِ قدرٍ يُمكنه بل الأدق سيدفعني للهلاك بها!، هل هذا الشخص الذي رسم أرض المعركة وسمعت صوته الذي فزعت منه الشياطين حتى

فرت إلى عالمها مُنكبةَ على وجُهها لهُ القُدرة على مواجهة هذا الشيطان؟!، مرت اللحظات أعوامًا حتى تقدم أحد الشابين المجهولين ليّ من جوارِ أبي وأمي وتقدم يحني رأسهُ في تأدُبٍ بالغ يربت برفقٍ على يدِ بركة وأردف له في لهجةٍ أكثر تأدُبًا قائلاً:

ـ أنا في مكانِ أبي وسيدي، اسمح ليّ مواجهة غطرسته وخوض معركتي معه.

أمسك يدهُ بقوة وأجابه بثباتٍ عجيب:

ـ إياك والتهاون معه أو أن تغفل عنهُ للحظة فهو لن يرحمك ولن يرحم تلك المسكينة، أعد تلك الفتاة سالمة ولو الثمن عُنقك، الأمر لله من قبلِ ومن بعدِ، توكل على الحي الذي لا يموت يا ولدي فلقد سبق السيفُ العزل.

أنهى حديثهُ وتراجع للخلف فيما تقدم هذا الشاب يحتل موقع أبيه، خلع حقيبته وسلمها للشابِ خلفه ونظر تجاهنا بعينيه فشعُرت أن نظراته تخترق كلينا وأردف في قوةٍ فزعنا لها سويًا:

ـ ها قد أتيتُكَ كما طلبت، فلتعلم أن تلك المعركة لن تكسبها فأنت تخوضها تحت راية (إبليس) فهو أبيك وربك!، أما أنا فأخوضها بنور الله أُبدد به ظلام روحك وأكسرُ بحبه للإنسان

حقدُ أبيك على آدم وذُريته.

تعالت ضحكاتي الساخرة وأجابه:

ـ حقًا!، تبدو مُختلفًا عن أبيك وأراك درويشٌ مجذوب، أتملك تلك القدرة وتقف لجوارهم لو أنك معنا لكان ظفرنا بأعدائنا مُحتم، ما رأيك أترك تلك الفتاة مقابل أن تنفذ ليّ خدمة في أي وقتٍ أطلُبها، فيكون الأمر بيننا خدمة مقابل خدمة؟، أظُن ذلك عادلاً.

ابتسم بشكلٍ غريب وأومأ برأسه رفضًا وأجاب بسخريةٍ:

ـ يا للأسف!، عرضُكَ غير مُغري يا ناصور، كُنت أحسبُ أنك أقوى أبناء أبيك وأكثرهم خطورة وذكاءً، ألم تُخبرك شقيقتك عني؟!، لقد عرضت وتعرض عليّ كُل يومًا المال، القوة، النفوذ، نفسها، النساء، تضع الدنيا بأكملِها أسفل أقدامي وأرفض فيكون عرضك خدمةً بخدمةٍ!، يا لك من شحيحٌ بخيل كأبيك.

صرخ فيه بجنونٍ واشتعل غضبًا بداخل جسدي فكُنت أشعُر أن الهلاك قادم وهو يُجيبه:

ـ يا لك من لعين، إذًا اعلم فمعركتك بقواعدي أنا لا قواعدكم ولن أسمح لك باستخدام اللغة العربية سوى مرةً واحدة، لقد استدعيتني بلغتي فعليك الاستمرار بها طالما

كان ذلك قرارك من البداية.

أجاب بثباتٍ:

ـ لك ذلك.

صرخ بجنونٍ بكلماتٍ لم أفهمها فاشتعلت بوابة الجحيم وتدافع منها مئات الشياطين فصرخ فيهم يأمرهم أن يعيثوا فسادًا في قريتنا ثُم استدار يواجهه وتابع حديثهُ إليه:

ـ الآن عليك تخليصها مني فلتسمع صوت عظامها وهي تتكسر.

باغتهُ بفردِ ذراعي وكسر إصبعي فجأرت ألمًا وهو يحرر صرخاتي فهربت من سجنِ حنجرتي تشق صمت الليل، اندفع تجاهنا فقيد عُنقي بمسبحتهِ في طُرفةِ عين وهو يهتف في وجهنا:

ـ فلا أُقسم بمواقعِ النجوم.

ولم أتفهم كلمةٍ واحدة مما تبع تلك الآية منهُ، تبدل كُل شيئًا بعيني وبجسدي، تحررت أخيرًا من قيد هذا الشيطان النجس فصرتُ كعصفورً أُخرج من قفصه وجُذب بقوةٍ من بين براثنِ الشيطان وسلمني ليدِ بركة خلفه، عُدت أرى بعيني فرأيت هيئة هذا الشيطان كما رأيته أول مرةً بهيئته البشعة، وقف

أمامه (درويش) في ثباتٍ وأردف بقوةٍ:

ـ الآن المعركة بيني وبينك وحدنا وكما طلبت بلغة الشياطين والجن لا البشر، أما عن حضور (أبا يوسف المؤمن) وجنوده فهم لردع شياطينك ولن يتدخل أحدًا بيننا، أقبل بما عندك فالقادمة مني أُعيدك لقعر الجحيم كما كُنت، هذا وعد درويش ابن بركة لك يا ابن إبليس.

انفجر حقده وبُغضه في عينيهِ نارًا تُشعل قلبه الأسود فثار بجنون وهو يندفع تجاهه ويجأر بكلِماتٍ لم أفهمها وأطبق فكيه على كتف هذا الشاب وهو يُطوقه بيديه، دفعهُ الشاب في صدره بقوةٍ وهو يصرُخ فيه:

ـ بسرِ الاسمِ المُعظم قّدره.

ظفر بجملتهِ وهو يدفعهُ أرضًا، وتبعها بعدةِ كلماتٍ في صمتٍ ثم تابع حديثهُ بجهرٍ:

ـ يا خُدامِ الاسمِ المُعظم قدره توكلوا بأسرِ (ناصور) ابن عزازيل وإعادته لسجنه فلا يُحل عقدهِ إلا بأمرِ الله وتوكلوا بحفظِ أهل هذا الدار ببركةِ الاسم فأضيئوا منزلهم بنور الله إلى ما شاء الله.

أنهى كلِماته فتفجر منزلنا نورًا!، فكاد النور يذهبُ ببصريِ وأنا أُفتش عن مصدرهِ، رأيتُ هذا الشيطان يُقذف لقعرِ

الجحيم الذي أتى منهُ وتنغلق عليه بوابته وهو يصرُخ لهذا الشاب قائلاً:

ـ سَنلتقي مُجددًا ثق في كلِماتي، سأُراقبكَ كما سيعُد عليك أنفاسك كاملِ بني إبليس حتى اليوم الذي تسقُط فيه بيدي فألتهمَ روحك وأُذيقها العذاب وويلات الجحيم حتى تتمنى الموت ولا تناله.

أُغلقت بوابة الشيطان وخر هذا الشاب ساجدًا لله، اندفعت أمي وخالي(محمود) تجاهي يلتقماني من بين يدي (بركة)، صرخ خالي وهو ينظر لحالةِ يدي المُتردية من تكرارِ الكسور بها قائلاً:

ـ يجب أن نذهب بها فورًا للمستشفى، حالة يدها مُتأخرةً للغاية.

أجابه (بركة) بثباتٍ:

ـ سَيذهب معهم (درويش) ويقود سيارتهم (عصام) ويدُلهُ الطريق (بكر)، أما أنت وشقيقتك وزوجها ستبقون هنا معي.

حاولت أمي التدخل فقاطعها خالي بقوةٍ قائلاً:

ـ الأمر لكَ يا سيدنا، أمرُكَ نافذًا علينا.

نظر (بركة) لأمي وتابع في حنوٍ وصدقٍ بدا جليًا في وجهه

وكلماته قائلاً:

ـ اطمئني على أبنائك فأنا أرسل معهم الداء والدواء وسَيعودون لكِ كما تمنيتهم!، هذا وعدي لكِ.

لم أتفهم كلِماته ولم أجد الوقت للتفكير فيها، كان ألم يدي يُمزق روحي فتبعت هذا الشاب الساجد بعيوني حتى نهض واقترب منا، بسط يدهُ فأمسك يدي بلُطفٍ بالغ ووجه نظره وحديثه لخالي (محمود) قائلاً:

ـ الكسور ليست بالقوة التي تتخيلها كما أن ما يؤلم تلك الفتاة وشقيقها أعمقُ من كسور عظامهم، فهي كسور قلوبهم وشروخ أرواحهم، أسأل الله لهم الشفاء.

توقف عن الحديث وتسلم حقيبته من (عصام) وأشار لشقيقي بالاقتراب لنتحرك، أنهضتني أمي وشقيقي الذي تحرك لجواري يتقدمنا (درويش) ولجواره (عصام)، خرجنا من بابِ المنزل فكان حال بلدتنا لهُ العجب، كان عم (بكر) ينتظرنا بالحديقةِ أمام باب منزلنا، هرع إلينا في فزعٍ وتحدث بشكلٍ مُضطرب للغاية قائلاً:

ـ أحمد الله على سلامتكم، لقد رأيتُ المنزل بالكاملِ يحترق وكذلك كل منازل القرية؟!، لولا كلِمات الإمام (بركة) لنا ألا نُصدق شيئًا مما نرى لجُن جنون أهل البلدة بأكملِها، ما

الذي حدث بالداخلِ لكم؟!.

ربت (درويش) برفقٍ على كتفه وأردف في هدوء:

ـ اطمئن الجميع بخيرٍ وفي حفظٍ من الله، الآن ستدُل رفيقي لطريق أقرب مُستشفى من البلدة.

ـ رهنُ أمرك.

تحركنا تجاه سيارة خالي (محمود) فتقدم (عصام) ليحتل موقع القيادة وعم (بكر) الكرسي المجاور له، وقف (درويش) لجوارِ الباب الخلفي الأيمن فأشار لي بالصعودِ للسيارة وأشر لشقيقي بالاتجاه للباب الأخر، فكنت بالمنتصف بمؤخرة السيارة على يميني درويش وعلى يساري شقيقي، وضعت رأسي على صدر شقيقي وانهمرت دموعي في صمتٍ، لم يشعُر بي سوى شقيقي الذي ألهبت وجنتي دموعه وهي تنهمر عليّ من عينيه وهذا الشابُ الجالس لجواريٍ، كان ينحسر في جلستهِ يتحاشى الاقتراب مني ولو بنظرةٍ، كُنت أشعُر بمدى استنزافه وإرهاقه الجسدي والنفسي، لا أعلم لما كُنت أشعُر أن أنفاسهُ نفسها تكاد تنقطع!، لم يتحدث أحدنا طوال الرحلة حتى وصلنا للمستشفى، تحركت مع شقيقي للداخل بصحبةِ (درويش) الذي لم يتركنا لحظة، استقبلنا الطبيب وأجرى الفحوصات علي ذراعي وكف يدي وكان الغريب في الأمر أنهُ كرر ذات جُملة (درويش) فالكسور

متكررة لكنها ليست خطيرة ولا تحتاج لجراحةٍ، قام الطبيب بمداوة عظام يدي وإعطائي الأدوية وربط كف يدي بالأربطة الطبية المدعمة بالمعدن حتى تلتئم عظام يدي وطلب مني ألا أتي بأي مجهودٍ وأنا أعاود زيارته خلال أسبوعين وأن أحافظ على عدم تفكيك وثاق يدي من المعدن والأربطة الطبية لمئةِ يوم، خرجنا من المستشفى ودلفنا لداخل السيارة في رحلةِ عودتنا بذاتِ ترتيب قدومنا، لكن الفرق كان شاسعًا بين رحلتي العودة والذهاب!، تحاشيتُ الاقتراب من شقيقي وحينما حاول وضع رأسي على صدرهِ بعدتُ يده عني!، لم أتمكن من مسامحتِه في تلك اللحظات، كم الوجع والمآسي التي مررت بها خلال الأيام الماضية هاجمت عقلي وروحي بشراسةٍ وتلخصت جميعها بأن من ورطني في تلك المهلكة هو شقيقي فعجزت عن الغفران، الجميع مُدعيّ ومُجحف ولا تعنيه إلا مصلحته ولو على حسابِ هلاك أقرب الأقربين منه، كيف لهذا الجاحد المُجحف أن يُضحي بشقيقتهِ ولو بجهلٍ من أجل فتاةً لا يعلم عنها شيئًا؟!، ألاف الليالي والضحكات والمواساة والحب تبددت جميعها أمام رغبةٍ مجنونة ونزوةٍ واحدة له؟!، حقًا صدقت أمي حينما كانت تُصر أن (عمر) سَيكون سبب هلاك عائلتنا بالكاملِ!، أخرجني من حالتي السوداوية تلك استدارة (بكر) لنا بالخلفِ وكلماته لي مُتهللةً ملامحه قائلاً:

ـ الحمد لله الذي أنجاكم، الحمد لله حتى يبلُغ الحمد مُنتهاه.

لم أتمكن من تمالُكِ جماح نفسي فصرخت فيه:

ـ الحمد لله لماذا وعلى ماذا؟!، لقد صرخت لله أستجيرُ به حتى قُطع صوتي ولم أُجار!، جأرت لله أسألهُ الخلاص من دنسِ الشيطان ولا ذنب ليّ إلا أني شقيقة شيطانٌ أشد دنسٌ وديانة من إبليسِ ولم أُخلص!، لقد تركنا الله مُنذُ زمنٌ بعيد فدعك من التواكلِ والأمل الزائف في يدِ الله التي لم ولن تمتد لك من السماءِ، ولا ترتجي من قلوبِ البشر رحمةً فقلوبهم أظلمت برغباتِهم وأعمت أعينهم نزواتهم!؛ فلا تتحدث أمامي بهذا الزيف مرةً أخرى.

صُعق (بكر) من كلِماتي وتعثرت الكلمات في حلقهِ فأشار لهُ مجاوري بيده ليصمُت، نظرت لهُ في ضيقٍ فشعُرت كأنما يُريد هذا الشاب أن يتبارز معي عوضًا عن بكرِ فنظرت لهُ بقوةٍ ووجهت لهُ حديثي بحزمٍ:

ـ هل لكَ اعتراض على شيئًا من حديثي؟

أومأ برأسهِ نفيًا وأجابني بهدوءٍ دون أن يلتفت لي قائلاً:

ـ لا شيء، وكُل شيء.

لم أفهم إجابته ولا تجاهُله ليّ، حافظ على صمته وهدوئه حتى تابع حديثه وكان يوجههُ ل(عصام) وهو يقود السيارة قائلاً:

ـ لقد سألتني كثيرًا حتى عزفت عن الأسئلة فمن أين تُريد أن أجاوبك؟

أجابه دون أن يلتفت بلهجةٍ تحمل الكثير من البهجةِ:

ـ من أيِ موضعِ تُريد فكُلي شوقًا لإجابتك على كلِماتها!، أقصدُ أسئلتي.

ابتسم له وصمت للحظاتٍ شعُرت فيها أن ما سَينطق به هذا الشاب هو ليّ وليس لصديقهِ فأرهفتُ السمع وتحفزت للفتكِ بأي محاولةٍ للالتفاف على كلِماتي، في كثيرٍ من الأحيان ينغلق الإنسان على أفكاره فلا يسمع إلا صوت نفسه وتلك تكون أزمته الحقيقة فمن يستطيع إسماعك صوته وأنت بأكثرِ حالاتك انغلاقًا هو الأجدر بقُلبِكَ والحق أني كُنت أرتجيّ سماع صوته؛ رفع رأسهُ ينظر للطريق عبر النافذة الزجاجية لجواره وتابع حديثه بنبرته الواثقة التي طالما وقعت في نفسي كُلما تحدث:

ـ وإن للإنسانِ أعداءً أبرزهم الشيطان والنفسِ، الشيطان سلاحه الفتنةِ وأما النفسُ فسلاحها الجهلُ؛ وما تُركنا بلا درعٍ

وسيفي فكان موضع اليقين بالقلبِ وسيفُ المعرفة العقلُ.

ظفر بكلماتهِ وتنهد بأسى ثم تابع حديثه:

ـ أتعلم قصة نبي الله أيوب؟.

أجابه بلهفةٍ:

ـ بالتأكيد فهو نبي الصبر، فلقد صبر على ابتلائه أربعين عامًا.

ـ كان نبي الله ((أيوب)) أغنى أهل (حوران) وسيدها ونبيها لسبعين عامًا، حتى أتى قضاء الله وقدره وابتُليّ فذهب المال والأبناء وذهبت الصحة بل وذهبت السيادة حتى حُمل نبي الله ليُلقى بمزبلة حوران خارجها خشية الوباء!.

قاطعه مصدومًا فزعًا:

ـ أُلقي بمزبلةٍ؟!.

ـ نعم ولم يسأل الله رفع البلاء، بل الأكثر من ذلك لقد حرم على نفسه الصُراخ بالألمِ فكان يقضُم على فرعِ شجرة صغير كُلما اشتد عليه الوجع حتى كاد يخلو فكه من الأسنان.

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد ابتُليّ بلاءٍ شديد ولكنهُ جُبر في النهايةِ وما أجمل عِوضّ الله على الصابرون.

ـ نعم جبر الله حُزنه وألم قلبه وروحه بعد ثمانية عشر عامٌ من الصبرِ!، دعا الله فأُجيب وعاد لهُ المال والأبناء والصحة وشبابه وسيادته، لم جُزيّ أيوب في ظنِكَ بكُل ما أتاه من خيرٍ بعد مُعاناته الطويلة تلك؟!.

أجابه بقوةٍ بذاتِ الكلمات التي كانت على شفاهي قائلاً:

ـ عن صبره بالتأكيد!، لقد كان أيوب خير مثالا على الصبرِ.

ابتسم وهز رأسهُ أسفًا وتابع حديثه بلهجةٍ حزينة:

ـ الناظر لقصة نبي الله أيوب بعينه قد يتوهم أنهُ جُزيَّ عن صبرهِ لكن المُدقق لها بقلبه سَيكتشف أنهُ ما جُزيَّ (أيوب) عن الصبرِ وإنما جُزيَّ عن اليقينِ، فقد تصبرُ على ابتلاءٍ وأنتَ تعجزَ عن رفعهِ، أما اليقين وحده هو ما يدفعك للصبرِ برضا وأنت تملُكَ مفتاح فك كربُكَ، فكان يقينُ أيوب في حكمة الله هو منبع صبره على الابتلاء.

أجابهُ مُندهشًا:

ـ يا الله فإني كُلما سمعتك شَعُرت أني كالطفل بيد أمهُ فتُنير بصيرتي على الحياةِ، أتقصد أن أيوب كان يعلم بالأمرِ من البدايةِ وصبر على البلاء وبيده مفتاح الشفاء؟!.

ـ فلقد عَلمَ (أيوب) أنهُ يُمتحن مُنذُ اللحظة الأولى لنزول

البلاء عليه فكان علمهُ سلاحه في مواجهةِ دعوا الجهلاء بأن الله قد غضب على نبيه أو نسيه فكان نور العلم مُبددًا لظُلمات جهل دعواهم، عَلِمَ أنهُ يُمتحن بالابتلاءِ وأن جوهر المعادن لا يتجلى إلا بالصهرِ في بوتقةِ الابتلاء فيخرُج منها مُشكلاً إما مُضيئًا أو مُنطفئ وفي الحالتينِ يكون المُخرج أصلُ المعدن أما الشوائب فتتكفل بالخلاصِ منها المحنة، اليقين والعلم هم المنحة بعد كُلِ محنة، وكان يقينهُ راسخًا أنهُ إن طلب الشفاء من الله سَيشفى لكنهُ كان دائم الاعتراف بفضلِ الله عليه طوال سبعين عامًا وكان يرتجي الصبر على الابتلاءِ سبعين عامًا.

قاطعتهُ بسؤالي فلم أتمكن من الصبرِ أكثر:

ـ ولما إذًا دعا الله بكشفِ البلاء طالما كان يُريد الصبر سبعين عام أخرى، بالتأكيد نفذت قُدرته وطاقته فلكُل إنسانٌ طاقة لن يتحمل أكثر منها فهو بشر في النهايةِ.

استدار يواجهني بنظرهِ ووجه حديثه وبصره ليّ فشعُرت أنهُ يتخلل خلايا جلدي حتى وصل قلبي فنبضت شفاههُ قائلة:

ـ لم يدعوا الله لنفاذ صبره أو قدرته أو طاقته، إنما لأن البلاء اشتد عليه وعلى زوجته التي باعت ضفيرة شعرها لتُطعمه، فجأر بالوجعِ لكرامة(النبي) في هوانِ زوجته على

الناس حتى تبيع من جسدها لتُطعمه بعد أن وبخها وأقسم بضربها مئة ضربة، خشيّ أن يتحدث الجهلاء والمتربصون بأن زوجة نبي الله تبيع من جسدِها لتطعم نبي الله فتقع الإهانة على ربه من خلفِ إهانة زوجته وإهانته فلم يقبل ولذلك دعا ولذلك أُجيب، حتى في دعائِه كان زاهدًا عفيفًا بارًا، اللهم هب لنا يقين أيوب في حكمتك وبرهِ بأهله وكرمك في عطائِكَ له.

صفق(عصام) بيديه بقوةٍ وترك مقود السيارة وظفر بكلماتِه صارخًا:

ـ سُبحان الله، وكانت يدُ الله لأيوب بالابتلاءِ قبل الشفاء وبدونِ هذا الابتلاء ما كان لأيوب أن يكون مثالاً للعالمين، اللهم لك الحمد على ما أعطيت وما منعت عنا ونحنُ نُصر على طلبهِ بجهلِ وكان فيه هلاكُنا فنجيتنا بالبُعدِ عنه.

تثاقلت الدموع على جفوني فلم أتمكن من ردعها أكثر لتجري على وجنتي تغسلُني من الوجعِ، ارتفع صوت نحيبي ونحيب(عمر) لجواري وأنا أرتمي بصدرهِ، إن كان قلبي يتمزق وجسدي يتألم لأيامٍ فلقد تمزقت روح وبدن شقيقي لأعوام وأنا أعجزُ عن مدِ يد العون له وهو يصبر دون شكوى، إن أخطأ فما أقدم على ذلِكَ إلا لجفاء قلوبنا تجاهه، اللعنة على الفراق والجفاء وآلاف الحواجز التي نشيدها أمام

أحبابنا، مع أول مرارة نتجرعها لتجربةٍ قاسية لا نجد سوى أحبابنا وحدهم هم من يقفون لجوارنا؛ توقفت السيارة أمام ساحة المسجد وهبطنا منها جميعًا، رحل (بكر) لمنزله واتجه أربعتُنا إلى منزلنا وكان الوضع عجيبًا، التقمنا والدي وأمي أنا وشقيقي كمن فارق روحه وعادت له، دموع وأحضانٌ دافئة ومئات الكلماتِ التي تعد بعدم الخُذلان أبدًا، لم أتعجب من تغيُر أبي وأمي فإن كان (درويش) وهو الابن لهذا الإمام على تلك القدرة من غسل روحك بهدوء ودون أن تشعُر فبالتأكيد كان لأبيه دورًا عظيمًا مع والدينا وسأعلم كُل شيئًا من خالي (محمود) فور خلوتي به، قاطع حالتنا خالي (محمود) بحديثه إلى (عصام) قائلاً:

ـ عليك العودة بسيارتي لمنزلك حتى تطمئن زوجتك وأبنائك وعُد إلى غدًا عصرًا لتُعيدنا إلى القاهرة.

أومأ برأسه إيجابًا واجتازنا وهو يخفض رأسهُ في تأدُبٍ بالغ ليقف أمام (بركة) الجالس على كُرسيه غارقًا في تسبيحه، انخفض محاولاً تقبيل يده فأبى وربت على كتفهِ وأجابهُ ببسمةِ رضا، فسألهُ (عصام) بأدبٍ:

ـ أتأمُرني بأي شيئًا أفعلهُ لك يا أبي قبل الرحيل أو أُحضره لك معي في عودتي غدًا؟

ربت على كتفه برفقٍ وأجابه:

ـ أسأل الله لك السلامة يا بني فقط، ولا تتأخر غدًا فما يزال لدينا أمرًا عالقًا لم ينته بعد.

لم أفهم كلِماته ألم ينتهي الأمر لدينا أم أن هُنالك شيئًا أخر؟!، شاركني خالي (محمود) في قلقي فسأل (بركة) في قلقٍ:

ـ ألم ينفرج كرب أسرتي بعد يا سيدنا؟!.

ـ بلى ولكن الأمر العالق ليس لهم ولم يحن موعده بعد، أما أسرتك فلم يبقى لها سوى جلستك مع درويش بأولادِ شقيقتك، فلتصلني لغرفةٍ أستريح بها حتى الفجر.

أنهى كلِماته ونهض فأشار لهُ خالي تجاه باب غرفة الضيافة قائلاً:

ـ تفضل يا سيدنا فتلك الغرفة لك وأتمنى أن تستريح بها.

أومأ له إيجابًا وتخطانا تجاه باب الغرفة فوقف أمامه ووجه نظره وحديثه ل(درويش) قائلاً:

ـ حاول أن تلحقني قبل الفجر فالغدُ طويلاً عليك وأنت بحاجةٍ للراحة فلا تغتر بقوتك يا بُني.

ظفر بكلِماته ودلف لداخلِ الغرفة وتبعهُ أبي وأمي لغرفتهم بعد طلب خالي (محمود) منهم الخلود للراحةِ وتعهده بنا

وب(درويش) الذي طلب الجلوس معنا في الحديقة الخلفية للمنزل، وصلنا للحديقة فجلستُ على يسار (درويش) وعلى يساري شقيقي ثم خالي (محمود) الذي بدأ الحديث لضيفنا قائلاً:

ـ لقد أضاء وجود والدك ووجودك حياتنا وقلوبنا وبلدتنا، فليعيننا الله على ردِ فضلكم علينا.

أجابه (درويش) وهو يخفض رأسهُ ونظره لأسفل قائلاً:

ـ إنما الفضلُ لله وحده وأما أسباب فضله مُتعددة، الأهم دومًا للإنسان هو أن يُدرك الحكمة من ابتلائه ليهون على نفسه الألم ويتمكن من السير في طريقِ التعافي.

ـ لديك كُل الحق فيُصاب الإنسان بالمُصيبةِ فيشعر أن الدنيا انتهت، ثم تمُر ويتعافى ويبقى الأهم دومًا هو إدراكه سبب المصيبة ليتعلم منها ولكن الأغلب يكفُر بالعلمِ والحكمة مع اشتدادِ الألم عليه.

أومأ رأسهُ إيجابًا ونظر لشقيقي الصامت مُنذ بداية الليلة فسألهُ:

ـ أعلم أنكَ كفرت بكلِ شيئًا ولم تعد تفقه شيئًا مما حدث وبداخلِكَ ألاف الصرخات من الوجعِ وأُنهكت روحك في الهرولةِ للبحث عن طريق التعافي ولم تُدركه لأنك لم تعلم أو

تفقه الحكمة مما أصابك، أخرج ما في صدرِكَ وسأُجيبك.

رفع رأسه ووجه نظره له وارتسمت على وجهه ألاف القسمات فلم أتمكن من فهمِ تعبيراته أو حالته وأردف بحزنٍ بالغ بدا جليًا من نبرته التي اختلطت بالدموعِ قائلاً:

ـ أن يقفَ قلبُكَ يقطُرَ دمًا مُتهم بالقتلِ، وأن تُطرحَ نفسُكَ أرضًا ذبيحةَ نصلُ الحب، وأن تتمزقَ روحكَ في الفصلِ بين القاتلُ والضحية في سرمديةِ القضاء تُجاهد الفرار بالترقيٍ ويُعجزُها القدرِ؛ فذلكَ هو الخُذلان ممزوجٌ باليأسِ والقهر وهو ما أنا فيه، طوال حياتي أركُض بحثًا عن العلمِ والحكمة في أطلالِ التاريخ ولم أُدركهم فأدركني الألم واستوطن روحي وعلقتَ في برزخٍ بين الأحياء والأموات، هذا ما في صدري فأجبني إن أمكنك لعليّ أصل بإجابتك لأحد العالمين.

أومأ برأسه إيجابًا وسألهُ بقوةٍ:

ـ وهل سَتتقبل إجابتي لك وإن لم تسُركَ؟!.

أجابهُ بلهفةٍ:

ـ سَأقبل أي إجابة تُقنع عقلي وتجلب السكينة لنفسي، فإني أموت في كُلِ يومٍ وليلة ألاف المرات!، فمتى أحيَّ ولو مرةٍ واحدة؟!.

ـ إذًا تدبر كلِماتي جيدًا فهي سَتدفعك للتفكير أكثر ولن تُريحك الآن!، لكنها ستضع قدمك على أول طريق تعافيك.

صمت للحظات ثم فاض نهر حكمته كلِمات قائلاً:

ـ كان لهُ من الأبناءِ اثنى عشر ابنًا فبرق في عقله نور أحدهم واستشرى في قلبهِ عشقهُ فاستوطن روحه ونفسه فلهيَّ بعشقِ المخلوق عن الخالقِ!، فَحُكم عليه بالركضِ أربعين سنةً خلف أحلام الوصال، وحُكم على معشوقه بالوحدةِ في غياهبِ الجُب وقيود العبودية وذُل السجن لتمسُكهِ بعشقِ الخالقِ والوفاء بالعهدِ، فكان العاشقين على حقِ أحدهم أفرط في دلالِ الآخر والأخر أفرط في عشقِ الخالق، فكان الحُكم لعاشقِ الخالق لا المخلوق، أصبح الوحيد قُبلة القُصادِ وأضحى العبدُ حُرًا وأظهر الذليل عزيزَ مصر وحكم لهُ بالوصلِ بعد أن فقد عاشقهُ بصرهُ واثنين من أبنائهِ، فكان قميص يوسف آية وصلٍ وترياق شفاء للمُحبين، فلم يرتد لهُ البصر فحسب، إنما أحيَّ الأمل في قلوبِ العاشقين فنبض لهُ القلب فرحًا بيقينِ البصيرة.

توقف عن الحديثِ وطرق برأسه أرضًا وأومأ برأسهِ أسفًا وتابع حديثه له:

ـ وحاليَّ معك كحال يعقوب، يبكي قلبي بُعادِكَ حتى خفُت نبضه، أتلهف لقاءك ويقتُلني الشوق وسنين عُمري في غيابِكَ

عُجاف، فمتى يتحقق أملي في دواءِ اللقاء ليكون الوصل ترياق وشفاء فأرتدي قميصُ العُشاق؟!.

توقف عن الحديث وضغط برفق على قلب (عمر) المنتفض جسده ليوقف أنهار الدموع من عينيهِ بكلماتهِ قائلاً:

ـ حينما يحيىَ الأمل بقلبِكَ وينبُض قلبُك بعلمِ اليقين في حُكمِ الله وحكمته سَتتصل بالغائبِ وترتدي قميص العُشاق، وفي صبرِكَ على البلاءِ جهاد نفسٍ عظيم، فَالنفسُ مُهرةً شاردة تهوى العصيان وسياط الابتلاء تُروضها، فَلزم الصبر حتى تصل حد الرضا ولا تُسلمها لليأسِ يُهلكها.

ظفر بكلِماتهِ وانتصب واقفًا ينتوي الرحيل ووجه لهُ أخر حديثه قائلاً:

ـ لقد فاض نهرُ حُزن قلبِكَ حتى انحسر والآن أعلمتُكَ طريق سدُ العلمِ والحكمة، فلا تبحث خارجكَ وفتش بداخلِ روحك لتنجو من الفيضانِ وسنين قحطُكَ.

قاطع رحيله صُراخ (عمر) قائلاً:

ـ تطلُب مني صبر يعقوب ولا تعلم عن عشقِ ليوسفُ شيئًا!، وتطلُب مني الأمل في سنينِ العجاف ولا تشعُرَ بهلاك روحي جوعًا!، فمن أنت ولمَ تفعلَ ذلك؟!.

استدار ووجه لهُ نظرته بوجهٍ أشرقت عليه شمس الرضا وأجابه بنبرةٍ كالشروق وهي التي طالما لامست روحي ووقعت في نفسي قائلاً:

ـ تسألُني عن حُبِ للمخلوقاتِ ولا تعلم شيئًا عن حُبِ للخالقِ فأَجيبك، ولما أدركتَ الحقيقةَ أن الكُل فانيَّ ما عاد يُهمني الوجود وصار مُبتغايَّ التحصُن من الفناءِ بواجدِ كُل موجود، وتسألُني عن الأملِ في يأسِ قحطُ السنين العجاف فأُعلِمكَ، وإني أنثُرَ بذور الحُبِ والأمل في القلوبِ المُقفرة بهما، فَأرويها بعذبِ الوصال وأجمله فَيكُن حصاديَّ العشقُ المُصفى.

فاض علينا بغيثِ الأمل والحب ورحل للحاقِ بأبيهِ في غرفتهِ، استدرت برأسي أُفتش في وجُوهِ من حولي فشدهني وجه خالي (محمود) بدا كَالمسحور مأخوذًا برحيلِ (درويش) فأشحت بيدي أمام عينيه وأنا أُحدثه:

ـ ما الذي أصابك لما كُل ذلك الشرود؟!.

انفجرت من فمهِ الكلِماتِ قائلاً:

ـ عجبت من أمرِ هذا الشاب وأبيه، كُل يومٌ يزداد تعلقي وعشقي لهما، في أثناءِ غيابكِ أنتِ وشقيقكِ كان (بركة) يُداوي أصل المشكلة والمعضلة لعائلتكم.

أجبتهُ سائلة بشغفٍ للمعرفة:

ـ كيف وما الذي قالهُ لوالدينا ليُبدلهم بهذا الشكل؟!.

هز رأسه تعجبًا وتابع حديثه:

ـ ذلك هو المدهش في القصةِ، كُنت أتوقع أنهُ سوف يتحدث عن المعاملةِ السيئة منهم ل(عمر) وأن ذلك هو أصل المشكلة!، لكنهُ تحدث عن حبِهم المبالغ فيه لكِ، وأخبرهم أن ما أفسد إخوة يوسف هو دلال أبيهم له وأنهُ هو من أوجد للشيطان سبيلاً بين أبنائه حينما ضعفت ثقته في أبنائهِ باستثناء (يوسف)، أسرهم أن الفساد منهم وأن (عمر) جُني عليه بفسادِ علاقتهم به وانعدام ثقتهم فيه، وأن وصل عائلتكم بأجمعِها بيديهم وعليهم وزن الأمور بقسطاسِ الحق؛ فاستجابوا له وكان العجيب ليّ الآن أن هذا الشاب قال مضمون الأمر ل(عمر) فكيف يتواصلون بتلك الطريقة فأنا معهم منذ أول اليوم ولم يتفقا على ذلك قطعًا.

توقف عن الحديث ونظر ل(عمر) وسألهُ بشغفٍ:

ـ هل تفهمت ما يرمي إليه بحديثهِ لك؟

ابتسم لهُ وأجابهُ:

ـ الحق لم أفهم الأمر بالكاملِ، لكن الأحق أنهُ أراحني

وسكنت لكلماتهِ نفسي.

انتهت جلستنا وصعدت لغرفتي واتجه خالي وشقيقي لغرفته بجواري، لم أنل بحياتي هذا القسط من الراحة في منزلِنا مثل تلك الليلة وهم معنا بين جدرانه، كُنت أحسب أن شدهتي وأسر روحي وهيامها بهذا الشاب وأبيه سَتنتهي مع خيوطِ نور صباح اليوم التالي وهو ما لم يحدث قط.

تمـــــــــت

تنويه هام

« لمن يتعلق بالنصوصِ ويعشق الكلِمات ويقتله شغفهُ للمعرفة لا تقرأ القادم فلا علاقة لهُ بما قرأت ولكنهُ يرتبط بكلِ ما هو قادم، لذلك وجب التنويه»

تخطفتهم الشياطين

قرية النباشين

شيطاطون

اندفع يركُض تحت ساتر أخر خيوط الليل المظلم بلا توقف، يهرول تحرق صدره وروحه نيران الخوف والفزع فما كانت لتُخيفه ظُلمات الليل ولا تُنير عينيه خيوط نور الفجر ولا جمال الحقول الخضراء وهو يجتازها هربًا وبحثًا عن الملاذ الأمن لروحه بل لقريته بالكاملِ، تهدجت أنفاسه بشدة وكادت تتقطع حتى لاحت أمام عينيه مقابر القرية، استجمع ما بقي ببدنه المُتهاوي من قوة وركض بجلبابه المغمور بالترابِ وعرقهُ يقطُر من وجههِ حتى وصل لبابِ المنزل، سقط أرضًا أسفله وهو يطرُق الباب بقبضتهِ الضعيفة، فتح لهُ الباب واندفع إليه يُنهضه في فزع وهو يسأله:

ـ ما الذي أصابك يا (عبد الله) ؟!.

أجابه بأخر ما لديه من طاقة وبأنفاسهِ المتقطعة:

ـ هل رحل عن القرية الشيخ الذي حضر إلى الحاج (عمران) أمس؟

أجابه على عجلٍ وهو فزع:

ـ لا لم يرحل بعد، ما الأمر وما الذي أتى بك بهذا الشكل من قريتكم؟!.

ـ اسقيني بعض الماء وأوصلني إليه بسرعةٍ، فبلدتنا لم تنم من أمسِ وخطفت الشياطين ثلاث من أبنائنا!

لفظ أخر كلِماته وسقط مغشيًا عليه، حملهُ (بكر) لداخل منزله ولم يتمكن من إفاقته لقد أوشك موعد أذان الفجر وعليه الإسراع برفعه في المسجدِ، ترك ابن عمه وصديقه القديم بمنزله واتجه إلى المسجد، تلك الرحلة الصغيرة إلى المسجد كانت كافيةً له ليتذكر الكثير حول ضيفه وقريته وما قد يدفعه إلى تلك الحالة لكن ما شغل تفكيره هو ما الذي حدث لهم بأخر سبعة أيام ولم يكتشفه بعد، نجع (العطشان) هي احد القرى المجاورة لقريته، اكتسبت اسمها لأنها لا ترى النهر العظيم ولا يعلم أحدًا أكان ذلك لعنة تلك القرية أم سرُ سعدها وثرائها الفاحش، مُنذُ أكثر من ثلاثين عام اشتهر هذا النجع بنجعِ (الشيطان) بعدما أصابته عدة حوادث غريبة، كان أهل القرية يُريدون بناء مسجد لجوار الجبل فما بدأ الحفر حتى لاحظ البُناة وجود أثار لمقبرةٍ قديمة بدت من النقوش عليها لأحد الملوك المصريين القدماء، كان الحاج (جاب الله) هو أثرى من بالقريةِ بهذا التوقيت وكان رجُلٌ

تقيّ ورع، أمر بردم المقبرة وبناء الجُدران عليها وتم تشيد جدران المسجد وسقفهُ الخشبي، وقبل العمل على إنهاءِ البناء وتجهيزه للصلاة توفي الحاج (جاب الله) ولم يعلم أحد كيف توفيّ!، أُشيع الكثير حول وفاته بالقرية فمنهم من قال قتلته الشياطين!، ومنهم من قال قضاءً وقدر وقد قدم إلى الله أوراق براءته من ما ستندفع إليه القرية من جنون!، ولكن القول الأقرب إلى الحقِ هو ما أُشيع عن تسمُمه على يد زوجته والتي سُرعان ما تزوجت خصمه الحاج (جابر) وهو منافس الفقيد الوحيد على زعامة النجع، العائلتين هم فرسيّ الرهان هُناك وكبيريها خصمان والآن تزوج أحد الخصوم أرملة خصمه ووضع يده على أبنائهِ وأمواله وكان أهم ما وضع يدهُ عليه الأرض المُتاخمة للجبل وللمسجد الذي لم يكتمل!، كان الجميع بالنجعِ يعلم ما يتم ليلاً بعدما قرر (جابر) بناء منزلهُ الكبير مُلاصقةً للمسجدِ!، ولم تمُر أشهُر حتى وصل النجع أحد الضيوف الغير مرغوب بهم، إنه الشيخ (بدر الدين) قدُم من المغربِ ليكون في ضيافةِ الحاج (جابر) وكان الجميع يعلم أنهُ قد حضر للنبش عن الآثار المصرية القديمة أسفل منزل مُضايفه، كانت أصوات الصرخات تعُم النجع بأكملهِ فور حلول الليل ولا يتجرأ أحدًا على فتح باب منزله حتى شروق الشمس طيلة الثلاثة أيام الأولى لوصول بدر الدين للنجع، ثُم ارتفع الجنون من

الليلة الرابعة فكان في كُلِ ليلة يُفقد أحد الأطفال ولا يظهر لهُ آثر!، ثلاثة أطفال وثلاثة ليالي سوداء تباعًا، وفي اليوم السابع ظهرت السيارات الفخمة تقصد منزل الحاج(جابر) واختفى بعدها بدر الدين والسيارات وتبدل النجع، زاد ثراء (جابر) فصار فاحشًا وظهر أهلهُ وبدأوا تشيد منازلهم الفخمة وطُمست عائلة (جاب الله) طيلة عشرين سنة حتى ظهر كبيرهم الجديد الحاج (فتح الله) والذي حافظ على ما بقي لعائلته من مُلك وهو الجانب الصغير من أرض النجع والمُتاخم للجانب الآخر للمسجد الذي لم يرَ النور حتى الآن، فجأة ظهر بالنجع أحد الضيوف وهو الحاج (داود السوداني) أحد أصدقاء فتح الله وقد أتى لزيارته وطالت الزيارة لأكثر من شهرِ اشتعلت فيها الشجارات بين العائلتين والصرخات ليلاً فتذكر أهل النجع قصة بدر الدين، وكان جابر يعلم أن خصومه كانت تبحث عن الآثار مثله ويعلم أنهم سَيصلون ولن يتمكن من منعهم مهما حاول، وبين ليلةٍ وضُحاها بزغ نجم (فتح الله) وعائلته من جديد وفحش ثرائهم وارتفعت الأعمدة الخرسانية تحمل منازلهم ودلفوا لتجارة المواد البترولية فجأة!، كان الجميع يتوهم أن الأمر توقف حتى هذا الحد ولكنهُ بدأ ولم يتوقف حتى يومنا هذا، هرع كُل أهل النجع إلى النبش أسفل منازلهم عن الآثار بشكلٍ جنوني، حتى تبدل اسم القرية وأمست قرية (النباشين)،

بدأ الدجالون بالانتشار بينهم والمشعوذين والسحرة، كانت الرغبة في الثراء تُعمي الجميع وكان جنون السحرة لا حد له فضحى بعض الأهالي بأبنائهم فذبحوا قرابين للمقابر حتى فُتحت لهم ومنهم من قتل شقيقه ومن قتل زوجته، سيطر الشيطان على هذا النجع بالكامل ولم يعود هنالك شبرًا لم يتم نبشه باستثناء المسجد الذي لم يكتمل بنائه، وفحش ثراء كامل أهل القرية ولكن جشعهم لم يتوقف ولم تمتلئ أعينهم التي لم تشبع يومًا، زاغت الأبصار وشردت العقول الفارغة والقلوب المُقفرة ل(جابر) و(فتح الله) فقرروا إنهاء العداء بين العائلتين ليتزوج (خالد) ابن فتح الله من (زينة) ابنة جابر؛ لكن الجميع بالنجع كان يعلم ما يسعون إليه من خلف تلك الزيجة، عَلِمَ كامل أهل النجع من تعدُدِ السحرة والمشايخ عليهم أن كُل ما أُخرج من باطنِ النجع ما هو إلا القشور حول المقبرة الملكية أسفل المسجد الذي لم يكتمل بنائه وعليه فيجب هدمه وإخراج المقبرة!، كان الجميع يسمع الوصف لثراء تلك المقبرة فيُسحر بها ويُمني نفسه بالوصول لها وهدم المسجد، فقرر قادة العائلتين الكبار المناصفة فيما بينهم وإخراجها وكانت المصاهرة ضمان الاتفاق بينهم!، تعهد (جابر) بعودةِ بدرالدين وإخراج المقبرة ولكن(فتح الله) ما كان ليأمن مكر صهره فأرسل في طلب داود السوداني، لبى شيطان المغرب ومارق السودان الدعوات ووصلوا إلى النجع

منذ خمسة أيام وبدأ الجنون، فور وصولهم ظهر شبحٌ جديد لم يتمكن أحدهم من إيقافهِ، طاف كُل منازل النجع ليلاً فور وصول الضيفان الملعونان، حتى وصل منزل (فتح الله) قبل الفجر بساعةٍ، انتزعهُ من نومه الطرق الشديد الخشن على باب منزله الكبير، كان الطرق أقرب لصوت آلةً حديدة تطرُق معدنًا فيصدر له صدى مُرعب في الخلاءِ، يصحبهُ صوتًا جهوريًا عميقًا كأنما نهض من قلب سبعة ألاف عامًا يصرُخ باسم كُل واحدٍ في النجع، سحب مسدسه من أسفل رأسه وهرع تجاه الباب يفتحه فاتسعت عيناه وكست وجهه الصدمة، إنهُ (جاب الله) في لباسٍ أحمر وبيده صولجانٌ أثريًا وعلى رأسه تاجٌ آثري وبيُسراه درعُ حرب للمصريين القدماء يقف أمام منزل (فتح الله) ما أن وقعت عينهُ عليه حتى صرخ فيه وهو يُشير إليه بالصولجانِ قائلاً:

ـ سَعيت تنبشُ الأرض وسَتُدفن فيها، والآن تسعى لمحو ذكر اسم الله ولم يكفيك منعُ ذكره طوال ثلاثين عامًا فالآن نمحو ذكرك ونسلك ونسبك.

انتهى من كلماته ودار حول نفسه فتحول إلى دوامةٍ من الغبار وهو يبتعد، فزع (فتح الله) وصرخ ينادي على عماله وخدمه وأوقظ (داود) من فراشهِ وأعلمه بالأمر وهو ينتفض فزعًا، بدا (داود) فزعًا وسألهُ وهو يبتلع ريقهُ:

ـ قلت كان يرتدي ثيابًا أحمر ويحمل فوق رأسهِ تاجًا وبيده صولجانً وبيُسراه درعٌ؟!.

أومأ لهُ إيجابًا وصرخ فيه فزعًا:

ـ نعم، نعم، ذلك ما رأيته ورحل كعاصفةٍ من ترابٍ، من هذا وما الذي يحدث فهل يتلاعب بنا (بدر الدين)؟!.

فزع وانتصب واقفًا وصرخ فيه:

ـ بدر الدين من أيُها الأبله!، لقد ورطتنا أنت وصهرك في حربٍ مع أعتى ملوك الجن والشياطين ولن يُخرجنا من هنا أحياء، أسرع لنذهب إلى صهرك.

اندفع داود وفتح الله لزيارةِ(جابر) وفور وصولهم أمام منزله كان الصخب يعُم المنزل وما حوله ويعُم النجع بأكمله، اجتاز الرجُلين زحام البشر ودلفا لداخلِ المنزل فكان (جابر) ولجوارهِ (عبد الله) أقرب أقربائه إليه وعونه ويدهُ اليُمنى يصرُخ في ضيفه (بدر الدين) سائلاً:

ـ من هذا وما الذي يحدث ولما دفعتُ لك ملايين الدولارات أليست للحمايةِ من هكذا موقف؟!.

بدت ملامح (بدر الدين) جميعها فزعة وصرخ فيه:

ـ ما عادت تنفعنا ملايين الدولارات ولن تصرف عنا ما نحن

بصدده لقد أعلن أعتى ملوك الشر الحرب علينا وعليكم ولا أرى منجى لنا من بطشهِ.

جُن جنون الجميع وعلى مدار ثلاثة أيام تعددت زياراته كُل ليلة للجميع يقُض المضاجع ويُقظ النائمين ويُفزع القلوب، حتى توصل (داود) و(بدر الدين) لحلاً معه لإرضائه بعد طقوسًا مُضنية ذبحت فيها عشرات الأرواح من غربان وحيات وضفادع وقردة وكباش لأن يدلف الاثنان مع أبناء (جابر) الذكرين وهم (على) و(إبراهيم) و(خالد) ابن فتح الله الوحيد لداخل المسجد الذي لم يكتمل ويُعقد الصُلح، لم يقبل الأبوين الأمر في البداية حتى طمأن كُل شيطانٌ منهم تابعه بأنهُ سوف يحمي له أبنائه، فكان الموعد الليلة الماضية وتم الأمر وغاب الشباب الثلاثة بصحبة داود وبدرالدين بين جدران المسجد، وما أن دلفا إلى الداخلِ حتى ارتفعت الصرخات تشق صمت الليل واشتعلت النيران من المبنى تلتهمه بالكامل فلم يتمكن الآباء الثكلى من نجدةِ أبنائهم ولا إخماد النيران حتى خمدت فجأة وحدها، اندفع الجميع للداخل يفتشون عن ما حدث فلم يجدوا سوى جثة (داود) و(بدر الدين) مذبوحتين ومعلقتين على جدارين متقابلين بشكلِ الصلب وكل جثة بقلبٍ دائرةٍ ونجمةً خماسية وحولها كلِماتٍ ورموزٍ غير مفهومة، ولم يكن هنالك أثرًا للثلاثة شباب، أطبق (فتح الله) على عنق صهره بيديه وصرخ فيه

بجنونِ:

ـ أنت من فعل ذلك وأنا على يقين أنها إحدى ألاعيبك ولكن أعلم إن لم تجد سبيلاً لعودة نجلي لأذبحن لك ابنتك الباقية وأفنيك أنت وعائلتك عن بكرة أبيكم، موعدنا الظهر فإن أظهر ولم يعد ليّ ابني أعدت لك ابنتك جثة ولينتهي هذا النجع ويشتعل على من فيه.

كان الجميع يعلم أن القتل قادم لا محالة فالجميع مسلح ويملك المال والآن بدأت أحداث النهاية لنجع العطشان فمن بيده أن يروي ظمأهم ويُقف عجلة الدم، صرخ (عبد الله) بين جمع عائلته وهو يحدث (جابر) قائلاً:

ـ أنا أعرف من بيده الحل!

اندفع إليه جابر وسألهُ مترجيًا:

ـ من هو يا عبد الله، أخبرني؟.

أومأ برأسه إيجابًا وأجابه:

ـ تعلم أن ابن عمي (بكر) يقيم بقرية الحاج (عمران) وسبق وطلبت منك أن نُنجده منذُ أسبوع ويزوره معي (بدر الدين) لكننا انشغلنا بما يحدث هنا، بالأمس كلمني (بكر) وأعلمني أنهم زارهم شيخًا كبيرًا تمكن من فك آسر القرية بأكملها

ونجدة عمران وأبنائه وأنهُ يملك قدرةً كبيرة وهو بقريتهم الآن وأتوقع أنهُ لم يرحل بعد.

ضربهُ على صدرهِ بقوة وصرخ فيه:

ـ إذًا أسرع إليه ركضًا بين الحقول ولا تتوقف قبل أن تصل إليه وسأرسل خلفك السيارات لتجلبه لنا، أركض يا عبد الله أبنائي على شفا الموت و(فتح الله) لن يرحم أحدًا.

نهض فزعًا ينظر حوله فعلم أنه بمنزل ابن عمه وقد أُغميَّ عليه، صرخ عليه مناديًا فلم يُجيبه وأجابه بنبرةِ صوته وهي ترفع أذان الفجر عبر المكبرات، هرول خارج المنزل تجاه المسجد واندفع لداخلهِ فكان كامل أهل القرية به!، لم ينشغل عن هدفه بالتفكير عن سبب يقظة كامل أهل القرية فجرًا، اندفع تجاه قبلة المسجد فوجد (بكر) قد فرغ من رفع الآذان فقبض على كتفيه بفزع وصرخ فيه:

ـ أين الشيخ يا بكر ستموت أولادنا إن لم أجده الآن؟!.

فزع من حال ابن عمه ولم يتمكن من إجابته فربت على كتفه بقوة ليستدير إليه، نظرةً واحدة من (بركة) دفعته للصمت فلم يتمكن من الصراخ مجددًا، أجابه بنبرةٍ قوية وهو يصب غضبهُ على عينيه قائلاً:

ـ لم تتعلم يومًا آداب الحديث ببيتِ الله وكيف لك أن

تتعلم وأنتم تمنعون ذكر اسم الله لأكثر من ثلاثين عامًا، إياك أن أسمع لك صوتًا في حرمةِ بيت الله مجددًا أفهمت؟، لن يموت أحدًا إلا بأمر الله، الآن توضأ واتبعني بالصلاة فما يزال الكثير حتى الظهر.

أومأ برأسه لهُ إيجابًا وطاعة ورحل ليتوضأ، استدار (بركة) بنظره ل(درويش) و(محمود) و(عمران) و(عمر) خلفه وابتسم ووجه حديثهُ لولده قائلاً:

ـ ألم أخبرك أن تستريح فها هو الأمر قد أتى إليك فجرًا فهؤلاء قومًا لا يعلمون طريقًا للصبرِ وسَيُرهقوننا أكثر من شياطينهم.

هز رأسهُ أسفًا واتجه لإمامة الصلاة وفور انتهائه منها طلب من الجميع الرحيل من المسجدِ، جلس الجميع في شكلٍ دائري فكان بركة لخلفهِ القبلة وعلى يمينه درويش ويليه محمود يليه عمران يليه ابنه عمر يليه بكر يليه (عبد الله) على يسار (بركة) وبدأ (عبد الله) الحديث بفزعٍ يوجهه ل(بركة):

ـ يا سيدنا لقد علمت من بكر كرماتك وفيض عِلمِكَ، فجأتُك هرولةً لنجدةِ قريتنا وأبنائنا.

انفجر هذا الوجه المشع نورًا بالغضبِ وأحمر بشدة وصرخ

فيه:

ـ ولو أني صفعتك على فمكِ الناطق بالسفاهة بين جدران هذا المسجد لقيل عني جبارًا في الأرض!، ولو صمت عن سفاهتك وبلاهتك لأمسيت شيطانٌ عرفت العظمة والكِبر الطريق إلى نفسه!، فما عسايّ أفعل معك؟!.

هرع نجله للربتِ على يده برفقٍ وهمس لهُ بهدوءٍ وسكينة:

ـ حلمُك يا سيدي فالجهل دوائه المعرفة وترياقهُ الحكمة وأنت أعلمُنا وأحكمنا فأفض علينا بحلمِكَ لتداوي جهلنا بعلمك وتُشفيّ قلوبنا الفزعة بحكمتِكَ.

زفر نفسًا عميقًا وتحدث وهو يهز رأسهُ أسفًا:

ـ ابتُلينا بقومٍ قتلتهم العظمة أما نحن فأحيتنا عظمة الله، فشتان بين ما ينبُتَ ويُزهر بداخلِنا وما يذبُلَ ويموت بداخلِهم.

لفظ كلِماته ووجه نظره وحديثه ل (عبد الله):

ـ لا كرامات عندي ولا مُنجي لكم مما أصابكم إلا الله أما أنا فثمن دوائي لكم باهظ فهل لكم القدرة على الدفعِ؟!.

اتسعت أعيُن جميع الجالسين من الدهشة لكلِماته باستثناء (درويش) الذي أطرق برأسه أرضًا وهو يبتسم، فأجابهُ (عبد

الله) مُتعجلاً:

ـ نعم ندفع ولو تكلف الأمر ملايين الملايين فنحنُ كُرماء وسنُعطيك حتى نُرضيك.

نظر لهُ باسمًا وأجابه:

ـ إذًا فلقد وصلت سيارات أهلك بالخارجِ فعُد بها إلى قريتكم وأطلب من أهل نجعكم بالكامل انتظاري لجوار الزاوية الصغيرة بقريتكم ويتجهزون للسداد فأجري لن يتحمله أحدًا وحده!، ثم عُد إلى لتدُلنا على طريق قريتكم ريثما يكون عاد الغائب إليّ!

انتهى من كلِماتهِ ونهض راحلاً من المجلس فَتبعه (درويش) و(محمود) و(عمران) وابنه إلى منزلهم، لم يلتفت أو يتحدث لأحدهم طيلة الطريق من المسجد إلى الطاولة التي جلس عليها بالحديقة الخارجية لمنزل (عمران)، جلس على يمينهِ ولده وعلى يساره (محمود) فيما دلف عمران وولده لداخلِ المنزل لتجهيز طعام الإفطار للضيفين، ما أن جلس (محمود) لجواره حتى بدا سؤاله في عينيه فأجابهُ (درويش) وهو ينظر لهُ مُبتسمًا:

ـ وإن العين مِرآة الروح فإن تجملت لم ترَ بالكونِ قبح، فلا تتعجل سَتُرافقنا الرحلة وترى بعينيك وتسمع بأُذنيك إجابة

كُل ما يعيث فسادًا بداخلِكَ.

اتسعت عينيه وأجابه مصدومًا:

ـ يعيث فسادًا بداخلي؟!.

ربت بركة على كتفهِ وأجابه:

ـ السؤال بلا إجابة فسادًا وكُلما تأخرت الإجابة عاث الفساد أكثر بداخلنا حتى نبلُغ القُبح ويطمُس الجهل بداخلنا جمال الحقيقة.

قاطع حوارهم وصول (عصام) الذي اندفع تجاه (بركة) مُنحنيّ الرأس يبتغي تقبيل يده وأردف قائلاً:

ـ أعتذر عن التأخر وعن رحيلي أمس فما كان يجب على الرحيل وتحركت ليلاً حتى أصلك قبل بلوغ الفجر فألحقه معك ولكن تأخرت فلم أبلُغه وأسألك الصفح.

ربت على كتفه باسمًا وأجابه:

ـ أنت حضرت بموعدِكَ والان اصطحب (درويش) إلى السيارة واستقبلوا من سيأتي لنرحل إلى وجهتنا، سأتبعكم مع (محمود) خلال دقائق.

ـ أمرُك يا سيدنا.

رحل الشابان وبقي (بركة) و(محمود) الذي ما يزال مُندهشًا فعاد إليه (بركة) بالحديث:

ـ دفعتهم للرحيلِ لأنني لا أمنَ رد (درويش) فهو غضوب ولن يتحمل ما سَيحدُث خلال دقائق.

ـ ما الذي سَيحدُث؟!.

ضحك بقوة وربت على يده وهو يُشير بسبابته ل(عمران) القادم من المنزل قائلاً:

ـ سَترى!

اقترب (عمران) منهم وجلس معهم ووضع حقيبةً على الطاولة ونظر ل(بركة) برضا وأردف بأدب قائلاً:

ـ لقد فاض عليّ وعلى آل بيتِ كرمك يا سيدنا وهذا المبلغ أتمنى أن يكون كافٍ لما قدمتهُ لنا بالأمسِ أنت وولدك.

هز رأسه بشكلٍ غير مفهوم كثيرًا حتى خرجت كلِماته ونبرته عميقةً قوية تُزلزل كيان الجالسين معه قائلاً:

ـ ليس كُل نقصٍ لهُ علاجٍ بزيادتهِ، فَبعضَ النواقص في كمالِها نقصُ؛ فأنا ينقُصني من وجهة نظرِكَ القاصرة والتي لا تُبصر بها لأبعد من أسفلِ أقدامك المال ومؤكد عندي أن كماليَّ بمالِكَ هذا نقصيّ، أما أنت فَينقُصك البصيرة والأدب

ولعلك بإدراكِ نواقصكَ تبلُغ السبب.

ظفر بكلِماته وانتصب واقفًا ونظر ل(محمود) وتابع حديثه بأخر كلِماته قبل الرحيل قائلاً:

ـ أما أنتَ فَنقصُكَ هو أهلك فَزد قُربكَ منهم وأعد رباط الشراكة بينكم وأوصل رحِمكَ علك تقترب بهم حدُ الكمال.

رحل الإمام ونجلهُ عن قرية (عمران) ولم يرحل عن أي شخصًا فيها، تبدل حال تلك الأسرة تمامًا في شهرٍ واحد، اقترب (عمر) بشدةٍ من أبيهِ وبدأ زيارة مقر تجارته والاقتراب من المهندسين الزراعين لديهم والاعتكاف على الأبحاثِ لتطوير زراعتهم مستغلاً ما لديه من ثقافةٍ كبيرة حتى برق برأسهِ العمل على زراعة إحدى أكثر النباتات الطبية النادرة والمستوردة لشركتهم التي عادت بين أبيه وخاله(محمود) كإحدى ثمار زرع (بركة) فيهم، وكانت اليابان قد أجرت أبحاثًا طويلة عن زراعة بعض النباتات بآلية ضوء المصابيح عوضًا عن الشمس لبعضِ النباتات التي تنبُت بالضوء الخافت وقد أوشك على إنهاء بحثه وتنفيذه بأرضهم، وكذلك شقيقته وأمه تطورت العلاقة بينهم وأزهر الحب بمنزلهم فبدلهُ لجنةً؛ واليوم هو اليوم المنتظر لكل آل (عمران) فهرولت (زينب) تجاه المطبخ لتجد والدتها تعكُف على تجهيز الوليمة، فسألتها بشغفٍ:

ـ هل عاد(عمر) من الجامعةِ وهل اتصل أحدكم بخالي(محمود) ليعلم أين هو الآن؟!.

أجابتها وهي تُبسط لها يديها المُلطختان بدماء الطماطم ضاحكة:

ـ من أين ليّ المعرفة يا زينب وأنا على حالي هذا مُنذ الفجر، اتصلي بهم أنتِ.

أومأت برأسها إيجابًا واندفعت لصالة منزلهم الذي تبدل ليحتل جانب الجلوس فيه مكتبة (عمر) الضخمة وهي السُنة الجديدة بهذا المنزل فأصبح الجميع يقرأ ويجلسون يوميًا بعد العشاء للتناقش في أحداث اليوم بالكاملِ، جلست على أحد الكراسي وأخرجت هاتفها واتصلت بشقيقها فأجابها:

ـ صباح الأمل، كيف حال وردتي اليوم؟.

ـ أنا بخير، أخبرني هل تحركت بالسيارةِ من الجامعة؟!.

ضحك بقوة وأجابها:

ـ كنت أتفهم قلقكِ ذلك قديمًا فكُنت أتي وأعود بالمواصلات، ومُنذُ شهر واصبحت لدي سيارتي وسائقي فلما القلق؟!.

ضربت قدمها بيدها وأجابته بنفاذ صبر:

ـ لستُ قلقة وإنما مُتعجلة، وأما عن سيارتك فلتدعوا للشيخ (بركة) فهو السبب، الآن أخبرني أين أنت فلقد أوشك صبري على النفاد؟

ـ أنا بقلبُكِ يا حبة قلبي.

شدهتها إجابته فنظرت للهاتفِ وأعادت وضعه على أُذنها وأجابته:

ـ هل أتصل بشقيقي أم محبوبي؟!، أين أنت أجب سريعًا فأُريد الاتصال بخاليّ (محمود)؟!.

لم تسمع إجابة من الهاتف، أتتها الإجابة من خلفِها وهو يحتضنها بين ذراعيه من الخلفِ ويُقبل رأسها ويُجيبها ضاحكًا:

ـ قلت لكِ بقلبُك فهل أخطأت؟!.

نهضت ضاحكة وهي تضربه برفق على صدره وأجابته:

ـ يا لك من شيطانٍ ماكر، أُريد الاتصال بخالي لأعلم أين وصل فلقد اشتقت له كثيرًا ولم نراه مُنذُ رحل مع الشيخ (بركة).

ضحك بقوة وأجابها بخُبثِ:

ـ أنتِ لا تشتاقين إلى خالكِ وإنما تشتاقين لمعرفةِ ما

حدث بنجع العطشان وأرى أنكِ تتناسين أن للشيخ (بركة) نجلاً لا أذكُر أسمه فما هو؟!.

أنهى كلِماته وهو يضع سبابته على عقله يتصنع التفكير، فأعادت ضربه بغضبٍ وأجابته:

ـ الحق أنكَ شيطانٌ فلقد عَلِمنا سويًا القصة من (بكر) فكيف أُفتش عنها؟!، وأما عن ابنه فاسمه (درويش) وهل نسيته وهو من بدلنا أيُها الخبيث؟!.

ضحك بقوة وهو يضع يده على موضع ضربتها له وأجابها:

ـ لا لم أنس وكيف ذلك ولكن شتان بين قصة (بكر) وما سَنعرفه من خالي (محمود) فهو من كان معهم أما بكر فسمع مثلنا.

ـ إذًا دعني أتصل به.

ـ لا فلقد اتصلت به قبل أن تُكلميني وهو على وشكِ الوصول.

عادت تُكيل له الضربات بغيظٍ وهي تصرُخ فيه:

ـ أنت خبيث بقدرٍ لا يوصف، ولما لم تُخبرني من البدايةِ؟!.

تعالت ضحكاتهم وهو يحتضنها بصدرهِ، حتى جلسا متجاورين مُنهكين فسألتهُ شقيقته وهي تنظر لعينيه:

ـ الآن فلتُخبرني بما حدث مع (نورا)، هل تحدثت إليها؟!.

شرد للحظات وتحدث وهو يتجنب النظر لعينيها حتى لا تلمح الدموع الحبيسة بها وأجابها:

ـ هل تتذكرين كلِمات (درويش) ليّ بالحديقةِ؟!.

ـ بالتأكيد ولكن ما علاقتها ب(نورا)؟!.

ـ كلِماته تتعلق بي فدومًا ما كانت المعضلة بداخلي وليست بالخارجِ، هذا ما أدركته بعد رحيله بثلاثةِ أيام راجعت فيها كل ما مررت به، كم كان دقيقًا حينما أخبرني أنها بداية طريق التعافي وأن الترياق لجروحي بداخلي.

ـ إذا هل تعافيت ووجدت ترياقك؟

ـ نعم تعافيت ووجدته، حينما تسببت في ضررِ كُل من حولي لم أكن أرى سوى (نورا) أردت الهرب من حياتي إليها وكان الحق أن أواجه نفسي وحياتي ففعلت ووجدت الطريق للسعادةِ بالرضا بما أنا فيه وقبولي بقدري وأني وريث أبي وعليّ أن أُرضيه وأرضي أمي لترضى نفسي، وعلى أن أُحب شقيقتي وأهتم بها لأتذوق حلاوة الحب الصافيّ بلا غرض فرضي قلبي.

بدت غاضبة وسألته بنفاذ صبرٍ:

ـ وأين (نورا) من كُل ذلك؟!.

ـ تركتها تمامًا للقدرِ كما تعلمين، فإن كانت ليّ سنتصل حتمًا وإن لم تكن فسترحل.

سألتهُ مصدومةً:

ـ ألا تشتاق لها ولرؤيتها يا (عمر)؟!.

وضع يده على صدره وأجابها:

ـ لو أن لقلبي قوة من لديهِ علم الكتاب لأوجدتك قبل أن يخفق قلبي شوقًا إليك، فأجدك مُستقرًا بين يدي.

أمسكت بيده وسألته بحنو:

ـ ألهذا القدر تُحبها؟!.

أومأ برأسهِ إيجابًا وأجابها:

ـ نعم ولقد حدثتني اليوم.

التقمت كلِماته بفرحٍ بالغ وسألته بشغفٍ:

ـ وماذا حدث بينكم؟.

ـ أنتِ تعلمين أني انعزلت عن الجميع بالجامعةِ فابتعدت كثيرًا عنها وعن كُل أصدقائي هناك فاعترضت طريقي نهاية اليوم عند باب غرفة المحاضرات قبل رحيلي، بسطت يدها

إلى وسألتني قائلة:

ـ أرى أنكَ تبدلت وابتعدت كثيرًا ألسنا أصحابك؟!.

نظرت لها وشرُدت للحظات بعينيها، فهربت كلِماتِ تحمل وجعي قائلاً:

ـ أنا صاحبُكِ بلا صادٍ ولا كاف، فأصبحتُ بألفِ ضُمة بالشوقِ لكِ وأجاهد بالبُعدِ شدتُكِ للباء.

صرخت فيه شقيقته بسعادةٍ:

ـ أُحبّ، لقد أخبرتها بحُبك أخيرًا، بماذا أجابتك إذًا؟!.

حرك كتفيه ببلاهة وأجابها:

ـ ومن أين ليّ أن أعلم فلقد هربت فور أن أجبتها.

تعالت ضحكاتها وأجابته:

ـ يا لك من غبي، ألم تتوقف للحظات تسمع إجابتها؟!.

قاطع حديثهم صوتان أحدهم لأحد العاملين بالمنزل يُخبرهم بوصول (محمود) لوكالة أبيهم وأنهم سَيصلون المنزل خلال دقائق لتناول طعام الغداء، والآخر لنغمة الرسائل بهاتف (عمر)، نهض الشقيقين تغمرهم السعادة فنظرت لشقيقها قائلة:

ـ اليوم ستكون سهرتنا طويلة مع خالي ولن نتركه قبل أن نعلم كُل ما حدث بنجع العطشان.

أخرج(عمر) هاتفه وشرد وهو ينظر إليه فلم يُجيبها، بدا لها كالمسحور فربتت على كتفه وهي تسأله في قلقٍ:

ـ ما الأمر وما الذي وصلك بالهاتف لتُصعق بهذا الشكل.

نظر لها بوجهٍ يحمل ألاف القسمات والدموع تهرب من عينيهِ وهو يُسلمها الهاتف في صمتٍ، التقمت منه الهاتف ونظرت إليه فكانت رسالةً من (نورا) كَتبت فيها:

ـ باء بها بداية قصتنا، ثم حاء هي حكايتنا، وباء أخرى ببعضِنا ارتضينا، فكانت كاف أخيرة هي كفايتنا.

هربت دموع فرحها من عينيها وكلِمتها وهي تحتضن شقيقها قائلة:

ـ أجابتكَ «بحبك».

إهداء خاص

«أبي وسيدي، ولما كانت ظُلمات الليل طويلة كُنت أنت قمري المُنير ومُلهمي طريق الرشاد وكانت أحلك أوقاتي هي التي يُصيبك فيها أمرًا فكُنت أراك فيها هلالاً سَيكتمل حتمًا فأسأل الله أن يُديم نورك بقلبي»

« أمي وأملي، كُلما اشتد على نفسي بردُ وجفاء البشر كُنتِ وحدكِ شمسي المُشعة نورًا ومُلهمة روحي بدفئ قلبك الأمان وجالبة السكينة لنفسي، فاللهم أدم عليّ بعظمتك وجود نور شمسي ودفئها لتُزهر روحي بقربها»

«صلاح رمضان شهيدًا بالجنة وابن قلبي، كانت إقامتك بالدُنيا قصيرة فلم تدم لأكثر من سبعة عشر عامًا وعشرين يومًا، ولما كان يقيني في حياتك أن البشر هم من سَيهلكون الدُنيا ولا خير ولا أمل فيهم كُنت أنت برحيلِكَ درسٌ من الله ليّ بأن من البشرِ من في قُربه حياة وبصدره أمل يكفي الدُنيا فكم من حياةٍ وهبتها ليّ بقُربِكَ وكم من أمل زرعتهُ بداخلي، أسال الله لك السعادة والرحمة وأن يُبدلك خيرًا بأخرتك عن الدُنيا وما فيها»

« على بطل شهيدًا بالجنة وابن قلبي، بماذا أبكيك وأُنعيك يا ابن قلبي وكانت حياتك بيننا قصيرة فلم أتمكن من إخبارك

كم أُحبك حتى شق صدورنا نصل فراقك وكلما تذكرتك برقت في روحي ابتسامتك الصافية، أسال الله أن يُبدلك عنا خيرًا ويضُمك إلى رحمته لتنعم بالحُبِ الإلهي والسعادة التي طالما فتشت عنها»

«عمي الحاج سيد عصفور، قد تظن أنني جاحدًا لم يستحق القرب منك يومًا وقد يكون في أسبابِ ذلك الظن ألاف الحقائق التي يؤكدها العقل، لكنِ معك لم أحتكم يومًا إلا لقلبي وها أنا أعترف لك أن العقل أعجزني عن وصلك لألاف الأسباب ولكن إقامتك في قلبي دائمة ولم تُغادره لحظة ويتردد على أذني صوتك وأنت تهمس لي قائلاً «أطرق كُل الأبواب ولا تتوقف حتى يفتح لك أحدها» فكانت كلماتك دستور عملي وسَتبقى، أدعوا الله لك دومًا وأسألك إن علمت كلِماتِ أن تغفر لولدٍ أعجزتهُ الأسباب عن وصلِ أبيه الروحي»

« الصديق والآخ رمضان فاروق، لم أنس كلماتك يا صديقي «أول الغيث قطرة» ولتعلم أني فخورًا بك وبوجدك دومًا حتى لو لم نلتقي فإني أخبرك أني أحبك».

« محمد مكرم/ ولاء عبد الرحمن، يا صاحبيّ الدُنيا وإن أعجزني عنكم الوصال الجسدي فلا يُعجزني عنكما وصال القلبِ، فرقتنا الدنيا ولم ولن تُفارقاني لحظة فلكم خالص حبي ووفائي لكم، أحبكم».

السيرة الذاتية للكاتب

• باسم زكي / كاتب مصري.. حاصل على درجة البكالوريوس من كلية الإعلام جامعة القاهرة ؛ يكتب الروايات مُنذُ عام ٢٠١٠.. له العديد من الأعمال وصدر له منها بعام ٢٠١٩:

• رواية (كوما).

• رواية (الجَبيرة).

أعمال صدرت بعام ٢٠٢٠:

• رواية (المُخلّص ــ أرض النور).

• أعمال صدرت بعام ٢٠٢١:

• رواية (المُخلّص ـ ملحمة الخلاص)

الأعمال التي نُشرت إلكتروني والتي لم تُنشر بعد:

• سلسلة (بارانورمال).. تصدر الكترونيا.

• رواية (أبواب جهنم)

• رواية (صرخة شام)

• رواية (الساحر والإمام/ العهود السليمانية)

- رواية (الساحر والإمام/ مجلس العشرة).
- رواية (الساحر والإمام/ التيجان السبعة).
- رواية (المرزبان).
- رواية (جبريل).
- رواية (خديجة).